إسرائيل شاحاك

الديانة اليهودية وتاريخ اليهود

وطأة ٣٠٠٠ عام

قدم له:

إدوار سعيد



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

الديانة اليهودية وتاريخ اليهود

اسرائيل شاحاك

اسرائيل شاحاك

الديانة اليهودية وتاريخ اليهود

وطأة ٣٠٠٠ عام

ترجمة: رضى سلمان

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص. ب ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان

برقياً: انكلسامس

تلفون ٢ / ٣٥٠٧٢١

تلفون + فاكس: ٦٠٢٠٢٩ - ٣٥٣٠٠٠ (٩٦١١)

الطبعة الرابعة ١٩٩٧م

تصميم الغلاف: جومانا ابو شقرا

مقدمة الطبعة العربية

البروفسور اسرائيل شاحاك، استاذ مادة الكيمياء العضوية، (المتقاعد)، في الجامعة العبرية بالقدس، من خيرة المرموقين في الشرق الاوسط المعاصر. التقيته للمرة الاولى، وشرعت في مراسلة منتظمة معه، منذ نحو ٢٥ سنة، في اعقاب حرب ١٩٦٧، ثم في اعقاب حرب ١٩٧٣. وُلد في بولندا، وكان احد الناجين الذين استطاعوا الهرب من معسكرات الاعتقال النازية. جاء الى فلسطين فور انتهاء الحرب العالمية الثانية، وخدم في الجيش، مثله مثل جميع الشباب الاسرائيليين آنذاك؛ ثم خدم في الاحتياط العسكري لفترات قصيرة في فصول الصيف، ولعدة سنوات، كما يقتضي القانون الاسرائيلي.

وشاحاك، الذي يمتلك ذهناً بحّاثاً وفاحصاً شرساً لا يلين، تابع سيرته كمحاضر جامعي وباحث بارز في الكيمياء العضوية، وغالباً ما نوّه به طلابه كأفضل الاساتذة، ومُنح الجوائز على ادائه الاكاديمي، بدأ في الوقت نفسه، يشهد ما تنطوي عليه الصهيونية وممارسات دولة اسرائيل، من آلام وحرمان ليس فقط لفلسطينيي الضفة الغربية وغزة، بل للعدو الكبير من غير اليهود ايضاً (اي الأقلية الفلسطينية) الذين لم يرحلوا اثناء عمليات الطرد في العام ١٩٤٨، وبقوا حيث هم، ليصبحوا من ثم، مواطنين اسرائيليين. وقد قاده ذلك الى البحث والاستقصاء في طبيعة الدولة الاسرائيلية، وفي تاريخها والمقولات السياسية والايديولوجية، التي سرعان ما اكتشف بانها مجهولة من معظم اليهود غير الاسرائيليين، وخصوصاً يهود الشتات الذين كانت اسرائيل بنظرهم دولة رائعة وديمقراطية ومعجزة، تستحق الدعم والحماية غير المشروطة.

ولقد انشأ شاحاك رابطة حقوق الانسان الاسرائيلية، التي امضى عدة سنوات في رئاستها. وهذه الرابطة هي عبارة عن مجموعة صغيرة نسبياً من الاشخاص الذين يتشاطرون الرأي، والذين يؤمنون بوجوب ان تكون حقوق الانسان متساوية للجميع وليس لليهود فقط. وفي هذا السياق تحديداً، اطلعت على عمله للمرة الاولى. والشيء الوحيد الذي يميّز على الفور، مواقف شاحاك السياسية عن مواقف معظم الاسرائيليين الآخرين والحمائم اليهود من غير الاسرائيليين، كان انه وحده عبّر عن الحقيقة من دون بهرجة، ومن دون مراعاة لاحتمال الا يكون قول هذه الحقيقة صراحة، امراً «حسناً» لاسرائيل او لليهود. ولقد كان في كتاباته واقواله العلنية، معادياً عداء عميقاً للعنصرية، وبودي ان اقول، بأنه كان معادياً عداء تهجمياً وراديكالياً لها. فقد كان هناك معيار واحد ووحيد فقط، لانتهاكات حقوق الانسان، ولذلك لم يكن مهماً اذا كان اليهود الاسرائيليون يعتدون، في معظم الاوقات، على الفلسطينيين كونه كمفكر عليه ان يشهد ضد هذه الاعتداءات. وليست مبالغة ان نقول بانه يلتزم بموقفه التزاماً دقيقاً الى حد انه سرعان ما اصبح رجلاً مكروها جداً في اسرائيل. واذكر بان وفاته أعلنت قبل نحو ١٥ عاماً، على الرغم من انه كان حياً يُرزق. فقد ذُكر نبأ موته في تقرير نشرته صحيفة «واشنطن بوست». وعلى الرغم من انه قام بزيارة الصحيفة ليثبت بانه ليس ميتاً، فإن زيارته، كما اخبر اصدقاءه بجذل، لم تؤثر على هذه الصحيفة التي امتنعت عن نشر تصحيح للنبأ. ولذلك فانه ما زال «ميتاً» بالنسبة الى بعض الناس، وهذه رغبة من بنات الخيال، تكشف الى اي حد يستطيع شاحاك ان يجعل «اصدقاء اسرائيل» يشعرون بالضيق.

وينبغي ان يُقال ايضاً، بان طريقة شاحاك في قول الحقيقة كانت دائماً بالغة في دقتها ولا هوادة فيها. فليس في هذه الحقيقة ما يغوي، وهو لا يبذل اي محاولة لقولها بطريقة «لطيفة»، كما لا يبذل اي جهد لتكون هذه الحقيقة مستساغة او قابلة للتفسير بطريقة ما. فالقتل بالنسبة الى شاحاك، هو القتل العمد، هو القتل. وطريقته هي التكرار والصدم وتحريك الكسالى او غير المبالين، لاستنهاضهم الى وعي للالم الانساني، مشبوب بالهمّة، بحيث يكونون مسؤولين عن هذا الالم. ولقد ازعج شاحاك الناس في بعض الاحيان، واثار غضبهم، ولكن هذا جزء من شخصيته،

وينبغي ان نقول بأنه جزء من ادراكه للرسالة التي يبشر بها. ولقد ايّد شاحاك، هو والبروفسور الزاحل يهوشواع ليبوفيتس، الذي كان شاحاك يكنّ له اعجاباً شديداً، وغالباً ما عمل معه، ايّد مصطلح «اليهودية ـ النازية»، لوصف طبيعة الطرق التي يستخدمها الاسرائيليون من اجل اخضاع الفلسطينيين وقمعهم. ومع ذلك، فانه لم يقل او يكتب في يوم من الايام، شيئاً لم يكتشفه بنفسه، او لم يره بام عينيه، او لم يختبره مباشرة. والفارق بينه وبين معظم الاسرائيليين الآخرين انه ربط بين الصهيونية واليهودية والممارسات القمعية ضد غير اليهود، واستخلص الاستنتاجات بالطبع.

وكان للكثير مما كتبه شاحاك دور في كشف الدعاية والاكاذيب على حقيقتها. فاسرائيل دولة فريدة من نوعها في هذا العالم، من حيث الاعذار التي تُساق لصالحها: فالصحافيون إما لا يرون،أو لا يكتبون، ما يعرفون بانه الحقيقة، خوفاً من ادراج اسمائهم في القائمة السوداء، او خوفاً من الانتقام؛ والشخصيات السياسية والثقافية والفكرية، خصوصاً في اوروبا والولايات المتحدة، تتقصّد امتداح اسرائيل، وتغدق عليها قدْراً من الانعام لا يحظى بمثله اي بلد آخر في هذا العالم، مع ان العديدين منهم يعون جور هذا البلد، ولا يقولون عنه شيئاً. والنتيجة هي ستار من الدخان الايديولوجي الذي بذل شاحاك وحده، واكثر من اي شخص آخر، جهداً لتبديده. وشاحاك الذي كان بنفسه، ضحية من ضحايا المحرقة النازية، وأحد الناجين منها، يعرف معنى معاداة السامية. ولكنه مع ذلك، وعلى عكس معظم الآخرين، لا يسمح لفظائع المحرقة النازية بالعمل على تحوير حقيقة ما فعلته اسرائيل للفلسطينيين باسم الشعب اليهودي. فالمعاناة بالنسبة اليه، ليست ملكاً حصرياً لمجموعة واحدة من الضحايا، بل ينبغي ان تكون عوضاً عن ذلك، وان كانت نادراً ما تكون، الاساس لأنسنة الضحايا، بجعلهم يعون واجب الامتناع عن التسبب بمعاناة من النوع الذي اختبروه. ولقد حذر شاحاك مواطنيه من مغبة النسيان بان التاريخ المروّع لمعاداة السامية الذي عانوا منه، لا يخولهم الحق في أن يفعلوا ما يرغبون بفعله لمجرد انهم ذاقوا المعاناة. ولا غرابة اذن، بانه بات مكروهاً لانه بقوله

مثل هذه الامور، قد قوّض الاساس الاخلاقي لقوانين اسرائيل وممارساتها السياسية تجاه الفلسطينيين.

ويذهب شاحاك حتى ابعد من ذلك. فهو علماني مُطلق، لا يتذبذب، عندما يتعلق الامر بتاريخ الانسانية. ولا اقصد بذلك ان اقول بانه ضد الدين، بل انه بالاحرى ضد الدين كطريقة لتفسير الاحداث وتبرير المواقف الوحشية المنافية للعقل السليم، وتعظيم شأن جماعة من «المؤمنين» على حساب الآخرين. ومما يدعو الى الدهشة ايضاً، ان شاحاك ليس من رجال اليسار بالمعنى الصحيح للكلمة. فهو في نواحٍ مختلفة، نقّاد شديد للماركسية، تتبع مبادؤه اثر المفكرين الاحرار والليبراليين والعقلانيين العامين الشجعان، من الاوروبيين، من امثال فولتير واورويل. وما يجعل شاحاك حتى اكثر مهابة كمؤيد لحقوق الفلسطينيين، هو انه لا يستسلم للفكرة التي تغلب عليها الاعتبارات العاطفية، والقاضية بعذر الفلسطينيين على حماقاتهم لانهم عانوا في ظل سيطرة اسرائيل. فهو بعيد عن هذا الموقف، وكان دائماً نقّاداً شديداً لمنظمة التحرير الفلسطينية، لاهمالها، ولجهلها لاسرائيل، وعدم قدرتها على معارضتها معارضة تتّسم بالعزم، ولمهاوداتها الدنيئة وافراطها في اجلال الفرد لشخصه وليس لما يمثله، ولانعدام جديتها عموماً. ولقد رفع صوته بقوة ايضاً، ضد الانتقام او جرائم «الشرف» ضد النساء الفلسطينيات، وكان دائماً من مؤيدي حركة تحرر المرأة.

وخلال الثمانينات عندما اصبح شائعاً سعي المفكرين الفلسطينيين وبعض مسؤولي منظمة التحرير الفلسطينية، من اجل «الحوار» مع الحمائم الاسرائيليين من حركة «السلام الآن» وحزب العمل وجبهة ميرتز، ثابر هؤلاء على استثناء شاحاك. وكان احد اسباب هذا الاستثناء ان شاحاك كان يقف موقفاً نقاداً للغاية، من معسكر السلام الاسرائيلي بسبب مهاوداته وممارسته الضغط المخزي على الفلسطينيين ليغيروا سياستهم، وليس على الحكومة الاسرائيلية، وبسبب تمنّعه عن تحرير نفسه من قيود «حماية» اسرائيل بالامتناع عن التفوّه باي انتقاد لها امام «غير اليهود». اما السبب الآخر فكان ان شاحاك لم يكن يوماً من رجال السياسة، فهو،

بكل بساطة، لم يكن يؤمن بمسلك تصنّع المواقف والمداورات في الكلام، الذي ينغمس فيه طوعاً، ذوو الطموحات السياسية. فقد ناضل من اجل المساواة والحقيقة والسلام الحقيقي والحوار مع الفلسطينيين، بينما ناضل الحمائم الاسرائيليون الرسميون من اجل ترتيبات تجعل من سلام اوسلو نوع السلام الممكن الذي كان شاحاك من الاوائل الذين نددوا به. وانني اقول كفلسطيني، بانني كنت دائماً اشعر بالخجل لان النشيطين الفلسطينيين الذين كانوا مهتمين بالحوار، في السر او في العلن، مع حزب العمل او ميرتز، رفضوا ان تكون لهم اي صلة بشاحاك. فهو بالنسبة اليهم، راديكالي اكثر من اللزوم، وصريح اكثر من اللزوم، وهامشي جداً فيما يتعلق بالسلطة الرسمية. واعتقد بانهم كانوا في سرّهم، يخافون ايضاً، من ان يكون شاحاك نقاداً للسياسات الفلسطينية. ولا شك بانه كان سيفعل.

بالاضافة الى كونه قدوة تُحتذى، فإن شاحاك كمفكر لم يقدم، في اي وقت من الاوقات، على خيانة رسالته او المهاودة بالحقيقة كما يراها، وادى خدمة كبيرة على مرّ السنين، لاصدقائه ومؤيديه في الخارج. فقد انطلق من الفرضية الصحيحة بان الصحافة الاسرائيلية كانت، ومن المفارقة، صادقة ومفيدة فيما يتعلق باسرائيل، اكثر من وسائل الاعلام العربية والغربية، ليعمل بدأب على ترجمة آلاف المقالات من الصحافة العبرية، وتذييلها بشروحات، ثم نسخها وارسالها الى الخارج. ومن المستحيل المغالاة في تقدير هذه الخدمة. وبالنسبة الي كشخص تكلم وكتب عن فلسطين، ما كنت لأستطيع ان افعل ما فعلته من دون اوراق شاحاك، ولا بالطبع، من دون قدوته كباحث عن الحقيقة والمعرفة والعدالة. ان الامر هو بكل هذه البساطة، ولذلك، فانا مدين له بدين هائل من العرفان بالجميل. ولقد قام شاحاك بهذا الجهد على نفقته الخاصة في معظم الاحيان، وعلى حساب وقته الخاص ايضاً. فالهوامش التي اضافها والمقدمات الموجزة التي كتبها لمختاراته الشهرية من الصحف، لا تُقدّر بثمن، لفطنتها الجارحة وجزالة معانيها العميقة المفيدة، وما تتميز به من الصبر اللامتناهي الذي يتحلى به المعلم. وكان شاحاك طوال هذا الوقت، يواصل بالطبع، ابحاثه العلمية وعمله التعليمي، الذي لم يكن له اي علاقة اطلاقاً، بترجماته وحواشيها التفسيرية.

ولقد وجد شاحاك بطريقة ما، الوقت اللازم ليصبح اكثر الاشخاص الذين عرفتهم في حياتي تبحّراً في العلم. ومعرفته في الموسيقى والادب وعلم الاجتماع، وفي التاريخ قبل كل شيء - في اوروبا وآسيا واماكن اخرى - لا ندّ له فيها بحسب خبرتي. ولكنه يتفوّق على الكثيرين غيره كعالم في اليهودية، بما ان اليهودية هي التي شغلت طاقاته كعالم وكنشيط سياسي منذ البداية. وفي السنوات الاخيرة بدأت تتخلل ترجماته تقارير سرعان ما اصبحت وثائق شهرية، يتألف الواحد منها من بضعة الآف كلمة في الموضوع الواحد. ومن هذه التقارير على سبيل المثال، تقرير حول الخلفية الحاخامية الحقيقية لاغتيال اسحق رابين، وآخر حول الاسباب التي من اجلها ينبغي ان تعقد اسرائيل سلاماً مع سوريا (لان سوريا، برأيه المثير للدهشة، هي البلد العربي الوحيد الذي يستطيع فعلاً، ان يؤذي اسرائيل عسكرياً). وكانت هذه التقارير عبارة عن خلاصات من الصحافة لا تُقدّر بثمن، بالاضافة الى تحليلات ثاقبة الرأي، وغالباً ما كانت ملهمة، للاتجاهات والمسائل الجارية، التي تطمسها عادة وسائل الاعلام العادية، او تغفل الابلاغ عنها.

لقد عرفت شاحاك دائماً، مؤرخاً عظيماً ومفكراً لامعاً وعالماً جامعاً للعلوم، ونشيطاً سياسياً، ولكنني، وكما قلت اعلاه، ما لبثت ان ادركت بان «هوايته» الاساسية كانت دراسة اليهودية والتقاليد الحاخامية والتلمودية، والتبحّر في هذا الموضوع. ولذلك، فان هذا الكتاب مساهمة ذات تأثير كبير في هذه الامور. فهو ليس اقل من تاريخ موجز لليهودية الكلاسيكية واليهودية الاحدث، بقدر ما تنطبق على فهم لاسرائيل الحديثة. فشاحاك يظهر بان الوصايا المبهمة والشوفينية الضيقة، ضد الآخرين غير المرغوب فيهم، وعلى اختلافهم، يمكننا ان نجدها في اليهودية (وفي غيرها طبعاً، من تقاليد الديانات الموحّدة الاخرى)، ولكنه ينطلق من ذلك ليظهر التواصل بينها وبين الطريقة التي تعامل بها اسرائيل الفلسطينيين والمسيحيين وغيرهم من غير اليهود. وتبرز بذلك، صورة ذات هول عظيم، عن التحامل والنفاق واللاتسامح الديني. والمهم في ذلك، ان وصف شاحاك لا يكذّب الروايات حول ديمقراطية اسرائيل التي تحفل بها وسائل الاعلام الغربية فحسب، بل يتهم ضمناً ايضاً، الزعماء والمفكرين العرب لرؤيتهم الجاهلة بصورة فاضحة، لهذه الدولة،

خصوصاً عندما يقولون لشعوبهم كما لو كانوا هم الصادقون دون غيرهم، بان اسرائيل قد تغيّرت فعلاً، وتريد الآن، السلام مع الفلسطينيين والعرب الآخرين.

اسرائيل شاحاك رجل فائق الشجاعة، وينبغي ان يُكرّم للخدمات التي قدّمها للانسانية. ولكن المثال على العمل الدؤوب والطاقة الاخلاقية التي لا تفتر، والتألق الفكري، الذي وضعه شاحاك قدوة تُحتذى، هو في عالمنا اليوم، احراج للحالة الراهنة ولجميع الذين تعني لهم كلمة «مثير للجدل» كل ما هو «مكدّر» و «باعث على الاضطراب».

ويغمرني سرور عظيم لان عملاً موسّعاً من اعماله سيصدر للمرة الاولى، باللغة العربية. الا انني على يقين بان ما يقوله في كتابه «الديانة اليهودية وتاريخ اليهود» سيكون مصدر انزعاج لقرائه العرب ايضاً. وانا على ثقة بانه سوف يقول بان هذا مدعاة سرور له.

ادوار سعيد

نيويورك، كانون الثاني/يناير، ١٩٩٦

اواخر الخمسينات، اخبرني ناقل الاقاويل، الذائع الصيت، والمؤرّخ بين الحين والآخر، جون ف. كندي، كيف كان هاري س. ترومان، منبوذاً من الجميع عندما تقدم لترشيح نفسه للرئاسة عام ١٩٤٨. فكان ان جاءه صهيوني اميركي الى القطار الذي كان يستخدمه لتنقلاته في حملته الانتخابية، حاملاً له حقيبة تحتوي على مليوني دولار عداً ونقداً. «لهذا السبب كان اعترافنا باسرائيل على هذه الدرجة من السرعة». ولاننا لم نكن معادين للسامية، لا انا ولا جاك، (على عكس والده وجدي)، فقد اعتبرنا هذه القصة مجرد قصة مسلية اخرى عن ترومان، وعن الفساد الهادئ للسياسة الاميركية.

ولسوء الحظ، فقد نتج عن الاعتراف المتسرّع باسرائيل كدولة، ٤٥ عاماً من التشويش الفتّاك، وتدمير ما ظن رفاق الدرب الصهيونيون انه سيغدو دولة تعددية ـ تكون وطناً للسكان الاصليين من مسلمين ومسيحيين ويهود، ووطناً مستقبلياً لمهاجرين مسالمين من اليهود الاوروبيين والاميركيين، ووطناً للذين تظاهروا منهم بالاعتقاد ان وكيل العقارات الاكبر في السماء، قد وهبهم، والى الابد، اراضي يهودا والسامرة. وبما ان العديد من المهاجرين كانوا من الاشتراكيين الجيدين في اوروبا، فلقد افترضنا بانهم لن يسمحوا للدولة الجديدة بان تتحول الى دولة يحكمها رجال الدين، وبان السكان الاصليين الفلسطينيين يمكنهم العيش معهم كمساوين لهم. ولكن هذا لم يُقدّر له ان يحصل .

ولست في صدد سرد قصص الحروب وانذارات الخطر في هذه المنطقة التعسة. ولكنني سأقول بان الاختراع المتسرّع لاسرائيل قد سمّم الحياة السياسية والفكرية في الدولة التي تُعتبر راعية لإسرائيل ـ والمستبعد أن تكونها في الوقت نفسه ـ عنينا بذلك الولايات المتحدة.

ولانه لا توجد أقلية اخرى في التاريخ الاميركي، اختطفت تلك الراعية المستبعدة في وقت من الاوقات، كل هذا القدر من الاموال من دافعي الضرائب الاميركيين، من اجل استثمارها في «وطن». ان الامر كما لو كان دافع الضرائب الاميركي قد اجبر على دعم البابا في اعادة فتحه للدول البابوية لمجرد ان ثُلث شعبنا من الروم الكاثوليك. فلو جرت محاولة كهذه لكانت اثارت ضوضاء غظيمة، ولكان الكونغرس الاميركي قال «لا». ولكن اقلية دينية لا يجاوز تعدادها الاثنين بالمائة، اشترت او هدّدت ٧٠ عضواً من اعضاء مجلس الشيوخ الاميركي (الثلثين اللازمين في هذا المجلس، لتجاوز فيتو رئاسي غير مرجّح)، في الوقت الذي تتمتع فيه بتأييد وسائل الاعلام.

ولشدّ ما انا مُعجب، من بعض الوجوه، بالطريقة التي قام بها اللوبي الاسرائيلي بعمله لضمان ذهاب بلايين الدولارات، سنة بعد اخرى، لجعل اسرائيل «حصناً ضد الشيوعية». اذ لم يكن هنالك وجود كبير في المنطقة، لا للاتحاد السوفييتي ولا للشيوعية. ولكن ما تمكنت اميركا من فعله هو ان تجعل العالم العربي، الذي كان ودياً في يوم مّا، يتحول ضدنا. وفي هذه الاثناء، اصبح التضليل الاعلامي حول ما يجري في الشرق الاوسط، اكثر مما كان عليه في السابق، والضحية الرئيسية لهذه الاكاذيب الرخيصة ـ اذا وضعنا دافع الضرائب الاميركي جانباً ـ هي اليهود الاميركيون الذين يستأسد عليهم باستمرار، ارهابيون محترفون من امثال بيغن وشمير. وما هو اسوأ من ذلك، ان المفكرين اليهود الاميركيين، باستثناء قلة شريفة، قد تخلّوا عن الليبرالية لصالح تحالفات معتوهة مع اليمين المسيحي (المعادي للسامية) ومع المجمّع الصناعي ـ العسكري. ولقد كتب احدهم بطريقة غير مبالية، في العام ١٩٨٥، يقول بان اليهود وجدوا لدى وصولهم الى الساحة الاميركية، أن «الرأي العام الليبرالي والسياسيين الليبراليين اكثر مؤانسة في مواقفهم، واكثر احساساً بالاهتمامات اليهودية» ولكن المصلحة اليهودية الآن، تقضي بالتحالف مع الاصوليين البروتستانت لانه بعد ذلك كله، «ما الفائدة من ان يتمسك اليهود، بتصلب ورياء، بآراء الماضي القريب؟» عند هذه النقطة انشق اليسار

الاميركي، اما هؤلاء منّا الذين انتقدوا حلفاء الامس اليهود لانتهازيتهم الضّالة، فقد كوفئوا في الحال، بالصفة التقليدية نفسها، ألا وهي «معاداة السامية» او بصفة «اليهود الذين يكرهون أنفسهم».

ولحسن الحظ ان صوت العقل حيّ يُرزق وبحالة جيدة، وفي اسرائيل دون غيرها من البلدان. ومن القدس، لا يكنّ اسرائيل شاحاك ابداً، عن التحليل، ليس فقط عن تحليل سياسة اسرائيل المكربة اليوم، بل التلمود نفسه ايضاً، وتأثير التقاليد الحاخامية برمتها، على الدولة الصغيرة التي تنوي المؤسسة الحاخامية اليمينية تحويلها الى دولة لليهود فقط، يحكمها رجال الدين. وأنا اقرأ شاحاك منذ سنوات. انه ينظر نظرة الهجّاء الى التشويشات التي نجدها في اي ديانة تحاول ان تعقلن ما هو غير عقلاني. ان لشاحاك نظرة العالم الثاقبة الى التناقضات النصية. انه متعة للقراءة عندما يكتب عن كاره الاغيار، الطبيب العظيم بن ميمون.

وغنّي عن القول بان السلطات الاسرائيلية تدين شاحاك. ولكن ماذا تملك ان تفعل مع استاذ كيمياء متقاعد، وُلد في وارسو عام ١٩٣٣، وامضى طفولته في معسكر الاعتقال في بيلسن. لقد جاء الى اسرائيل في العام ١٩٤٥، وخدم في الجيش الاسرائيلي؛ ولكنه لم يصبح ماركسياً في السنوات التي كانت فيها الماركسية شائعة. فقد كان - وما زال - شخصاً معنياً بخير الانسان، يحتقر الامبريالية ان باسم الرب ابراهيم ام باسم جورج بوش. وكان على حد سواء، يعارض بفطنة ومعرفة واسعة، النزعة الاستبدادية في اليهودية. فشاحاك، كما لو انه كان توماس باين بالاضافة الى كونه متعلماً علماً عالياً، يوضح لنا الاحتمال الذي ينتظرنا، والتاريخ الطويل خلفنا ايضاً، وهكذا، يواصل تحكيم العقل، سنة بعد اخرى وهؤلاء الذين سينتصحون بكلامه سيكونون بالتأكيد، اكثر حكمة - وهل اجرؤ على القول بانهم سيكونون افضل؟ انه النبي العظيم الاخير ان لم يكن آخر الانبياء العظام.

بقلم غور فيدال

الفصل الاول

اليـوتـوبيـا المغلقة؟

اكتب هنا ما اعتقده الحقيقة، فقصص الاغريق كثيرة، وهي في رأيي قصص سخيفة.

(هيكاتيوس ميليتوس ـ كما نقلها هيرودوتس)

افلاطون صديق، ولكن الحقيقة صديق اعظم.

صياغة جديدة لعبارة ارسطو في كتابه «الاخلاق».

في الدولة الحرة يستطيع كل انسان ان ينكر كما يشاء، وان يقول ما ينكر به.

(سبينوزا)

على الرغم من أن هذا الكتاب مكتوب باللغة الانكليزية وموجه الى شعوب تعيش خارج دولة اسرائيل، فإنه، في ناحية من نواحيه، يشكل استمراراً لنشاطاتي السياسية كيهودي اسرائيلي. لقد بدأت هذه النشاطات عام ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦، إثر احتجاج تسبّب، آنذاك، في فضيحة كبيرة. فقد كنت شاهداً على يهودي متعصب لا يسمح باستخدام هاتفه في احد ايام السبت، لاستدعاء سيارة اسعاف من

اجل شخص غير يهودي صودف انهياره في الضاحية التي يسكنها بالقدس. وعوضاً من ان الجأ بكل بساطة، الى نشر نبأ هذه الحادثة في الصحف، طلبت اجتماعاً مع اعضاء هيئة المحكمة الحاخامية لمدينة القدس، المؤلفة من حاخامات تعيّنهم دولة اسرائيل. وقد سألت هؤلاء عما اذا كان مثل هذا التصرف يتوافق مع تفسيرهم للديانة اليهودية، فأجابوني بان هذا اليهودي، موضوع البحث، كان مصيباً في تصرّفه، بل تقياً صالحاً. ودعموا قولهم هذا باحالتي الى فقرة في مختصر معتمد للشرائع التلمودية، كان قد كُتب في هذا القرن. فما كان مني الا ان كتبت تقريراً بالحادثة، لليومية العبرية الرئيسية «هآرتس»، التي تسبب نشرها للقصة بفضيحة اعلامية.

وكانت النتائج الناجمة عن الفضيحة بالنسبة الي، نتائج سلبية نوعاً ما. فلا السلطات الحاخامية الاسرائيلية ولا نظيراتها في الشتات، عكست حكمها القائل بان اليهودي لا يجوز له انتهاك حرمة السبت من اجل انقاذ حياة احد الاغيار (غير اليهود). ولقد اضافوا الى حكمهم هذا، الكثير من الهذر المغلّف بالتقوى، والذي كان مفاده ان عملاً من هذا النوع، اذا كانت نتيجته تُعرّض اليهود، فقط، للخطر، يصبح حينئذٍ انتهاك حرمة السبت من اجلهم انتهاكاً جائزاً. ولمّا كنت قد بدأت في شبابي بدراسة الشرائع التلمودية التي تحكم العلاقات بين اليهود وغير اليهود، بات واضحاً بالنسبة الي، وبالاستناد الى هذه المعرفة التي اكتسبتها، ان لا الصهيونية، ولا حتى في جزئها الذي يبدو علمانياً، ولا السياسة الاسرائيلية منذ ولادة دولة اسرائيل، ولا سياسات مؤيدي اسرائيل اليهود، في الشتات، خصوصاً، يمكنها ان تكون مفهومة ما لم يُؤخذ في الحسبان التأثير الاعمق لهذه الشرائع وللنظرة الى العالم التي تخلقها وتعبّر عنها في آن. وإن السياسات الفعلية التي انتهجتها اسرائيل بعد حرب الايام الستة، ولا سيما سياسة التمييز العنصري التي يتسم بها الحكم الاسرائيلي في المناطق، وموقف الاكثرية اليهودية من مسألة حقوق الفلسطينيين، حتى كفكرة مجرّدة، قد عززت قناعتي ليس الا.

وانني لدى إدلائي بهذا القول، لا احاول ان اتجاهل الاعتبارات السياسية

والاستراتيجية التي تكون قد اثرت في حكام اسرائيل. فما اقوله بكل بساطة، هو ان السياسة الفعلية هي تفاعل بين الاعتبارات الواقعية (صحيحة كانت ام خاطئة، أو برأيي، خلقية كانت ام غير خلقية) وبين التأثيرات الايديولوجية التي تميل الى ان تكون اكثر نفوذاً كلما كانت مناقشتها اقل، وكلما كان «جرّها الى تحت الاضواء» اقل. فأي شكل من اشكال العنصرية والتمييز وكراهية الغير يصبح اقوى واكثر نفوذاً سياسياً اذا اعتبره المجتمع الذي يتعاطاه امراً مسلّماً به. ويصح هذا القول بصفة خاصة، اذا كانت مناقشته ممنوعة، ان رسمياً ام بالاتفاق الضمني. وعندما تكون العنصرية والتمييز وكراهية الغير سائدة في وسط اليهود وموجهة ضد الاغيار وتوقدها الدوافع الدينية، فانها تصبح كحالتها النقيضة، أي كمعاداة السامية ودوافعها الدينية. ولكن في الوقت الذي تناقش فيه معاداة السامية اليوم، نجد تجاهلاً عاماً خارج اسرائيل اكثر مما هو في داخلها، لوجود العنصرية والتمييز وكراهية الغير بالذات، في وسط اليهود ضد غير اليهود.

تعريف الدولة اليهودية

لا يمكننا ان نفهم، حتى ولا مفهوم اسرائيل كـ«دولة يهودية»، كما تعرّف اسرائيل نفسها رسمياً، من دون بحث المواقف اليهودية السائدة، تجاه غير اليهود. والتصوّر الخاطىء الشائع بان اسرائيل ديمقراطية حقيقية، حتى من دون ان نراعي حكمها في المناطق المحتلة، هو تصوّر ناشىء عن رفض مواجهة المغزى في مصطلح «الدولة اليهودية» بالنسبة الى غير اليهود. وفي رأيي، أن اسرائيل كدولة يهودية، تشكل خطراً ليس على نفسها وسكانها فحسب، بل على اليهود كافة وعلى الشعوب والدول الاخرى جميعاً في الشرق الاوسط وما ورائه. كما ان الدول او الكيانات الشرق اوسطية الاخرى، التي تعرّف نفسها كدول او كيانات «عربية» او «اسلامية»، كتعريف اسرائيل لنفسها على أنها «دولة يهودية»، فإنني اعتبرها بأنها تشكل بدورها خطراً ايضاً. ولكن في الوقت الذي يُبحث فيه هذا الخطر على نطاق واسع، فإننا نرى أن الخطر المتأصل في الطابع اليهودي لدولة اسرائيل، ليس موضوعاً مطروحاً على بساط البحث.

لقد كان لمبدأ اسرائيل كـ«دولة يهودية» اهميته العظمى لدى السياسيين الاسرائيليين منذ نشوء الدولة؛ وقد غُرس هذا المبدأ في اذهان السكان اليهود بمختلف الوسائل التي يمكن تصوّرها. وفي اوائل الثمانينات، عندما برزت اقلية من اليهود الاسرائيليين تعارض هذا المبدأ، أقرّت الكنيست في عام ١٩٨٥، وباغلبية ساحقة، قانوناً دستورياً (اي قانون يتقدم على مواد القوانين الاخرى كافة و التي لا يمكن الغاؤها الا بإجراء خاص). وبموجب هذا القانون، لم يعد يسمح لأي حزب بالمشاركة في انتخابات الكنيست اذا كان برنامجه يعارض، علناً، مبدأ «الدولة اليهودية»، او اذا كان يقترح تغييره بالوسائل الديمقراطية. وانني، شخصياً، اعارض هذا المبدأ الدستوري، فالتبعات القانونية بالنسبة الي، تعني بانني لا استطيع، في دولة انا مواطن فيها، ان انتمي الى حزب له مبادىء اتفق معه فيها ويكون مسموحاً له بالمشاركة في انتخابات الكنيست. وحتى هذا المثل يبيّن بان دولة اسرائيل ليست دولة ديمقراطية بسبب تطبيقها لايديولوجية يهودية موجهة ضد الاغيار، وضد اليهود المعارضين لهذه الايديولوجية، اجمعين. ولكن الخطر الذي تمثله هذه الايديولوجية المهيمنة لا يقتصر تأثيره على الشؤون الداخلية فحسب، بل على السياسات الخارجية الاسرائيلية ايضاً. وسيستمر هذا الخطر بالنمو ما دام تعزيز حركتين ناميتين مستمراً في الوقت الحاضر: ازدياد الطابع اليهودي لدولة اسرائيل، وازدياد قوتها، وخصوصاً القوة النووية. اما ازدياد النفوذ الاسرائيلي في المؤسسة السياسية الاميركية فهذا عامل آخر ينذر بالشؤم. ولذلك، فان المعلومات الدقيقة حول اليهودية، وخصوصاً حول معاملة اسرائيل لغير اليهود، ليست، الآن، على الصعيد السياسي، معلومات مهمة فحسب، بل حيوية ايضاً.

ودعوني ابدأ بالتعريف الاسرائيلي لمصطلح «اليهودي»، لأظهر الفارق الاساسي بين اسرائيل كـ«دولة يهودية»، وبين اكثرية الدول الاخرى. فاسرائيل بحسب هذا التعريف، هي «مُلْكٌ» لاشخاص تعرّفهم السلطات الاسرائيلية كـ«يهود» بصرف النظر عن المكان الذي يعيشون فيه، وتعود اليهم وحدهم. اما من ناحية اخرى، فهي لا «تعود» لمواطنيها من غير اليهود، الذين تُعتبر مكانتهم لديها مكانة دونية، حتى على الصعيد الرسمي.

وهذا يعني عملياً، بان افراد قبيلة من قبائل البيرو، اذا اعتنقوا الديانة اليهودية، واعتُبروا بالتالي من اليهود، يحق لهم ان يصبحوا مواطنين اسرائيليين على الفور، وأن يستفيدوا من حوالى ٧٠ بالمائة من اراضي الضفة الغربية (ومن ٩٢ بالمائة من مساحة اسرائيل الاصلية)، المكرّسة رسمياً، لصالح اليهود فحسب. اما الاغيار كافة (وليس الفلسطينيون وحدهم)، فإنهم يُمنعون من الاستفادة من هذه الاراضي. (وينطبق هذا المنع حتى على الاسرائيليين العرب الذين خدموا في الجيش الاسرائيلي وبلغوا رُتباً عالية فيه). والحالة التي تشمل البيروفيين الذين اعتنقوا اليهودية، قد حصلت، بالفعل، منذ بضع سنوات. وقد جرى توطين هؤلاء اليهود الجدد في الضفة الغربية، بالقرب من نابلس، في اراض يُستبعد منها المواطنون غير اليهود استبعاداً رسمياً. وتقوم حكومات اسرائيل كافة بمجازفات سياسية كبيرة، بما فيها المجازفة بالحرب، من اجل هذه المستوطنات، التي يقتصر تأليفها على اشخاص معرّفين كـ«يهود» (وليس كـ«اسرائيليين»، كما تدعي، كاذبة، غالبية وسائل الاعلام)، ومن اجل ان تكون مستوطنات خاضعة لسلطة «يهودية» فقط.

واظن بان المسيحيين، اذا اقترحوا ان تتحول الولايات المتحدة، او المملكة المتحدة الى «دولة مسيحية» تعود فقط لمواطنين يعرّفون رسمياً، كـ«مسيحيين»، فان يهود الولايات المتحدة، او بريطانيا، سوف يعتبرون ذلك معاداة للسامية. ونتيجة عقيدة من هذا النوع هي ان اليهود الذين يعتنقون المسيحية سوف يصبحون مواطنين كاملين بسبب تحولهم. وينبغي لنا ان نتذكر بان فوائد اعتناق ديانات اخرى كانت معروفة جيداً من اليهود، من تاريخهم الخاص. فعندما كانت الدول المسيحية والاسلامية تميّز ضد الاشخاص كافة، الذين لا ينتمون الى ديانة دولة، بمن فيهم اليهود، كان اليهود يزيلون هذا التمييز على الفور، بتحولهم عن ديانتهم. والتمييز الذي تعامل به دولة اسرائيل الشخص غير اليهودي سيتوقف في اللحظة التي يعتنق فيها، هو او هي، الديانة اليهودية. وهذا يظهر ببساطة، بان نوع الحصرية نفسه الذي تعتبره اكثرية يهود الشتات كمعاداة للسامية، تعتبره اكثرية اليهود كافة، كيهودية. ومعارضة معاداة السامية والشوفينية اليهودية على حد سواء، امر يُعتبر

في وسط اليهود، وعلى نطاق واسع، كمثل «كراهية الذات». وهذا مفهوم اعتبره كلاماً فارغاً.

وهكذا، يصبح معنى مصطلح «اليهودي»، ومشتقاته، بما فيها اليهودية، معنى مهماً في مضمون السياسة الاسرائيلية، وبمقدار اهمية معنى «الاسلامي»، عندما تستخدم ايران هذا المصطلح رسمياً، ومعنى «الشيوعي» عندما كان الاتحاد السوفييتي يستخدم هذا المصطلح رسمياً. الا ان معنى مصطلح «اليهودي» كما هو شائع استخدامه، معنى غير واضح، لا بالعبرية ولا عندما يُترجم الى لغات اخرى، ولذلك كان ينبغي تعريفه رسمياً.

فبحسب القانون الاسرائيلي يُعتبر الشخص «يهودياً» اذا كانت والدته او جدته، او جدته لامه، او جدته لجدته، يهودية في ديانتها؛ او اذا اعتنق الشخص الديانة اليهودية بطريقة ترضي السلطات الاسرائيلية، ولكن شرط الا يكون هذا الشخص قد تحول في وقت من الاوقات، عن اليهودية واعتنق ديانة اخرى، ففي هذه الحالة تقلع اسرائيل، عن اعتباره «يهودياً». ويمثل الشرط الاول من الشروط الثلاثة، التعريف التلمودي لـ«من هو اليهودي»، وهو التعريف الذي تعتمده الارثوذوكسية اليهودية. ويعترف التلمود والشرع الحاخامي اللاحق له ايضاً، بتحول غير اليهودي الى اليهودية (مثلما يعترف بشراء اليهودي لعبد غير يهودي، يليه نوع آخر من التحول عن ديانة واعتناق اخرى) كطريقة من الطرق، لكي يصبح المرء يهودياً، شرط ان يُجري مراسم التحول بالطريقة الصحيحة، حاخامات مخولون هذه السلطة. وهذه «الطريقة الصحيحة» تستلزم بالنسبة الى الاناث، معاينتهن من ثلاثة حاخامات وهنّ عاريات في «حمام التطهير»، وهو طقس وان كان معروفاً من قراء الصحف العبرية كافة، فان وسائل الاعلام باللغة الانكليزية غالباً ما تحجم عن ذكره، على الرغم من كونه، بلا ريب، موضوعاً مثيراً لاهتمام بعض القراء. وآمل بان يكون هذا الكتاب بداية لعملية تُصحح هذا النقص.

ولكن هناك ضرورة ملحة اخرى لتعريف من هو اليهودي ومن هو غير اليهودي. فدولة اسرائيل تميّز لصالح اليهود وضد غير اليهود، في العديد من

مجالات الحياة؛ وانني اعتبر ثلاثة منها المجالات الاهم من غيرها: حقوق الاقامة، الحق بالعمل، والحق بالمساواة امام القانون. ويقوم التمييز في مسألة الاقامة على حقيقة ان نحو ٩٢ بالمائة من ارض اسرائيل هي ملك للدولة، وتديرها سلطة ارض اسرائيل بموجب قوانين اصدرها الصندوق القومي اليهودي (J N F) للمنظمة الصهيونية العالمية. وينكر الصندوق القومي اليهودي في قوانينه الحق بالاقامة والحق بمزاولة عمل تجاري، وغالباً، حق العمل ايضاً، على كل من هو غير يهودي، لمجرد انه ليس يهودياً، بينما لا يُمنع اليهود من الاقامة ومزاولة العمل التجاري، في اي مكان في أسرائيل. واذا جرى تطبيق مثل هذه الممارسة التمييزية ضد اليهود في اي دولة اخرى، فان هذه الدولة ستوصم فوراً، وعن حق، بمعاداة السامية، وستوقد بلا شك، احتجاجات شعبية واسعة النطاق. ولكن عندما تُطبق اسرائيل هذا التمييز كجزء من «ايديولوجيتها اليهودية»، فان هذه الممارسة تحظى عادة، بتجاهل مجتهد، او بتبريرات اذا ذُكرت، وهي نادراً ما تذكر.

اما نكران حق العمل فيعني بان غير اليهود يمنعون رسمياً، من العمل على الاراضي التي تديرها سلطة اراضي اسرائيل، وفق انظمة الصندوق القومي اليهودي. ولا شك أن هذه الانظمة لا تُنفذ دائماً، ولا حتى في اغلب الاحيان، ولكنها انظمة موجودة. وتحاول اسرائيل من وقت الى آخر، تنظيم حملات تنفيذ بالقوة، بواسطة سلطات الدولة، مثلما هو الحال، على سبيل المثال، عندما تعمل وزارة الزراعة ضد «وباء السماح لعمال عرب بجني محاصيل بساتين الفاكهة العائدة ليهود، والقائمة على ارض قومية [اي على ارض عائدة لدولة اسرائيل]»، حتى ولو كان العرب، موضوع البحث، مواطنين اسرائيليين. وتتشدد اسرائيل ايضاً، في منع اليهود الذين يستوطنون ارضاً من «الاراضي القومية» من اعادة تأجير ولو جزءاً من ارضهم الى اشخاص عرب، حتى لوقت قصير؛ ويُعاقب عادة، الذين يفعلون ذلك بغرامات باهظة. ولكن لا يوجد خطر يحول دون اقدام المواطنين غير اليهود على تأجير اراضيهم الى مواطنين يهود. وهذا يعني، في حالتي الخاصة، بانني امتلك الحق، بفضل كوني يهودياً، باستئجار بستان من يهودي آخر، لقطف ثماره، ولكن غير اليهودي، سواء أكان مواطناً اسرائيلياً ام مقيماً غريباً فيها، لا يمتلك هذا الحق.

ولا يتمتع مواطنو اسرائيل من غير اليهود بحق المساواة امام القانون. ويُعبّر عن هذا التمييز في العديد من القوانين الاسرائيلية، التي تحجم عادة، تلافياً للحرج، عن ذكر مصطلحَيْ «اليهودي» و«غير اليهودي» صراحة، كما هو الحال في قانون العودة الاساسي. وبحسب هذا القانون، فان الاشخاص المعترف بهم رسمياً، دون غيرهم بانهم «يهود» لهم الحق التلقائي بدخول اسرائيل والاستيطان فيها. ويتسلم هؤلاء بصورة تلقائية، «شهادة هجرة»، تزودهم فور وصولهم بـ «الجنسية نظراً لعودتهم الى الوطن اليهودي»، ويحق لهم الحصول على تقديمات مالية عديدة، تتفاوت نوعاً ما، بحسب البلد الذي هاجروا منه. فاليهود الذين يهاجرون من دول الاتحاد السوفييتي السابق، يحصلون على «هبة استيطان» تزيد على ٢٠٠٠٠ دولار للعائلة الواحدة. وبموجب هذا القانون، يكتسب جميع اليهود الذين يهاجرون الى اسرائيل، وعلى الفور، حق التصويت في الانتخابات، وحق انتخابهم ممثلين في الكنيست ـ حتى وان كانوا لا يتكلمون كلمة عبرية واحدة.

وتستعيض القوانين الاسرائيلية الاخرى عن هذه المصطلحات بعبارات تفوقها بلادة، مثل عبارتي «كل من يستطيع الهجرة وفق قانون العودة»، و «كل من لا يحق له الهجرة بموجب قانون العودة». وبالاستناد الى هذا القانون، موضوع بحثنا، تُمنح التقديمات عندئذ، للمدرجين في الفئة الاولى، وتُحجب بانتظام، عن المدرجين في الفئة الثانية. وبطاقة الهوية التي يفترض على الجميع حملها في كل الاوقات، هي الوسيلة الروتينية لفرض التمييز في الحياة اليومية.

فبطاقات الهوية تسجل «القومية» الرسمية للشخص؛ ويمكن لهذه «القوميّة» ان تكون «يهودية» او «عربية» او «درزية» او ما شابه ذلك، ولكن ليس «اسرائيلية»، وهذا استثناء ذو مغزى. وكان الاسرائيليون الذين ارادوا ان يوصفوا رسمياً كاسرائيليين في بطاقات هوياتهم، او حتى كاسرائيليين يهود، قد فشلوا في محاولاتهم لاجبار وزارة الداخلية على السماح لهم بذلك. اما الذين حاولوا ذلك فعلاً، فقد تلقوا كتاباً من وزارة الداخلية مضمونه: «تقرر الامتناع عن الاعتراف بقومية اسرائيلية». ولكن هذا الكتاب لم يحدد الجهة التي اتخذت هذا القرار، ومتى اتخذته.

وتميّز قوانين وانظمة عديدة في اسرائيل لصالح الاشخاص المعرّفين اشخاصاً «يستطيعون الهجرة وفق قانون العودة»، مما يستدعي معالجة مستقلة للموضوع. ولكننا نستطيع هنا، النظر في مثل واحد قد يبدو تافهاً بالمقارنة مع قيود الاقامة، ولكنه مع ذلك، مثل مهم لأنه يميط اللثام عن النوايا الحقيقية للمشترع الاسرائيلي. فالمواطنون الاسرائيليون الذين غادروا البلد لبعض الوقت، ولكنهم معرّفون كمواطنين «يستطيعون الهجرة وفق قانون العودة»، هم مواطنون مؤهلون للحصول على منافع جمركية سخية لدى عودتهم، وعلى معونات مالية لتعليم اولادهم في المدارس الثانوية، وعلى هبة او قرض بشروط سهلة، لشراء شقة سكنية، بالاضافة الى تقديمات اخرى ايضاً. اما المواطنون الذين لا يمكن تعريفهم بهذا الشكل، اي مواطنو اسرائيل من غير اليهود، فلا يحصلون على شيء من هذه التقديمات. والقصد الواضح من مثل هذه الاجراءات التمييزية، هو تقليص عدد المواطنين الاغيار في اسرائيل، لجعل اسرائيل دولة اكثر «يهودية».

عقيدة الارض المستردة

تنشر اسرائيل في وسط مواطنيها اليهود عقيدة حصرية لاسترداد الارض. ويمكننا من خلال هذه العقيدة، التي تُلقن لتلامذة المدارس في اسرائيل، ان ندرك جيداً هدفها الرسمي الرامي الى تقليص عدد المواطنين غير اليهود الى حدّه الادنى. فهؤلاء التلامذة يُلقنون بان هذه العقيدة هي عقيدة قابلة للتطبيق، إما في انحاء دولة اسرائيل او، من بعد العام ١٩٦٧، في انحاء ما يُشار اليه كـ «أرض» اسرائيل. وبحسب هذه الايديولوجية، فان الارض التي «استُردت» هي الارض التي انتقلت من ملكية غير يهودية الى ملكية يهودية. وهذه الملكية يمكنها ان تكون إما ملكية خاصة او ملكاً للصندوق القومي اليهودي او للدولة اليهودية. اما الارض التي تعود الى غير اليهود، فانها، على العكس من ذلك، تُعتبر أرضاً «غير مستردة». وهكذا، اذا كان يهودي قد ارتكب ابشع الجرائم، التي يمكن تصورها، واقدم على شراء قطعة ارض من شخص فاضل غير يهودي، تصبح الارض «غير المستردة»، بموجب هذا التبادل، ارضاً «مستردة». ولكن اذا اقدم شخص فاضل غير يهودي، على شراء

قطعة ارض من اسوأ اليهود، فان الارض التي كانت سابقاً، ارضاً طاهرة و«مستردة» تصبح ارضاً «غير مستردة» مرة أخرى. والنتيجة المنطقية لمثل هذه الايديولوجية هي الطرد، او ما يُسمى «النقل» (TRANSFER)، الذي يطال المواطنين الاغيار كافة، من مساحة الارض التي «استُردت». وبالتالي، فان يوتوبيا «الايديولوجية اليهودية» التي تبنتها دولة اسرائيل هي الارض «المستردة» باكملها، والتي لا يملكها الاغيار او يعملون فيها. ولقد عبّر زعماء حركة العمل الصهيونية عن هذه الفكرة المنفّرة تماماً، تعبيراً كان غاية في الوضوح.

ويخبرنا ولتر لاكير، وهو الصهيوني المخلص، في كتابه history of zionism[١]، كيف كان احد هؤلاء الآباء الروحيين، وهو أ. د. غوردون، الذي توفي عام ١٩١٩، «معارضاً للعنف مبدئياً، ويبرر الدفاع عن النفس فقط في ظروف بالغة الشدة. ولكنه واصدقاءه، ارادوا لكل شجرة ولكل اجمة في الوطن اليهودي، ان تُزرع على يد الرواد اليهود فحسب، وليس على يد احد غيرهم». وهذا يعني بانهم أرادوا للآخرين كافة ان يرحلوا ويتركوا الارض «ليستردها» اليهود. أما خلفاء غوردون فقد أضافوا من العنف اكثر مما كان يقصده هو نفسه، ولكن بقي مبدأ «الاسترداد» والنتائج المترتبة عليه.

وعلى نحو مماثل، فان الكيبوتس، الذي كان الترحيب به واسع النطاق كمحاولة لخلق المجتمع المثالي، كان وما زال يوتوبيا اقتصادية، لانه حتى ولو كان مؤلفاً من الملحدين فإنه لا يقبل في وسطه، مبدئياً، باعضاء من العرب، ويطالب الاعضاء المحتملين من قوميات اخرى، بالتحول أولاً عن ديانتهم واعتناقهم الديانة اليهودية. ولا عجب ان نعتبر شبيبة الكيبوتس اكثر شرائح المجتمع اليهودي الاسرائيلي ميلاً للقتال.

وان هذه الايديولوجية الحصرية، هي التي حدّدت عمليات الاستيلاء على الارض في اسرائيل، في الخمسينات، ثم في اواسط الستينات، وفي المناطق المحتلة بعد العام ١٩٦٧، وليست «الحاجات الامنية»، التي تزعمها الدعاية الاسرائيلية. وهذه الايديولوجية هي التي املت ايضاً، الخطط الاسرائيلية الرسمية من اجل

«تهويد الجليل». وهذا المصطلح الغريب يعني تشجيع اليهود على الاستيطان في الجليل بمنحهم تقديمات مالية. (وانني لاتساءل ماذا ستكون ردة فعل يهود الولايات المتحدة فيما لو اقتُرحت خطة في بلادهم، لجعل نيويورك مسيحية، او حتى بروكلين وحدها). ولكن استرداد الارض يعني ضمناً، اكثر من «التهويد» الاقليمي. فالصندوق القومي اليهودي، المدعوم بقوة من الوكالات الرسمية الاسرائيلية، (خصوصاً من الشرطة السرية)، ينفق، في كامل مساحة اسرائيل، مبالغ ضخمة من الاموال العامة من اجل «استرداد» اي ارض يرغب الاغيار في بيعها، ومنع اي محاولة يقوم بها يهودي، لبيع ارضه لغير يهودي، وذلك عن طريق دفع سعر اعلى له.

التوسع الاسرائيلي

ان الخطر الرئيسي الذي تشكله اسرائيل «كدولة يهُودية»، على شعبها واليهود الآخرين وجيرانها، هو سعيها، بالدافع الايديولوجي، الى التوسع الاقليمي، وسلسلة الحروب المحتومة، الناتجة عن هذا الهدف. فكلما اصبحت اسرائيل اكثر يهودية، او كما يُقال بالعبرية، كلما «عادت الى اليهودية» (وهي عملية جارية في اسرائيل، على الاقل، منذ العام ١٩٦٧)، كلما كانت سياستها تسترشد بالاعتبارات الايديولوجية اليهودية، اكثر مما تسترشد بالاعتبارات العقلانية. واستخدامي لمصطلح «عقلاني» هنا، ليس تقويماً خلقياً للسياسات الاسرائيلية، او لحاجات اسرائيل المفترضة الى الدفاع والامن - ولا حتى لحاجات اسرائيل المفترضة الى «البقاء». انني بهذا الاستخدام، اشير هنا الى السياسات الامبريالية الاسرائيلية القائمة على مصالحها المفترضة.

فمهما كانت هذه السياسات سيئة خلقياً وعلى جهل سياسي مطبق، فانني اعتبر تبني السياسات القائمة على «الايديولوجية اليهودية» بصيغها المختلفة كافة، لا اسوأ منها فحسب، بل أسوأ بكثير. فالدفاعات الايديولوجية للسياسات الاسرائيلية تقوم عادة، على المعتقدات الدينية اليهودية، او، كما في حالة اليهود العلمانيين، على

«الحقوق التاريخية» لليهود، المستمدة من هذه المعتقدات نفسها، والتي تحتفظ بالطابع العقائدي للايمان الديني.

ولقد بدأ تحولي السياسي المبكّر من معجب ببن - غوريون الى شخص كرّس نفسه لمعارضته، بدأ بمسألة من هذا النوع. ففي العام ١٩٥٦، ابتلعت كل الاسباب السياسية والعسكرية التي ساقها بن - غوريون ليعلل مبادأة اسرائيل في حرب السويس، والى حين اقدامه (وهو الملحد، المفاخر بتجاهله لوصايا الديانة اليهودية) على الاعلان في الكنيست، في اليوم الثالث على بداية تلك الحرب، ان سببها الحقيقي هو «اعادة مملكة داوود وسليمان الى حدودها التوراتية». فعند هذه النقطة من خطابه، وقف تقريباً وبعفوية، اعضاء الكنيست كافة، وانشدوا النشيد الوطني الاسرائيلي. وبحسب علمي، لم يحصل قط ان اعلن اي سياسي صهيوني رفضه لفكرة بن - غوريون القائلة بان السياسات الاسرائيلية يجب ان تقوم (وضمن حدود الاعتبارات البراغماتية) على اعادة الحدود التوراتية كحدود للدولة اليهودية. وبالفعل، فان التحليل الدقيق للاستراتيجيات الاسرائيلية الكبرى، والمبادئ الفعلية للسياسة الخارجية، كما يُعبر عنها بالعبرية، يوضح بان الايديولوجية اليهودية هي التي تحدد، اكثر من اي عامل آخر، السياسات الاسرائيلية الفعلية. وان تجاهل اليهودية، كما هي على حقيقتها، و«الايديولوجية اليهودية» يجعل هذه السياسات سياسات لا يفهمها المراقبون الاجانب الذين لا يعرفون عادة، اي شيء عن اليهودية الا التبريرات الفجّة.

دعوني اعطي توضيحاً حديثاً اكثر، عن الفارق الجوهري القائم بين التخطيط الامبريالي الاسرائيلي من النوع المضخم للغاية، ولكن العلماني، وبين مبادىء «الايديولوجية اليهودية». فالايديولوجية اليهودية توصي بان الارض التي كانت في قديم الزمان، إما محكومة من حاكم يهودي كائناً من كان، او موعودة لليهود من الله إما في التوراة، او بحسب تفسير حاخامي للتوراة والتلمود - وهو الاهم سياسياً في الواقع - فإن هذه الارض يجب ان تعود لاسرائيل بما انها دولة يهودية. ومما لا شك فيه ان الكثيرين من الحمائم اليهود يرون بان فتحاً من هذا النوع يجب ان يؤجل

الى وقت تكون فيه اسرائيل قد اصبحت اقوى مما هي عليه الآن، او انهم يتطلعون برجاء، الى حدوث «فتح سلمي»، اي ان يجري اقناع الحكام العرب او الشعوب العربية، بالتنازل عن الارض، موضوع البحث، لقاء منافع تنعم بها عليهم الدولة اليهودية حينذاك.

ويجري التداول اليوم، بعدد من الصيغ المتباينة لحدود ارض اسرائيل التوراتية، التي تفسرها مراجع حاخامية كحدود تعود في الوضع المثالي، للدولة اليهودية. والصيغة الابعد اثراً تشمل ضمن هذه الحدود: كامل سيناء وجزءاً من شمالي مصر وحتى ضواحي القاهرة، في الجنوب؛ كامل الاردن وجزءاً كبيراً من العربية السعودية، كامل الكويت وجزءاً من العراق جنوبي الفرات، في الشرق، كامل لبنان و سوريا مع جزء كبير جداً من تركيا (حتى بحيرة فان)، في الشمال؛ وقبرص في الغرب.

وتُنشر في اسرائيل، وغالباً بمعونات مالية من الدولة، او بأشكال اخرى من الدعم، كمية كبيرة من الابحاث والمناقشات الثقافية القائمة على اساس هذه الحدود، والمشمولة في الاطالس والكتب والمقالات، وفي اشكال شعبية اكثر، من اشكال الدعاية. ومن المؤكد ان الراحل (متير) كاهانا واتباعه، بالاضافة الى هيئات نافذة اخرى مثل حركة غوش ايمونيم، لا يرغبون، بفتح اسرائيل لهذه الاراضي فحسب، بل يعتبرون مثل هذا الفتح عملاً موصى به من الله، وسوف يكون نجاحه مؤكداً بما ان الله سيساعد فيه. وفي الواقع، هناك شخصيات دينية يهودية مهمة، تعتبر رفض اسرائيل الشروع في حرب مقدسة من هذا النوع، او ما هو اسوأ من ذلك، اعادتها صحراء سيناء لمصر، خطيئة قومية، عاقبها الله عليها، عن حق. وكان احد حاخامات غوش ايمونيم، والمدعو دوف ليور، حاخام مستوطنة كريات اربع اليهودية في الخليل، والأكثر نفوذاً من غيره، قد اعلن تكراراً، بان اخفاق اسرائيل في غزو لبنان في السنوات ١٩٨٢ ـ ١٩٨٥، كان عقاباً إلهياً استحقته عن جدارة لخطيئتها في «اعطاء جزء من ارض اسرائيل» (اي سيناء) لمصر.

وعلى الرغم من انني اخترت، والحق يقال، مثلاً متطرفاً على الحدود التوراتية

لارض اسرائيل، التي تعود لـ «الدولة اليهودية»، فان هذه الحدود تتمتع بشعبية كبيرة في الدوائر القومية ـ الدينية. وهناك صيغ اقل تطرفاً، للحدود التوراتية، التي تُسمى احياناً، «الحدود التاريخية» ايضاً. ولكن ينبغي التشديد على ان مفهوم الحدود التوراتية او الحدود التاريخية كالحدود المعينة للارض التي تعود لليهود بالحق، امر لا تنكره في داخل اسرائيل، ولا في وسط جالية مؤيديها اليهود في الشتات، لاسباب مبدئية، إلا أقلية صغيرة تعارض مفهوم الدولة اليهودية. وفيما عدا ذلك، فان الاعتراضات على تحقيق مثل هذه الحدود، عن طريق الحرب، اعتراضات براغماتية صرفة. ويستطيع المرء ان يدعي بان اسرائيل اليوم، اضعف من ان تستطيع فتح كامل الاراضي التي «تعود» لليهود، او ان يدعي بأن خسارة الارواح اليهودية (وليس الارواح العربية!)، التي تستلزمها حرب غازية بهذه الضخامة، اهم من فتح الاراضي، ولكن لا يستطيع المرء، بحسب معايير اليهودية، ان يدعي بأن «ارض اسرائيل» ضمن اي حدود كانت، لا «تعود» لليهود كافة. وكان اريئيل شارون في ايار/مايو عام ١٩٩٣، قد اقترح رسمياً، في مؤتمر حركة الليكود، ضرورة ان تتبنى اسرائيل مفهوم الحدود التوراتية كسياستها الرسمية. وكانت هناك اعتراضات قليلة بعض الشيء، على هذا الاقتراح، إن في الليكود ام خارجه، وكانت كلها اعتراضات تقوم على اسباب براغماتية. كما ان احداً لم يسأل شارون اين هي بالضبط، الحدود التوراتية التي يلح على وجوب ان تحققها اسرائيل. ودعونا نتذكر بانه لم يكن هناك اي شك في وسط الذين سموا انفسهم لينينيين، بان التاريخ يتبع المبادىء التي وضعها ماركس ولينين.

وليس فقط المعتقد بذاته مهما كان دوغمائياً، هو الذي يخلق الذهنية الاستبدادية، ولكن ايضاً رفض التشكيك به في اي وقت من الاوقات، من خلال الحؤول دون مناقشته في العلن. لذلك يمكن القول بانه يوجد عرق استبدادي قوي في المجتمع اليهودي ـ الاسرائيلي، وفي شخصية يهود الشتات، الذين يعيشون «حياة يهودية»، والمنظمين في تنظيمات يهودية صرفة.

ومع ذلك، تطورت منذ قيام الدولة ايضاً، استراتيجية اسرائيلية كبرى لا تقوم

على مبادىء «الايديولوجية اليهودية»، بل على اعتبارات استراتيجية او امبريالية صرفة ـ ولقد قدم الجنرال (احتياط) شلومو غازيت[٢]، الذي كان قائداً سابقاً للاستخبارات العسكرية، وصفاً رسمياً وشفافاً للمبادىء التي تحكم مثل هذه الاستراتيجية.

فبحسب رأي غازيت:

«لم تتغير مهمة اسرائيل الرئيسية قط [منذ ان هوى الاتحاد السوفييتي] وهي باقية على اهميتها الحاسمة. فموقع اسرائيل الجغرافي في وسط الشرق الاوسط العربي ـ المسلم يجعل قَدَر اسرائيل ان تكون الحارس الوفي للاستقرار في كامل البلدان المحيطة بها. ان [دورها] هو حماية الانظمة القائمة: لمنع عمليات التحول الراديكالية او وقفها، وعرقلة اتساع الحماسة الدينية الاصولية. ولهذه الغاية ستمنع اسرائيل حصول تغييرات ما وراء حدود اسرائيل، [التي] ستعتبرها تغييرات لا تُطاق، والى حد احساسها بأنها مجبرة على استخدام كل قوتها العسكرية من اجل منعها او اجتثاثها».

بكلام آخر، تهدف اسرائيل الى فرض الهيمنة على الدول الشرق اوسطية الاخرى. ولا حاجة للقول، بحسب غازيت، بان لاسرائيل اهتماماً خيّراً باستقرار انظمة الحكم العربية. فاسرائيل، برأي غازيت، بحمايتها للانظمة الحاكمة في الشرق الاوسط، تؤدي خدمة حيوية «للدول المتقدمة صناعياً، والمهتمة جميعها، اهتماماً شديداً، بضمان الاستقرار في الشرق الاوسط». وهو يقول مجادلاً، بان انظمة الحكم القائمة في المنطقة كان من شأنها ان تنهار منذ وقت طويل لولا وجود اسرائيل، وان هذه الأنظمة باقية في الوجود فقط بسبب التهديدات الاسرائيلية. وقد تكون وجهة النظر هذه وجهة نظر منافقة، ولكن على المرء في الوقت نفسه، ان يتذكر في مضامين من هذا النوع، حكمة لاروش ـ فوكو القائلة بان «النفاق هو الضريبة التي يدفعها الخبث للفضيلة». وإن استرداد الارض ما هو إلا محاولة للتملص من دفع اي ضريبة من هذا النوع.

ولا حاجة للقول بانني اعارض ايضاً، اصلاً وفرعاً، السياسات الاسرائيلية غير

ـ الايديولوجية كما شرحها غازيت بهذه الدرجة من الصحة والشفافية. وانني اقرّ في الوقت نفسه، بان اخطار سياسات بن ـ غوريون او شارون، بحوافزها «الايديولوجية اليهودية»، هي اسوأ بكثير من السياسات الامبريالية مهما كانت اجرامية. كما ان نتائج السياسات التي تنتهجها انظمة حكم اخرى مدفوعة بحوافز ايديولوجية تشير الى الاتجاه نفسه. ولان عنصراً مهماً من العناصر المؤلفة للسياسة الاسرائيلية يقوم على اساس «الايديولوجية اليهودية»، فان تحليلها يصبح امراً لا بد منه سياسياً. كما ان هذه الايديولوجية تقوم بدورها، على مواقف اليهودية التاريخية تجاه الاغيار، وهذه المواقف هي احد المواضيع الرئيسية لهذا الكتاب، فهي تؤثر بالضرورة، على العديد من اليهود، عن وعي او بدون وعي. ومهمتنا هنا ان نبحث في اليهودية التاريخية بالمصطلحات الواقعية.

ان تأثير الايديولوجية اليهودية على العديد من اليهود سيكون اقوى ما دامت محجوبة اكثر عن المناقشة العامة. والمأمول هو ان يقود نقاش من هذا النوع الناس الى اتخاذ موقف من الشوفينية اليهودية ومن الازدراء الذي يبديه عدد كبير من اليهود تجاه الاغيار (الذي سنوثقه ادناه)، يكون مماثلاً للموقف المتخذ عادة، من معاداة السامية والاشكال الاخرى كافة لكراهية الغير والشوفينية والعنصرية. كما يُفترض، عن حق، بأن الفضح الكامل وحده، ليس لمعاداة السامية فحسب، بل لجذورها التاريخية ايضاً، يمكنه ان يكون الاساس للقتال ضدها، كذلك الامر، افترض بأن الفضح الكامل وحده للشوفينية اليهودية والتعصب الديني، يمكنه ان يكون الاساس للنضال ضد هذه الظواهر. ويصحّ ذلك بصفة خاصة، اليوم، عندما نجد أن التأثير السياسي للشوفينية اليهودية والتعصب الديني، وعلى عكس الوضع الذي كان سائداً منذ خمسين عاماً او ستين، هو تأثير اكبر بكثير من تأثير معاداة السامية. ولكن هناك اعتبار آخر مهم ايضاً، فانا اؤمن بقوة، بأنه لا يمكن محاربة الشوفينية اليهودية ومعاداة السامية الا في وقت واحد.

اليوتوبيا المغلقة؟

ان الخطر الفعلي للسياسات الاسرائيلية القائمة على الايديولوجية اليهودية

سيبقى اكبر من خطر السياسات القائمة على الاعتبارات الاستراتيجية الصرفة، حتى يجري تبني مثل هذه المواقف تبنياً واسع النطاق. والفارق بين هذين النوعين من السياسات، فارق عبّر عنه تعبيراً جيداً هيو تريفور ـ روبر في بحث له بعنوان «السير توماس مور واليوتوبيا»[٣]، وقد اطلق عليهما صفتي الافلاطونية والميكانيكية.

لقد اعتذر ميكيافيللي، على الاقل، عن الطرق التي اعتقد بانها ضرورية في السياسة. ولقد اسف على ضرورة العنف والاحتيال، ولم يطلق عليهما اي اسم آخر. ولكن افلاطون ومور برراهما، شرط استخدامهما للمحافظة على جمهوريتيهما الفاضلتين.

وعلى نحو مماثل، فان المؤمنين الحقيقيين بهذه اليوتوبيا المسماة «الدولة اليهودية»، والتي ستجتهد لاحراز الحدود التوراتية، هم اكثر خطراً من الاستراتيجيين الكبار، من امثال غازيت، لان سياساتهم تُبرَّر، إما عن طريق استخدام الدين او ما هو اسوأ، او عن طريق استخدام المبادىء الدينية المُعلمنة التي تحتفظ بشرعية مطلقة. فبينما يرى غازيت، على الاقل، حاجة للمجادلة بان التحكّم الاسرائيلي يُفيد انظمة الحكم العربية، لم يدّع بن ـ غوريون بان اعادة انشاء مملكة داوود وسليمان ستفيد احداً غير الدولة اليهودية.

وينبغي الا يبدو الامر غريباً اذا استخدمنا المفاهيم الافلاطونية لتحليل السياسات الاسرائيلية القائمة على الايديولوجية اليهودية. فقد تنبّه بضعة علماء، وكان اهمهم موشيه هداس، الذي ادعى بان اسس «اليهودية الكلاسيكية»، اي اليهودية كما ارساها حكماء التلمود، اسس قائمة على التأثيرات الافلاطونية، وخصوصاً على صورة اسبارطة كما تظهر عند افلاطون[٤]. وبحسب هداس، فان احدى السمات الحاسمة للنظام السياسي الافلاطوني، والتي تبنتها اليهودية في وقت مبكر جداً يعود الى عهد المكابيين (١٤٢ ـ ٦٣ ق. م)، كانت «ضرورة ان تكون كل مرحلة من مراحل السلوك الانساني خاضعة للتصديقات الدينية التي، في الواقع، ينبغي للحاكم ان يديرها ادارة ماهرة». ولا يمكن ان يكون هناك تعريف لـ

«اليهودية الكلاسيكية» وللطرق الماهرة التي ادارها بها الحاخامات، افضل من هذا التعريف الافلاطوني. وعلى وجه الخصوص، فقد ادعى هداس بان اليهودية تبنت ما «لخصه افلاطون بنفسه كـ «أهداف لبرنامجه»، في الفقرة التالية المعروفة:

الامر الاساسي هو ان اي شخص، رجلاً كان ام امرأة، يجب الا يكون ابداً، من دون ضابط معيّن فوقه، وان اي شخص كان يجب الا يكتسب العادة الذهنية باتخاذ اي خطوة، بالجِّد او بالهزل، على مسؤوليته الفردية. فعليه ان يعيش دائماً، في السلم كما في الحرب، بعينيه نصب ضابطه الاعلى... أي باختصار، ينبغي لنا ان ندرّب الذهن حتى على الا يُفكر بالعمل كفرد او ألا يعرف كيف يعمل كفرد. (Laws,942 ab)

واذا استبدلنا كلمة حاخام بكلمة ضابط سيكون لدينا صورة كاملة لليهودية الكلاسيكية. وهذه اليهودية الكلاسيكية ما زالت تؤثر تأثيراً عميقاً في المجتمع اليهودي ـ الاسرائيلي، وتعيّن الى حد بعيد، السياسات الاسرائيلية.

وهذه الفقرة المقتبسة اعلاه، هي الفقرة التي اختارها كارل بوبر في مؤلفه The Open Society and Its Enemies, باعتبارها تصف ماهية «المجتمع المغلق». فاليهودية التاريخية وخليفتاها، الارثوذوكسية والصهيونية، هم الاعداء الالداء لمفهوم المجتمع المفتوح كما هو مطبّق في اسرائيل. فالدولة اليهودية، سواء أكانت قائمة على ايديولوجيتها اليهودية الحالية، ام اصبحت حتى اكثر يهودية في طابعها مما هي عليه الآن، مستندة الى مبادىء الارثوذوكسية اليهودية، لا يمكنها ابداً، ان تضم مجتمعاً مفتوحاً. وهناك خياران اثنان امام المجتمع اليهودي ـ الاسرائيلي، فهو يستطيع ان يصبح غيتو مولعاً بالقتال ومغلقاً تماماً، اي اسبارطة يهودية، مدعوماً بكدح عبيد الأرض العرب، يحافظ على وجوده من خلال نفوذه على المؤسسة السياسية الاميركية، وتهديداته باستخدام قوته النووية، او يمكنه المحاولة ليصبح مجتمعاً مفتوحاً. ويعتمد الخيار الثاني على الفحص الامين لماضيه اليهودي، وعلى الاعتراف بوجود الشوفينية اليهودية والاقتصادية اليهودية، وعلى الفحص الامين لمواقف اليهودية من غير اليهود.

الحواشي

١ ـ Walter Laquer, “History of Zionism”, Schoken publishers, Tel Aviv, 1974, بالعبرية.

٢ ـ انظر يديعوت احرونوت، ٢٧ نيسان، ١٩٩٢.

٣ ـ في Hugh Trevor - Roper “Renaissance Essays”, Fontana Press, London, 1985.

٤ ـ انظر Moses Hadas, “Hellenisic culture, Fusion and Diffusion”, Columbia University Press, New York, 1959,

وخصوصاً الفصل السابع والفصل العشرين.

الفصل الثاني

التحامل والمراوغة

ان الصعوبة الاولى في الكتابة حول هذا الموضوع هي ان مصطلح «اليهودي» كان يستخدم خلال السنوات الخمسين الاخيرة بمعنيين مختلفين الى حد ما. وحتى نفهم الامر، دعونا نتصور انفسنا في العام ١٧٨٠. فالمعنى المقبول عالمياً آنذاك، لمصطلح «اليهودي»، كان متطابقاً اساساً، مع ما فهمه اليهود بأنه المعنى الذي يشكل هويتهم الخاصة. وهذه الهوية كانت دينية بالدرجة الاولى، ولكن قواعد السلوك الدينية حكمت تفاصيل السلوك اليومي في نواحي الحياة كافة، الاجتماعية والخاصة، فيما بين اليهود انفسهم، وفي علاقاتهم مع غير اليهود ايضاً. وكان صحيحاً حرفياً آنذاك، بأن اليهودي لم يكن باستطاعته حتى أن يشرب كوباً من الماء في بيت شخص غير يهودي. وكانت القوانين الاساسية نفسها، الخاصة بالسلوك تجاه الاغيار، سارية المفعول، على حد سواء، من اليمن والى نيويورك.

ومهما يكن المصطلح الذي يمكن ان يصف يهود عام ١٧٨٠ ـ ولا اريد ان ادخل في جدل الغيبيات حول مصطلحات مثل «الامة» و«الشعب»[1] ـ من الواضح بان الطوائف اليهودية كافة، كانت آنذاك، منفصلة عن المجتمعات غيراليهودية التي كانت هذه الطوائف تعيش في وسطها.

ولكن كل هذا تغير بواسطة عمليتين متوازيتين ـ بدأتا في هولندا وانكلترا،

واستمرتا في فرنسا الثورية وفي البلدان التي حذت حذو الثورة الفرنسية، ثم في الملكيات الحديثة في القرن التاسع عشر: فقد احرز اليهود مستوى مهماً من الحقوق الفردية (ومساواة قانونية كاملة في بعض الحالات)، وتدمّرت السلطة القانونية التي كانت للطائفة اليهودية على افرادها. وينبغي لنا ان نلحظ بان التطورين كانا يتحركان في وقت واحد، وان اهمية التطور الثاني كانت حتى اكبر من اهمية التطور الاول، ولو ان سعة المعرفة بالتطور الثاني كانت اقل من سعة المعرفة بالتطور الاول.

لقد كان للطوائف اليهودية منذ ايام الامبراطورية الرومانية البائدة، سلطة قانونية كبيرة على اعضائها. ولم تكن هذه السلطات فقط السلطات التي تنشأ من خلال التعبئة الطوعية للضغط الاجتماعي (كمثل رفض التعاطي بأي شكل كان، مع يهودي أنزل به الحرمان الكنسي، او حتى دفن جثته)، بل سلطة الاكراه العارية ايضاً: سلطة الجلد والسجن والطرد ـ وكانت كلها عقوبات تستطيع المحاكم الحاخامية، التي تنظر في انواع الجرائم كافة، انزالها بالفرد اليهودي، وبصورة شرعية تماماً. وكان بالامكان في العديد من البلدان ـ واسبانيا وبولندا مثالان بارزان ـ انزال حتى عقوبة الاعدام، وقد أنزلت بالفعل، واحياناً من خلال استخدام طرق وحشية بصفة خاصة، مثل الجلد حتى الموت.

ولم يكن كل هذا مسموحاً به فحسب، بل كانت تشجع عليه صراحة، وعلى حد سواء، السلطات الرسمية في البلدان المسيحية والاسلامية، التي كان لها في بعض الحالات، مصلحة مالية مباشرة اكثر، بالاضافة الى اهتمامها عموماً، بالمحافظة على القانون والنظام. وتوجد في المحفوظات الاسبانية، التي تعود الى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، سجلات لاوامر تفصيلية عديدة صادرة عن ملوك كاستيل واراغون الكاثوليك الاكثر تقوى، يأمرون فيها موظفيهم الذين لا يقلّون عنهم تقوى، بالتعاون مع الحاخامات لاجبار اليهود على المحافظة على فرائض يوم السبت. لماذا؟ لأنه في اي وقت كانت المحكمة الحاخامية تفرض فيه غرامة على يهودي بسبب انتهاكه ليوم السبت، كان الحاخامات يسلمون الملك تسعة اعشار الغرامة ـ وكان ذلك الترتيب، ترتيباً فاعلاً ومربحاً جداً. وعلى نحو مماثل، يستطيع المرء ان

يستشهد من مؤلَّف responsa المكتوب قبل العام ١٨٣٢، والذي وضعه الحاخام الشهير موشيه سوفير، حاخام برسبورغ، (براتيسلافا اليوم)، في ما كان آنذاك، المملكة المجرية ذات الاستقلال الذاتي، في الامبراطورية النمساوية، والذي خاطب به فيينا، في النمسا، بذاتها، حيث كان اليهود قد منحوا بعض الحقوق الفردية الجديرة بالاعتبار(٢). فهو يتفجع على حقيقة ان اليهود في فيينا اصبحوا متراخين في مسائل المحافظة على الفرائض الدينية، بالنظر الى خسارة جماعة المؤمنين اليهود هناك، لسلطاتها التي تخولها معاقبة المجرمين، ويضيف قائلاً: «عندما يخبرونني هنا في برسبورغ، بان يهودياً تجرأ وفتح حانوته خلال العطلات الصغرى، فانني أرسل على الفور، شرطياً لسجنه».

كانت هذه اهم الحقائق الاجتماعية في الوجود اليهودي قبل قدوم الدولة الحديثة: فالمحافظة على قوانين الديانة اليهودية، وكذلك غرسها في الاذهان، بواسطة التعليم، كانت تُفرض فرضاً على اليهود بالاكراه الجسدي، الذي لم يكن احد ليستطيع الافلات منه الا بالتحول واعتناق ديانة الاكثرية، وهو امر يبلغ مبلغ الانسلاخ الاجتماعي الكامل في تلك الظروف، ولهذا السبب كان الاقدام عليه متعذراً جداً الا خلال الازمات الدينية(٣).

ولكن ما ان قامت الدولة الحديثة، حتى فقدت الطوائف اليهودية سلطات معاقبة الفرد اليهودي او تهديده. وهكذا، انقصفت روابط احد اكثر المجتمعات المغلقة انغلاقاً، واحد اكثر المجتمعات استبدادية في التاريخ البشري ككل. وقد جاءت عملية التحرر هذه بمعظمها من الخارج. وعلى الرغم من ان بعض اليهود ساعدوا فيها، الا انهم كانوا قلة في البداية. وكان لهذا الشكل من التحرر عواقب خطيرة جداً للمستقبل. فمثلما كان الامر في حالة المانيا (بحسب تحليل أ. ج. تايلور البارع)، حيث كان من السهل مُحالفة قضية الرجعية السياسية مع حب الوطن، لان جيوش الثورة الفرنسية وجيوش نابليون، هي، في الواقع، التي ادخلت حقوق الفرد والمساواة امام القانون الى المانيا، فكان المرء يستطيع ان يوصم الحرية كقيمة غير ـ المانية. كذلك الامر، فقد اصبح من السهل جداً في وسط اليهود، وخصوصاً في

اسرائيل، شن هجوم فاعل جداً ضد الافكار والمُثل الانسانية وحكم القانون (حتى لا نقول الديمقراطية)، كشيء «غير - يهودي»، او «معادٍ لليهود» - وهي كذلك عن حق، بمعنى من المعاني التاريخية - وكمبادىء يمكن أن تستخدم لما فيه «المصلحة اليهودية»، ولكنها تفقد شرعيتها اذا ما استُخدمت ضد «المصلحة اليهودية»، كمثل ان يستجير العرب بهذه المبادىء نفسها. وقد ادى ذلك ايضاً - ومرة اخرى، كما حصل في المانيا وغيرها من امم اوروبا الوسطى - الى كتابة تأريخ يهودي مضلل وعاطفي، مُفرط في الرومنطيقية، طُمست فيه الحقائق غير الملائمة كافة.

لذلك لن يجد المرء في كتابات حنه ارندت الغزيرة، ان كان حول الاستبدادية او حول اليهود، او كليهما[٤]، ايّ تلميح، مهما كان صغيراً، الى ما كانت عليه حقيقة المجتمع اليهودي في المانيا في القرن الثامن عشر: احراق الكتب واضطهاد الكتاب والنزاعات حول القوة السحرية للتعاويذ، وحظر التعليم غير اليهودي في اقصى ابتدائيته، مثل تدريس اللغة الالمانية الصحيحة، وبالطبع، الالمانية المكتوبة بالاحرف اللاتينية[٥].

كما ان المرء لن يجد في التواريخ اليهودية العديدة، المكتوبة باللغة الانكليزية، الحقائق حول موقف الصوفية اليهودية (الرائجة جداً في الوقت الحاضر، في نواحٍ معينة) من غير اليهود: فهي تعتبرهم، حرفياً، قوائم للشيطان، وتعتبر ان الافراد القلائل من بينهم، غير الشيطانيين (اي هؤلاء الذين اعتنقوا اليهودية) هم في الحقيقة، ارواح يهودية ضلّت سبيلها عندما انتهك الشيطان المقام السماوي للسيدة المقدسة (شخينة او مترونيت، احد العناصر الانثوية للاله الرأس، شقيقة وزوجة الاله الذكر الاصغر، بحسب الكابالاة). ولقد اعارت المراجع العظيمة الشأن، مثل غرشوم شولم، حُججها لنظام من الاضاليل في المجالات الحساسة كافة؛ واكثر هذه المراجع شعبية هي اشدّها خداعاً وتضليلاً.

اما النتيجة الاجتماعية لعملية التحرر هذه فكانت ان اليهودي، وللمرة الاولى منذ عام ٢٠٠م[٦]، استطاع ان يكون حرّاً ليفعل ما يشاء، ضمن حدود القانون المدني لبلاده، ومن دون ان يضطر الى دفع الثمن لقاء هذه الحرية، بتحوله واعتناقه ديانة

اخرى. لقد مُنح اليهود حرية طلب العلم وقراءة الكتب باللغات الحديثة، وحرية قراءة الكتب وكتابتها بالعبرية من دون موافقة الحاخامات (كما كان الحال في السابق بالنسبة الى اي كتاب بالعبرية او الييديش)، وحرية تناول الطعام غير المُعد بحسب طقوس الشريعة اليهودية، وحرية تجاهل محرمات سخيفة عديدة تنظم الحياة الجنسية، وحتى حرية التفكير - لان الافكار المحرمة هي اكثر الخطايا خطورة - كل هذه الحريات منحتها ليهود اوروبا (ويهود بلدان اخرى فيما بعد) انظمة حكم اوروبية حديثة، او حتى مطلقة، على الرغم من ان انظمة الحكم المطلقة كانت في الوقت نفسه انظمة قمعية و معادية للسامية. فقد كان نيكولاس الاول، قيصر روسيا، معادياً شهيراً للسامية، وقد اصدر عدداً من القوانين ضد اليهود في دولته. ولكنه عزز ايضاً، القوى المحافظة على القانون والنظام في روسيا - وليس فقط الشرطة السرية بل قوات الشرطة النظامية والجندرمة ايضاً - فكانت النتيجة انه بات من الصعب قتل اليهود باوامر من حاخاماتهم، بينما كان من السهل جداً فعل ذلك في بولندا قبل العام ١٧٩٥. ولكن التاريخ اليهودي الرسمي يدين هذا القيصر للامرين معاً. ففي اواخر عقد ١٨٣٠، على سبيل المثال، امر الحاخام الاقدس (تساديك) في بلدة يهودية صغيرة في اوكرانيا، بقتل مارق عن الدين، بالقائه في المياه الغالية في حمامات المدينة، ولاحظت مصادر يهودية معاصرة بدهشة ورعب، بان الرشوة «لم تعد مؤثرة»، وبأن العقاب الشديد لم يطل الجناة الفعليين فحسب، بل الرجل الاقدس ايضاً. فنظام حكم مترنيخ في النمسا، قبل العام ١٨٤٨، كان نظاماً مشهوراً برجعيته، وكان موقفه من اليهود موقفاً غير ودّي، ولكنه لم يكن يسمح بتسميم الناس، ولا حتى بتسميم الحاخامات اليهود الليبراليين. وخلال العام ١٨٤٨، عندما وهنت قوة النظام مؤقتاً، كان اول ما فعله قادة الطائفة اليهودية في مدينة ليمبرغ الغاليسية (لفوف اليوم) بحريتهم المستردة الجديدة، تسميم حاخام المدينة الليبرالي، الذي كانت الجماعة اليهودية غير الارثوذكسية، الصغيرة في المدينة، قد جاءت به من المانيا. وبالمناسبة فقد كانت هرطقته الكبرى تأييده لمراسم بلوغ سن الالتزام بالفرائض الدينية، (Bar Mitzvah)، التي كانت قد استُحدثت قبل وقت قصير، وممارسته الفعلية لها.

اذن، اكتسب مصطلح «اليهودي» خلال المائة والخمسين عاماً الاخيرة، معنى مزدوجاً، ما ادى الى تشويش شديد لدى بعض الناس من ذوي النوايا الحسنة، في البلدان الناطقة باللغة الانكليزية، والذين يتصورون بأن اليهود الذين يلتقون بهم في المناسبات الاجتماعية هم «ممثلون» لليهود «عموماً». وفي بلدان اوروبا الشرقية كما في العالم العربي، تحرر اليهود من طغيان ديانتهم ومجتمعاتهم الخاصة، بواسطة قوى خارجية، في وقت متأخر جداً، وفي ظروف كانت غير مؤاتية لتحقيق تغيير اجتماعي داخلي. وفي معظم الحالات، وفي اسرائيل بصفة خاصة، حوفظ على المفهوم القديم للمجتمع، وعلى الايديولوجية نفسها ـ خصوصاً ما هو موجه منها نحو غير اليهود ـ وعلى المفهوم نفسه الزائف تماماً للتاريخ. وهذا ما ينطبق حتى على بعض من هؤلاء اليهود الذين انضموا الى الحركات التقدمية او اليسارية. ويمكن ان يزودنا فحص للاحزاب الراديكالية والاشتراكية والشيوعية بأمثلة عديدة على شوفينيين وعنصريين يهود متنكرين، انضموا الى هذه الاحزاب فقط لاسباب تتعلق بـ «المصلحة اليهودية»، وقد حبّذ الموجودون منهم في اسرائيل، التمييز «ضد الاغيار» [غير اليهود]. ولا يحتاج المرء سوى ان يراجع ويفحص كيف استطاع العديد من اليهود الاشتراكيين، الكتابة عن الكيبوتس من دون ان يكلفوا انفسهم عناء الاشارة الى كونه مؤسسة عنصرية، تستبعد استبعاداً كاملاً مواطني اسرائيل من غير اليهود، ليرى بأن الظاهرة التي نلمح اليها ليست غير عادية على الاطلاق(٧).

واذا تجنبنا التصنيفات القائمة على الجهل والنفاق، نجد ان كلمة «يهود» والكلمات المشتقة من مصدرها، تصف مجموعتين اجتماعيتين مختلفتين، وحتى متناقضتين، ونجد أن خط التواصل بينهما يسير بسرعة الى الاختفاء بسبب السياسة الاسرائيلية. فمن جهة، هناك المعنى الاستبدادي التقليدي الذي سبق أن بحثناه؛ ومن جهة ثانية، هناك اليهود بالاصل والنسب الذين استلهموا الافكار المعقدة التي اطلق عليها كارل پوپر اسم «المجتمع المفتوح». (وهناك بعض الذين لم يستلهموا هذه الافكار، وخصوصاً في الولايات المتحدة، ولكنهم يحاولون التظاهر بقبولها).

ومن المهم ان نلحظ بان الخصائص كافة التي يفترض ان تكون خصائص يهودية - واعني بها تلك الصفات التي ينسبها المثقفون المزعومون الافظاظ في الغرب، الى اليهود - هي خصائص حديثة لم تكن معروفة قط، خلال التاريخ اليهودي بمعظمه، وظهرت فقط عندما بدأت الطائفة اليهودية الاستبدادية تفقد سلطتها. فلنأخذ مثلاً روح التفكه اليهودية الشهيرة. فالتفكه ليس فقط نادراً جداً في الادب العبراني ما قبل القرن التاسع عشر (ونجده فقط خلال بعض الفترات، في بلدان كانت فيها الطبقة اليهودية العليا حرة نسبياً، من نير الحاخامات، مثل ايطاليا بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر، او اسبانيا المسلمة)، بل ان التفكّه والنكات امور يمنعها الدين اليهودي منعاً باتاً - باستثناء النكات الموجهة ضد الديانات الاخرى، وهذا امر له دلالته. فهجاء الحاخامات وقيادات الطائفة لم يكن يوماً موضوع استلهام لليهودية، حتى على نطاق ضيق، كما كان الامر في المسيحية اللاتينية.

ولم يكن هناك مسرح كوميدي يهودي، بالضبط، كما لم يكن هناك مسرح كوميدي في اسبارطة، ولسبب مماثل[٨].

ولنأخذ مثلاً، محبة العلم؛ فاذا استثنينا التعليم الديني الصرف، والذي كان بحد ذاته، في حالة من الانحطاط والانحلال، نجد ان يهود اوروبا (ويهود البلدان العربية ايضاً، في حدود اقل، نوعاً ما) قبل حوالى العام ١٧٨٠، كان يسيطر عليهم شعور بالازدراء والكراهية الفائقة، لكل انواع العلم (باستثناء دراسة التلمود والصوفية اليهودية). فأقسام كبيرة من التوراة والشعر العبراني غير الديني كافة ومعظم المؤلفات حول الفلسفة اليهودية، جميعها لم تكن تُقرأ، وكانت اسماؤها غالباً ما تستدرج اللعن. كذلك الامر، فقد كانت دراسة اي لغة من اللغات ممنوعة منعاً باتاً، مثلما كانت دراسة الرياضيات والعلوم. اما الجغرافيا[٩] والتاريخ - وحتى التاريخ اليهودي - فإنهما لم يكونا معروفين قط. وكان حسّ النقد، الذي يُفترض انه يمثل ميزة بارزة من ميزات اليهود، كان غائباً كلياً، ولم يكن هناك ما هو ممنوع ومثير للفزع، وبالتالي مضطهد، مثلما كان الابداع في اقصى تواضعه، والنقد في اقصى براءته.

لقد كان عالمهم عالماً غارقاً في الاعتقاد المرذول بالخرافات، وفي التعصب والجهل في اقصى صورة؛ عالماً استطاعت فيه المقدمة الخاصة باول عمل جغرافي باللغة العبرية (نشر في روسيا، عام ١٨٠٣)، ان تشكو من ان عدداً كبيراً جداً من الحاخامات كانوا ينكرون وجود القارة الاميركية، ويقولون بان وجودها «مستحيل». ولم يكن يوجد ما هو مشترك بين ذلك العالم وبين ما يعتبرونه في الغرب، في اغلب الاحيان، بانه «يميّن» اليهود، الا الخطأ في التسمية.

ومع ذلك، فان عدداً كبيراً من اليهود في عالمنا اليوم، يحنّون الى ذلك العالم، الى فردوسهم المفقود، المجتمع المغلق المريح، الذي لم يتحرروا منه بقدر ما طردوا منه. لقد كان قسم كبير من الحركة الصهيونية يرغب دائماً باعادة هذا المجتمع الى سابق عهده ـ وهذا القسم هو الذي امتلك النفوذ. كما ان العديد من الدوافع الكامنة وراء السياسة الاسرائيلية، التي تحيّر «اصدقاء» اسرائيل المساكين والمرتبكين في الغرب، يمكن ان تصبح قابلة للتفسير تفسيراً كاملاً، مجرّد ما ان يُنظر اليها كردّة، ردة فعل بالمعنى السياسي، وهو المعنى الذي حملته هذه الكلمة خلال المائتي سنة الاخيرة: عودة قسرية وتجديدية في نواحٍ عديدة، وبالتالي وهمية، الى المجتمع المغلق للماضي اليهودي.

عقبات دون الفهم

يمكننا تاريخياً، ان نبيّن بان المجتمع المغلق، لا شك أنه مجتمع غير مهتم في وصفٍ لذاته، لان اي وصف هو في جزء منه، شكل من اشكال التحليل النقدي، الذي قد يشجع بالتالي، أفكاراً نقدية «ممنوعة». فكلما اصبح المجتمع مفتوحاً كلما اهتم بالتفكير ملياً، بالوصف اولاً، ثم بالنقد، في عمله الحاضر وماضيه ايضاً. ولكن ماذا يحصل عندما ترغب فئة من المثقفين، في جرّ مجتمع اصبح منفتحاً الى حد كبير، الى حاله المغلقة والاستبدادية السابقة؟ إن الذي يحصل عندئذٍ هو ان الوسائل نفسها التي تحقق بها التقدم السابق، اي الفلسفة والعلوم والتاريخ وعلم الاجتماع بصفة خاصة، تصبح الادوات الاكثر فعالية «في ايدي المثقفين لارتكاب الخيانة». واذ يُساء

استخدامها من اجل ان تخدم كوسائل للتضليل، فإن قيمتها المعنوية تتدهور خلال العملية.

ولم يكن لليهودية الكلاسيكية[١٠] سوى اهتمام ضئيل بوصف ذاتها وتفسيرها، لافراد طائفتها، سواء أكانوا من المتعلمين (في دراسات التلمود) ام غير المتعلمين[١١]. وهناك دلالة على حقيقة ان كتابة التاريخ اليهودي، حتى بالاسلوب التسجيلي الجاف، قد توقفت توقفاً تاماً منذ ايام جوزفوس فلافيوس (نهاية القرن الاول) وحتى عصر النهضة، عندما انتعشت هذه الكتابة لوقت قصير في ايطاليا وغيرها من البلدان، حيث كان اليهود خاضعين لتأثير ايطالي قوي[١٢].

فالحاخامات، وانسجاماً مع صفاتهم، كانوا يخشون التاريخ اليهودي اكثر مما يخشون التاريخ العام، وقد كان اول كتاب حديث في التاريخ يصدر بالعبرية (في القرن السادس عشر) كتاباً بعنوان «تاريخ ملوك فرنسا، والملوك العثمانيين». وتلا هذا الكتاب عدد من كتب التاريخ التي تتناول الاضطهاد الذي كان يتعرض له اليهود فحسب.

اما الكتاب الاول عن التاريخ اليهودي بالذات[١٣]، (ويتناول الازمنة القديمة)، فقد منعته السلطات الحاخامية العليا فوراً، وطمسته، ولم يظهر مجدداً قبل القرن التاسع عشر. اكثر من ذلك، فقد اصدرت السلطات الحاخامية في اوروبا الشرقية، قراراً يقضي بمنع الدراسات غير التلمودية كافة، حتى وان كانت لا تحتوي على شيء محدد يستحق اللعنة لانها تعدٍ على الوقت الذي ينبغي ان يُصرف اما على دراسة التلمود او على جمع المال - الذي يجب ان يُستخدم بدوره، لتمويل علماء التلمود. ولم يُترك الا منفذ واحد، ألا وهو الوقت الذي ينبغي حتى لليهودي التقي ان يمضيه بالضرورة في المرحاض. لكن الدراسات المقدسة كانت ممنوعة في هذا المكان غير النظيف، وكان مسموحاً فقط بقراءة التاريخ فيه، شرط ان يكون المؤلّف مكتوباً بالعبرية، وان يكون علمانياً تماماً، والمقصود بذلك ان المؤلَّف يجب ان يكون مخصصاً حصراً، للموضوعات غير اليهودية. (ويستطيع المرء ان يتصور تلك القلّة من اليهود في ذلك الوقت، الذين نمى لديهم، وباغواء من ابليس بلا ريب، اهتمام

بتاريخ ملوك فرنسا، وهم يشكون دائماً لجيرانهم معاناتهم من امساك المعدة...) ونتيجة لذلك، فقد كانت الاكثرية الساحقة من اليهود، قبل مائتي سنة، تعيش في ظلمة كلية، ليس فقط حول وجود اميركا، بل حول التاريخ اليهودي ودولة اليهود المعاصرة ايضاً؛ وكان هؤلاء قانعين تماماً بالبقاء على هذه الحال.

التاريخ الاستبدادي

وفي اي حال، فقد كان هناك مجال واحد لم يكن مسموحاً لهم فيه بالبقاء على قناعتهم بما لديهم ـ وكان هذا المجال الهجمات المسيحية على تلك النصوص المذكورة في التلمود والادب التلمودي والمعادية للمسيحية خصوصاً، او للاغيار عموماً. ومن المهم ان نلاحظ بان هذا التحدي تطوّر متأخراً نسبياً في تاريخ العلاقات المسيحية ـ اليهودية ـ فقط منذ القرن الثالث عشر وما بعده. (فقبل ذلك، كانت السلطات المسيحية تهاجم اليهودية مستخدمة إما حججاً من الانجيل او حججاً عامة، ولكنها بدت على جهل تام بالنسبة الى محتويات التلمود). ويبدو ان الحملة المسيحية ضد التلمود كان سببها تحول يهود ضليعين في التلمود، الى الديانة المسيحية، وقد اجتذب العديدين منهم تطورُ الفلسفة المسيحية، بسمتها الارسطية (وبالتالي الكونية) البارزة (١٤).

وينبغي الاقرار منذ البداية، بان التلمود والادب التلمودي ـ وبمعزل عن سمته الملازمة المعادية عموماً للاغيار، والتي سنبحثها بتفصيل أوسع في الفصل الخامس ـ ينبغي الاقرار بانهما يتضمنان اقوالاً منفّرة، وقواعد سلوكية موجهة تحديداً، ضد المسيحية. وعلى سبيل المثال، يقول التلمود، بالاضافة الى سلسلة من المزاعم الجنسية البذيئة ضد يسوع المسيح، بان عقابه في الجحيم يقضي بإغراقه في غائط يغلي ـ والقصد من هذا القول ليس بالضبط، تحبيب المسيحيين الاتقياء بالتلمود. ويستطيع المرء ان يستشهد بإحدى قواعد السلوك التي تشير على اليهود بإحراق اي نسخة من الانجيل تقع في ايديهم، وان يفعلوا ذلك علناً اذا امكن. (وهذه القاعدة ما زالت سارية المفعول حتى يومنا هذا، بل تمارس فعلاً؛ وعلى هذا النحو، أحرقت

علناً، في آذار/مارس ١٩٨٠، مئات النسخ من الانجيل، في احتفال أقيم في القدس، برعاية ياد لأخيم، وهي منظمة دينية يهودية تقدم لها المعونات المالية وزارة الاديان الاسرائيلية).

وفي اي حال، وابتداء من القرن الثالث عشر، نمت في اوروبا هجمة قوية مركزة في عدد من نقاطها، ضد اليهودية التلمودية. ونحن لا نشير هنا الى الافتراءات الجاهلة مثل التشهير الذي كان يشيعه الكهنة الغارقون في ظلمة الجهل، في المدن الريفية الصغيرة، ولكننا نشير الى المجادلات الجدية التي كانت تعقد في افضل الجامعات الاوروبية في ذلك الوقت، والتي كانت تجري على قدر كبير من الانصاف، في ظروف القرون الوسطى (١٥).

فماذا كان الرد اليهودي ـ او بالاحرى الرد الحاخامي؟ الرد الابسط كان سلاح الرشوة القديم، وسلاح الوسائل الخاصة المستخدمة من وراء الستار. فقد كان يمكن تدبير اي شيء عن طريق الرشوة في كثير من الاوقات، في معظم البلدان الاوروبية. ولم تكن هذه الحكمة صادقة في اي مكان مثلما كانت صادقة في روما البابوات في عصر النهضة. فالطبعة الاولى لمجموعة الشرائع التلمودية الكاملة، (ميشنه توراة)، لبن ميمون، التي لا تزخر فقط، بقواعد سلوك منفّرة للغاية ضد الاغيار كافة فحسب، بل بهجمات صريحة ايضاً، ضد المسيحية والسيد المسيح (الذي يضيف المؤلف بعد اسمه بكل تقوى، عبارة «فليهلك اسم الشرير») ـ هذه الطبعة نُشرت بالكامل من دون اي حذف، عام ١٤٨٠، في روما، خلال ولاية البابا سكستوس الرابع، الذي كان بابا نشيطاً جداً على الصعيد السياسي، وكانت لديه حاجة دائمة وملحة للمال. (وقبل هذا التاريخ ببضع سنوات، نُشرت في روما الطبعة الوحيدة الاقدم لمؤلف ابوليوس «الحمار الذهبي»، من دون ان يُحذف منها الهجوم العنيف على المسيحية. وكان الكسندر السادس بورجيا، من هذه الناحية، ليبرالياً جداً ايضاً.

وحتى خلال تلك الفترة، وقبلها ايضاً، كانت هناك دائماً بلدان تشهد لفترة من الوقت، موجة اضطهاد معادية للتلمود. ولكن هجمة ضارية اكثر تنسيقاً، وأوسع انتشاراً رافقت عصر الاصلاح والاصلاح المضاد. وقد حضت هذه الهجمة على

مستوى اعلى من الامانة الفكرية والمعرفة الافضل باللغة العبرية في وسط العلماء المسيحيين. وابتداء من القرن السادس عشر، أخضع الادب التلمودي كله، بما فيه التلمود نفسه، للرقابة المسيحية في عدد من البلدان. واستمرت هذه الرقابة في روسيا حتى العام ١٩١٧. وكان بعض المراقبين، كما في هولندا، اكثر ليناً من غيرهم، بينما كان بعضهم اكثر صرامة؛ وقد حُذفت منه المقاطع المنفرة او عُدّلت.

وقد تطورت من هذا النزاع الدراسات الحديثة كافة حول اليهودية، خصوصاً تلك التي وضعها يهود، وما زالت هذه الدراسات حتى يومنا هذا، تحمل العلامات الجلية على اصولها: الخداع والتبريرات او الجدالات العدائية لتنفيذ آراء الغير، واللامبالاة، او حتى العداء، تجاه السعي الى الحقيقة.

وكل ما يُسمى بالدراسات اليهودية عن الديانة اليهودية منذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا، هو عبارة عن جدالات ضد عدو خارجي اكثر مما هو مناظرة داخلية.

ومن المهم ان نلحظ بأن هذه كانت في البداية، ميزة كتابة التاريخ في المجتمعات المعروفة كافة (باستثناء اليونان القديمة التي تعرّض مؤرخوها الليبراليون القدامى لهجمات السفسطائيين فيما بعد، بسبب وطنيتهم غير الكافية!) وكان هذا صحيحاً عن المؤرخين الكاثوليك والبروتستانت القدامى، الذين خاضوا جدالات ضد بعضهم بعضاً. وعلى نحو مماثل فقد، كانت التواريخ القومية الاوروبية المبكرة مشرّبة بالقومية الفجّة واحتقار الامم الاخرى المجاورة كافة. ولكن عاجلاً ام اجلاً، يأتي الوقت الذي يجري فيه امرؤ ما، محاولة لفهم الخصم القومي او الديني، وفي الوقت نفسه، لانتقاد بعض النواحي المهمة والعميقة في تاريخ الجماعة التي ينتمي اليها هو نفسه. وتتطور هاتان العمليتان عادة، في وقت واحد وفقط عندما تصبح كتابة التاريخ «مناظرة بلا نهاية» ـ كما قال بيتر غيل ـ بفصاحة عوضاً من ان تكون استمراراً للحرب بالوسائل التاريخية. فقط عند ذلك، يصبح من الممكن كتابة تاريخ انساني يجتهد لصالح الدقة والانصاف، ومن ثمّ يتحول هذا التأريخ، ليصبح احدى اقوى ادوات الانسانية وتثقيف الذات.

وهذا هو السبب الذي من اجله تعيد انظمة الحكم الاستبدادية الحديثة كتابة

التاريخ او تعاقب المؤرخين[١٦]. فعندما يحاول مجتمع بأكمله العودة الى الاستبدادية، يُكتب تاريخ استبدادي، ليس بسبب الاكراه من اعلى، بل بسبب الضغط من اسفل، وهو ضغط فاعل اكثر. وهذا ما حصل في التاريخ اليهودي، وهو يشكل اول عقبة ينبغي لنا تجاوزها.

آليات الدفاع

ما هي الآليات المفصلة (غير الرشوة) التي اعتمدتها الطوائف اليهودية، بالتعاون مع قوى خارجية، لدرء الهجمات عن التلمود وغيره من الادبيات الدينية؟ يمكننا ان نميّز بضعة اساليب، كانت لجميعها تبعات سياسية مهمة، انعكست في السياسات الاسرائيلية الحالية. وعلى الرغم من ان تزويد كل حالة من الحالات بقرين من سياسات [مناحم] بيغن او من سياسات حركة العمل الصهيونية، سيكون امراً طويلاً مملاً، فإنني على ثقة بأن القراء الملمين بتفاصيل سياسات الشرق الاوسط سيستطيعون ملاحظة اوجه الشبه.

وآلية الدفاع الاولى التي سأبحث فيها هي آلية التحدي من طرف خفي، المقرون بمظهر المطاوعة الخارجي. وكما شرحت اعلاه، كان لتلك الفقرات التلمودية الموجهة ضد المسيحية او ضد غير اليهود[١٧]، إما ان تُحذف او ان تُعدّل ـ فالضغط كان قوياً جداً. وهذا ما جرى فعله: جرى حذف عدد قليل من الفقرات المنفّرة اكثر من غيرها، من الطبعات كافة الصادرة في اوروبا بعد اواسط القرن السادس عشر. اما عبارات «الاغيار» (goyim) و«غير اليهود» (eino yehudi) و«الغريب» (Nokhri)، في الفقرات الاخرى، الواردة في المخطوطات والمطبوعات القديمة كافة، كما في الطبعات كافة المنشورة في البلدان الاسلامية، فقد جرى ابدالها بعبارات مثل «عابد الاوثان» و«الكافر»، وحتى«الكنعاني» او «السامري»، التي يمكن الاستبراء منها، ولكن التي يمكن للقارىء اليهودي ان يميّزها، ويتعرّف عليها ككنايات ملطّفة للعبارات القديمة.

وكلما تصاعد الهجوم كلما اصبح الدفاع مفصّلاً اكثر، ومؤدياً احياناً، الى نتائج مأساوية دائمة. وقد اصبحت الرقابة في روسيا القيصرية، في فترات معينة، رقابة

اكثر صرامة، فمنعت الكنايات المذكورة اعلاه ، ايضاً بعدما ادركتها على حقيقتها. وعليه، استبدلت السلطات الحاخامية مصطلحات «عربي» و«مسلم» (اسماعيلي بالعبرية، ويعني كليهما)، واحيانا مصطلح «مصري»، وقد حسبت عن حق، بان سلطات روسيا القيصرية لن تعترض على هذا النوع من الاساءة. وجرى في الوقت نفسه، توزيع قوائم بشكل مخطوطة تتضمن كل ما حُذف من التلمود، وتشرح المصطلحات الجديدة المستخدمة كافة، وتشير الى كل ما حُذف من عبارات. وكان يُنشر في بعض الاحيان، وقبل الصفحة التي تحمل عنوان كل مجلد من مجلدات الادبيات التلمودية، كلمة تنصّل عام، تعلن بكل جدية، وتُقسم في بعض الاحيان، بان كل العبارات العدائية في المجلد تستهدف عباد الاصنام القدماء، او حتى الكنعانيين الذين اندثروا منذ زمن طويل، اكثر مما تستهدف «الشعوب التي نعيش على ارضها». وبعد الفتح البريطاني للهند، لجأ بعض الحاخامات الى مهرب الادعاء بان اي تعبير مشين بصفة خاصة، وينطوي على الازدراء، كانوا قد اقدموا على استخدامه، هو تعبير مقصود فقط، ضد الهنود، واحياناً، ضد سكان استراليا الاصليين، كأكباش فداء ايضاً.

وغني عن القول، بان كل هذا كان كذبة محسوبة منذ البداية وحتى النهاية. وما ان شعر الحاخامات بالامن، في اعقاب انشاء دولة اسرائيل، حتى اقدموا، ومن دون اي تردد، على اعادة المقاطع والعبارات المنفّرة كافة، في الطبعات الجديدة كلها. وما زالت تُعاد طباعة قسم كبير من الادبيات التلمودية، بما فيها التلمود نفسه، من الطبعات القديمة بسبب الكلفة الباهظة لكل طبعة جديدة. ولهذا السبب نُشر في اسرائيل كل ما حُذف من التلمود، المذكور اعلاه، في طبعة رخيصة بعنوان (حيسرونوت شاس). وهكذا يستطيع المرء الآن، ان يقرأ بكل حرية، مقاطع من النوع[١٨] الذي يأمر كل يهودي، أن يتلو كلما مرّ بالقرب من مدافن، تلاوة مباركة، اذا كانت المدافن يهودية، واطلاق اللعنة على امهات الموتى[١٩]، اذا كانت المدافن غير يهودية - ويجري، في الواقع، تلقين تلامذة المدارس اليهود لهذا الامر التلمودي. ونجد في الطبعات القديمة اما ان اللعنة محذوفة او ان احدى الكنايات حلّت محل

مصطلح «الاغيار». ولكننا نجد في الطبعة الاسرائيلية الجديدة للحاخام ادين ستينسالز، (وهي طبعة كاملة مع تفسيرات وشروحات للاجزاء الآرامية من الكتاب، حتى لا يساور تلامذة المدارس اي شك فيما ينبغي لهم قوله)، نجد ان مصطلحات جلية مثل «الاغيار» و «الغرباء» قد اعيدت الى النص.

لقد اقدم الحاخامات بفعل الضغط الخارجي، على ازالة بعض المقاطع او تعديلها، على نحو مضلل، ولكنهم لم يزيلوا في الممارسات الفعلية المُوصى بها في هذه المقاطع أو يعدّلوها. وينبغي ان نتذكر، وان يتذكر اليهود انفسهم بصفة خاصة، حقيقة ان مجتمعنا الاستبدادي اعتمد ولقرون من الزمن، عادات بربرية وغير انسانية لتسميم عقول افراده، وبأنه مازال يفعل ذلك. (ولا يمكننا انتحال الاعذار لهذه العادات غير الانسانية، باعتبارها مجرد ردة فعل على معاداة السامية او اضطهاد اليهود؛ فهي عادات بربرية لا داعي لها، موجهة ضد كل كائن من الكائنات البشرية. لنقُل مثلاً، ان يهودياً من الاتقياء، وصل للمرة الاولى، الى استراليا، وصادف مروره بالقرب من مدفن خاص بالسكان الاصليين، (Aborigines)؛ فعلى هذا اليهودي التقي ـ وكفعل عبادة «الله» ـ ان يلعن امهات الاموات المدفونين فيه).

وانا جميعاً نصبح شركاء في هذا الخداع اذا لم نواجه هذه الحقيقة الاجتماعية الواقعية، متواطئين في عملية تسميم اجيال الحاضر واجيال المستقبل، مع كل ما لهذه العملية من عواقب.

الخداع مستمر

لم يواصل علماء اليهودية المعاصرون هذا الخداع فحسب، بل اجروا في الواقع، تحسيناً على الاساليب الحاخامية القديمة، ان في سفاهتها ام في كذبها. وإنني هنا سأحذف، التواريخ المختلفة لمعاداة السامية، باعتبارها غير جديرة بالدرس الجدي، وسأكتفي بتقديم ثلاثة امثلة خاصة، ومثل عام واحد، على التضليلات «العلمية» الاكثر حداثة. ففي عام ١٩٦٢، نُشر في القدس، باللغتين العبرية والانكليزية، جزء من كتاب الشرائع لبن ميمون، المشار اليه آنفاً، والمسمى كتاب المعرفة، الذي يتضمن

القواعد الاساسية جداً للايمان اليهودي وفرائضه؛ وقد وُضعت الترجمة الانكليزية في مقابل النص العبري [٢٠].

فقد اعيد النص العبري الى نقاوته الاصلية، وتظهر فيه كاملة، الوصية القاضية بإبادة الكفرة من اليهود والقائلة: «من واجب المرء ابادتهم بأيديه». ولكن هذه الوصية تظهر بصورة ملطفة نوعاً ما في الترجمة الانكليزية، فتقول: «من واجب المرء ان يتخذ اجراءات فعلية لتدميرهم». ولكن النص العبري يستطرد ليحدد امثلة رئيسية على «الكفرة» الذين تنبغي ابادتهم «مثل يسوع الناصري وتلامذته، وتسادوك وبايتوس[٢١] وتلامذتهما، وعسى ان يتعفّن اسم الشرير». ولا تظهر اي كلمة من هذه الكلمات، في النص الانكليزي على الصفحة المقابلة(78a). وما ينطوي على مغزى اكبر، ان احداً، بحسب علمي، لم يحتج على هذا التضليل الصارخ، على الرغم من توزيع هذا الكتاب على نطاق واسع، في وسط العلماء في البلدان الناطقة بالانكليزية.

اما المثل الثاني فيأتي من الولايات المتحدة الاميركية، وايضاً، من الترجمة الانكليزية لاحد كتب بن ميمون. إن بن ميمون هذا، الى جانب عمله على جمع شرائع التلمود وتصنيفها، كان فيلسوفاً ايضاً، ويُعتبر مؤلفه «دليل الحائرين»، وعن حق، اعظم المؤلفات في الفلسفة الدينية اليهودية، المقروءة والمستخدمة على نطاق واسع، حتى في يومنا هذا. وكان بن ميمون، ولسوء الحظ، بالاضافة الى موقفه تجاه الاغيار عموماً، والمسيحيين خصوصاً، عنصرياً معادياً للسود ايضاً. فقبيل نهاية الدليل، وفي فصل اساسي منه (الكتاب الثالث، الفصل ٥١)، يبحث بن ميمون كيف تستطيع فئات مختلفة من البشر التوصل الى القيمة الدينية العليا، اي العبادة الحقيقية لله، ليحدد من بين هذه الفئات، تلك الفئة التي لا تستطيع حتى الاقتراب من هذه القيمة، فيقول:

«بعض الاتراك (اي العنصر المغولي) والبدو في الشمال، والسود والبدو في الجنوب، واولئك الذين يشبهونهم في اقاليمنا. فطبيعة هؤلاء البشر كمثل طبيعة الحيوانات البكماء، وهم بحسب رأيي، ليسوا في مستوى البشر، ومستواهم بين

اشياء الوجود، هو دون مستوى الانسان، واعلى من مستوى القرد، لان لهم اكثر مما للقرد، صورة الانسان والشبه له».

فماذا يفعل المرء الآن بمقطع كهذا، في مؤلّف هو غاية في الاهمية والضرورة حول الديانة اليهودية؟

هل يواجه الحقيقة وتبعاتها؟ لا سمح الله! هل يعترف (كما فعل العديد من العلماء المسيحيين، على سبيل المثال، في ظروف مشابهة) بان مرجعاً يهودياً مهماً جداً، كان يحمل وجهات نظر مسعورة، معادية للسود ايضاً، فيقوم من خلال هذا الاعتراف بمحاولة لتثقيف الذات بالانسانية الحقيقية؟ بئس هذه الفكرة. واكاد اتخيل العلماء اليهود في الولايات المتحدة الاميركية وهم يتشاورون فيما بينهم، ويتساءلون: «ما العمل؟» ـ لان الكتاب كان ينبغي ان يُترجم بسبب تدهور المعرفة باللغة العبرية في وسط اليهود الاميركيين. ولقد وُجد الحل المبهج للنفس، إما نتيجة التشاور او الالهام الفردي، وتضمنته الترجمة الاميركية الشعبية للدليل، التي وضعها احدهم، ويدعى فريدلاندر، والتي نُشرت، للمرة الاولى، عام ١٩٢٥، ثم أعيدت طباعتها مراراً عديدة منذ ذلك التاريخ، بما في ذلك بضع طبعات في اغلفة ورقية. ففي هذه الترجمة نُقلت كلمة كوشيم العبرية، وتعني السود، الى الانكليزية لتصبح كوشايتس، وهي كلمة لا تعني شيئاً لهؤلاء الذين لا يفقهون العبرية، كما ان اي حاخام خدوم لن يعطي تفسيراً شفوياً لها[٢٢]. ولم يحدث ان قيلت كلمة واحدة طوال هذه السنوات، للاشارة الى الخداع الاولي، او الى الحقائق الاجتماعية التي يرتكز عليها استمرار هذا الخداع. وكل هذا، طوال سنوات الاثارة الناجمة عن حملات مارتن لوثر كينغ، والتي كان يدعمها عدد من الحاخامات، هذا اذا لم نذكر الشخصيات اليهودية الاخرى، التي كان بعضها يعرف، بلا شك، الموقف العنصري المعادي من السود الذي يشكل جزءاً من تراثهم اليهودي[٢٣].

ولا ريب ان وجد المرء نفسه مدفوعاً الى الفرضية القائلة بان عدداً لا بأس به من الحاخامات المؤيدين لمارتن لوثر كينغ، كانوا اما معادين للسود، وقد دعموه لاسباب تكتيكية تتعلق بـ «المصلحة اليهودية» (رغبتهم بكسب دعم السود لليهود الاميركيين

ولسياسات اسرائيل) او منافقين بارعين، الى حد انفصام الشخصية، قادرين على الانتقال السريع جداً، من المتعة الدفينة بالعنصرية المسعورة، الى الارتباط المُعلن بنضال معاد للعنصرية، والمراوحة بين هذه المتعة وذاك الارتباط.

ويأتي المثل الثالث من عمل ينطوي على درجة اقل بكثير من القصد العلمي الجدّي ـ ولكنه يتمتع بشعبية اكبر لهذا السبب بالذات. وهذا العمل هو مؤلف «مباهج اليديش» (the joys yiddish) لليو روستين. فهذا المؤلف غير الجدي ـ الذي نُشر للمرة الاولى في الولايات المتحدة، عام ١٩٦٨، وأعيدت طباعته مرات عديدة، بما فيها بضع طبعات صادرة عن دار بنعوين بأغلفة ورقية ـ هو عبارة عن سرد قاموسي لكلمات باليديش، التي غالباً ما يستخدمها اليهود، او حتى غير اليهود في البلدان الناطقة بالانكليزية. ويوجد، بالاضافة الى التعريف المفصّل لكل كلمة مدوّنة، مع نادرة مسلية تُظهر كيفية استخدامها، مصدر اشتقاق الكلمة، يحدد (بدقة، اجمالاً) اللغة التي اتت منها هذه الكلمة الى اليديش، ومعناها في تلك اللغة. ولكن كلمة شايغيتس ـ ومعناها الرئيسي «فتى او شاب من الاغيار» ـ هي الاستثناء: اذ يقول المؤلف بصورة غامضة، بانها مشتقة بالاصل من العبرية، ولكن من دون ان يعطي شكلاً للكلمة العبرية الاصلية أو معنى. ولكن فيما يتعلق بكلمة شيكسا ـ وهي مؤنث شايغيتس ـ فإن المؤلف يعطيها كلمتها العبرية الاصلية، شيكيتس، (او شيكس، كما نَقَل لفظها من العبرية)، ويعرّف معناها بالعبرية فيقول بأنها تعني «وصمة». وهذه كذبة سافرة، كما يعرف كل من يتكلم العبرية. فقاموس مجيدو العصري عبري ـ انكليزي، الصادر في اسرائيل، يعرّف كلمة شيكيتس تعريفاً صحيحاً كما يلي: «حيوان غير نظيف؛ مخلوق مقزز للنفس، ورجس (وبالعامية تلُفظ شايغيش)، وحقير، وفتى معاند، وفتى من الاغيار».

اما مثلي الاخير، الاكثر عمومية، اذا كان ذلك ممكناً، فهو مثل مريع اكثر من غيره، ويتعلق بموقف الحركة الحسيدية تجاه الاغيار. فالحسيدية ـ التي تشكل استمراراً (وانحطاطاً!) للصوفية اليهودية ـ ما زالت حركة حيّة تُرزق، لها انصارها النشيطون الذين يعدون بمئات الآلاف، والمخلصون اخلاصاً متعصباً «لحاخاماتهم

المقدسين»، الذين اكتسب بعضهم نفوذاً سياسياً كبيراً في اسرائيل، في وسط قادة معظم الاحزاب، ونفوذاً اكثر في وسط المراتب العليا في الجيش.

ما هي اذن، وجهات نظر هذه الحركة بالنسبة الى غير اليهود؟ دعونا نأخذ، على سبيل المثال، كتاب «هاتانيا» الشهير، وهو الكتاب الاساسي لحركة حباد، احد اهم فروع الحسيدية. فالأغيار كافة، بحسب هذا الكتاب، مخلوقات شيطانية كلية، «لا يوجد فيها ما هو خيّر اطلاقاً». حتى ان الجنين غير اليهودي يختلف نوعياً عن الجنين اليهودي. كما ان وجود غير اليهودي، بحد ذاته، وجود «غير ضروري»، حيث ان كل الخليقة كانت من اجل اليهود وحدهم.

ويوزع هذا الكتاب في طبعات لا تُعد ولا تُحصى، ويزيد في بث افكاره واشاعتها، «الابحاث المستفيضة» العديدة لفوهرر حركة حباد بالوراثة، الحالي، المسمى الحاخام اللوبافيتشي م. م. شنيئورسون، الذي يقود من مقره في نيويورك، هذه المنظمة القوية، المنتشرة في انحاء العالم. اما في اسرائيل، فتُنشر هذه الافكار على نطاق واسع، في وسط عامة الناس، وفي المدارس، وفي الجيش. (وبحسب شهادة عضو الكنيست، شولاميت الوني، تضاعفت دعاية حباد بصفة خاصة، قبيل الغزو الاسرائيلي للبنان، في آذار/مارس ١٩٧٨، من اجل حضّ الاطباء والممرضين العسكريين، على حجب المساعدة الطبية عن «جرحى الاغيار». وهذه المشورة شبه النازية لم تُشر تحديداً، الى العرب او الفلسطينيين، بل الى «الاغيار»، الغوييم، بكل بساطة). وكان احد رؤساء دولة اسرائيل السابقين، زلمان شازار، من انصار حباد الغيورين، وقد سعى، علناً، عدد من كبار السياسيين الاسرائيليين والاميركيين - وعلى رأسهم مناحم بيغن -، لكسب ودّ هذه الحركة وتأييدها، على الرغم من أن عامة الناس تكنُّ كرهاً شديداً للحاخام اللوبافيتشي - فهو، في اسرائيل، موضوع انتقاد واسع النطاق بسبب رفضه المجيء الى الارض المقدسة، ولو لزيارتها، وبقائه في نيويورك لاسباب ربانية خلاصية مبهمة، في الوقت الذي يشتهر فيه موقفه المعادي للسود في هذه المدينة.

وحقيقة ان حباد، على الرغم من هذه المصاعب البراغماتية، تستطيع ان تكون

حركة تتمتع بالتأييد العلني لهذا العدد من كبار الشخصيات السياسية، تعود الى حد كبير، للمعالجة المخاتلة والمضللة تماماً، التي اعتمدها جميع العلماء تقريباً، ممن كتبوا عن الحركة الحسيدية وفرعها الحبادي. وهذا ينطبق، بصفة خاصة، على كل الذين كتبوا، او يكتبون عنها باللغة الانكليزية. فهم يطمسون الادلة الساطعة في النصوص الحسيدية القديمة، بقدر ما يطمسون المضامين السياسية الاحدث عهداً، الناجمة عنها، والتي تحدث حتى في وجه القارىء غير المبالي للصحافة العبرية الاسرائيلية، التي ينشر فيها الحاخام اللوبافيتشي وغيره من قادة الحسيديم، وبصورة دائمة، اقوالاً وتحريضات مسعورة ومتعطشة للدماء، ضد العرب كافة.

والمخادع الرئيسي في هذه الحالة، والمثل الجيد الدال على قوة الخداع، كان مارتن بوبر. فأعماله العديدة في مديح الحركة الحسيدية ككل (بما فيها حباد)، لا تشير ولو تلميحاً، الى المبادىء الحسيدية الحقيقية المتعلقة بغير اليهود. وتصبح جريمة الخداع اكبر في ضوء حقيقة ان مدائح بوبر للحسيدية نُشرت اولاً، بالالمانية خلال فترة تنامي النزعة القومية الالمانية، وصعود النازية الى السلطة. ولكن في الوقت الذي كان فيه بوبر معارضاً للنازية في الظاهر، كان يمجد حركة تحمل وتعلم مبادىء حول الاغيار، لا تختلف عن المبادىء النازية حول اليهود.

صحيح ان المرء يستطيع ان يرد بالقول إن اليهود الحسيديم كانوا قبل سبعين عاماً او خمسين، الضحايا، وان «الكذبة البيضاء» التي تحابي الضحية، كذبة معذورة. ولكن نتائج الخداع لا تحصى. فأعمال بوبر تُرجمت الى اللغة العبرية لتصبح عنصراً قوياً من عناصر التعليم العبري في اسرائيل، وتزيد في قوة زعماء الحسيديم المتعطشين للدماء، فكانت بالتالي، عاملاً مهماً من عوامل تنامي الشوفينية الاسرائيلية وكراهية الاغيار كافة. واذا فكرنا في العديد من الارواح البشرية التي قضت متأثرة بجراحها بسبب رفض ممرضي الجيش الاسرائيلي الاعتناء بها، بحضّ من الدعاية الحسيدية، فان عبء المسؤولية الثقيل عن دمائهم، يقع على رأس مارتن بوبر.

وينبغي لي ان اذكر هنا، بأن بوبر في تملقه للحركة الحسيدية، قد جاوز كثيراً،

غيره من العلماء اليهود، خصوصاً هؤلاء الذين كتبوا باللغة العبرية (او سابقاً، باليديش)، وحتى هؤلاء الذين كتبوا بلغات اوروبية ولكن لجمهور يهودي صرف. ولقد كان هناك، في وقت من الاوقات، الكثير من النقد المبرر للحركة الحسيدية في مسائل تتعلق بمصالح يهودية داخلية. فكراهيتهم للمرأة (التي تفوق في تطرفها كثيراً، الكراهية للمرأة الشائعة في وسط الارثوذوكسية اليهودية)، وانغماسهم في معاقرة الخمرة، وتقديسهم المتعصب لـ «حاخاماتهم المقدسين»، المتوارثين للمنصب، والذين يبتزون اموالهم، والمعتقدات الخرافية العديدة التي تميزهم عن غيرهم ـ كل هذه الامور، وغيرها من الصفات السلبية العديدة، كانت موضوع تعقيبات ناقدة. ولكن النصر كان حليف رومانسية بوبر العاطفية المضللة، خصوصاً في الولايات المتحدة واسرائيل، لانها كانت متناغمة مع الاعجاب الاستبدادي بكل ما هو «يهودي حقيقي»، ولان بعض الدوائر اليهودية «اليسارية» التي كان لبوبر تأثير كبير عليها، قد تبنت هذا الموقف.

ولم يكن بوبر وحده في هذا الموقف وان كان، برأيي، الاسوأ بما لا يُقاس في الشرور التي بثّها، والتأثير الذي خلفه. فقد كان عالم الاجتماع والعالم التوراتي، يحزقئال كوفمان، ذو التأثير الشديد، من دعاة الابادة الجماعية على غرار سفر يوشع؛ وكان الفيلسوف المثالي هوغو شموئيل برغمان، قد دعا منذ ١٩١٤ ـ ١٩١٥، الى طرد كل الفلسطينيين الى العراق، وطرد الكثيرين غيرهم. وكان جميع هؤلاء من الحمائم في ظاهرهم، ولكنهم اعتمدوا صيغاً يمكن استخدامها ببراعة بمعنى معاد اقصى العداء للعرب، وكانوا جميعاً ذوي ميول الى تلك الصوفية الدينية التي تشجع على نشر الاضاليل، كما كانوا جميعاً يبدون اناساً لطفاء، غير قادرين على ايذاء ذبابة حتى عندما كانوا يدعون الى الطرد والعنصرية والابادة ـ ولهذا السبب وحده كان تأثير اضاليلهم اكبر.

وعلينا ان نناضل ضد تمجيد اللاإنسانية التي لا ينادي بها الحاخامات وحدهم، بل ايضاً هؤلاء الذين يُفترض ان يكونوا اعظم علماء اليهودية، وبالتأكيد اكثرهم تأثيراً. وعلينا ان نردد في وجه الخلفاء الحديثين للانبياء المزيفين والكهنة المخادعين

ـ وحتى في وجه الرأي الذي يكاد يكون اجماعياً في اسرائيل، وفي وسط غالبية اليهود في بلدان مثل الولايات المتحدة ـ ان نردد تحذير لوكريتيوس من تخلي المرء عن قدرته على الحكم وتكوين الرأي، واستسلامه للكلام الخطابي الذي يطلقه الزعماء الدينيون: «يدفع الدين بالرجال الى ذرى كهذه من الشرّ». فالدين ليس دائماً افيون الشعوب (كما قال كارل ماركس)، ولكنه غالباً ما يمكن ان يكون كذلك، وهو عندما يُستخدم بهذا المعنى، بالمواربة وبعرض طبيعته على غير حقيقتها، فان العلماء والمثقفين الذين يؤدون هذه المهمة يتخذون لأنفسهم شخصية مهربي الافيون.

ولكننا نستطيع ان نستخلص من هذا التحليل، استنتاجاً آخر، اكثر عمومية، عن الوسائل الفاعلة والمفزعة للاكراه على فعل الشرّ، وعلى الغش والخداع، وافساد شعوب بكاملها، من دون تلطيخ الايدي بالعنف، ودفع هذه الشعوب الى ممارسة القمع والقتل. (اذ لم يعد هناك امكانية لأي شك في أن افظع اعمال القمع في الضفة الغربية، اعمال مدفوعة بالتعصب الديني اليهودي). ويبدو ان معظم الناس يفترضون بأن اسوأ الانظمة الاستبدادية تستخدم الاكراه الجسدي، ويرجعون الى التصور الخيالي في مؤلف [جورج] اورويل «١٩٨٤»، كنموذج يصوّر نظاماً من هذا النوع. ولكن يبدو لي أن وجهة النظر الشائعة هذه، لهي على خطأ كبير؛ وان الاصدق بالنسبة الى اخطار الطبيعة البشرية هو حدس اسحق عظيموف في رواياته العلمية حيث القمع الاسوأ هو دائماً القمع الذي يستوعبه المرء وينطوي عليه فيصير عنده جزءاً من نفسه. فالحاخامات ـ بل اكثر منهم، العلماء الذين نهاجمهم هنا، ومعهم كل العصابة الصامتة بدورها، من اشباه المثقفين الباحثين عما يسهل فهمه، كالكتاب والصحافيين والشخصيات العامة، الذين يكذبون ويخدعون اكثر منهم ـ كل هؤلاء وعلى عكس علماء ستالين المدجنين، لا يواجهون الموت او معسكرات الاعتقال فحسب، بل الضغط الاجتماعي ايضاً. فهم يكذبون بدافع وطنيتهم، لأنهم يعتقدون بأن واجبهم يقضي بان يكذبوا من أجل ما يتصورونه المصلحة اليهودية. انهم كَذَبة وطنيون، وان هذا الشعور الوطني هو نفسه الذي يدفعهم الى الصمت عندما يجدون انفسهم، وجهاً لوجه، امام التمييز ضد الفلسطينيين واضطهادهم.

واننا نواجه ايضاً في الحالة هذه، ولاء فئوياً آخر، ولكنه ولاء آت من خارج الجماعة، يكون حتى اشد اذى في بعض الاحيان. فهناك العديد من غير اليهود، بمن فيهم رجال الدين المسيحيون والمتدينون من غير الكهنوتيين، بالاضافة الى بعض الماركسيين من الجماعات الماركسية كافة، الذين يحملون رأياً غريباً يقول بأن احدى الطرق «للتكفير» عن اضطهاد اليهود، هي الامتناع عن الكلام ضد الشرور التي يرتكبها يهود، بل المشاركة في اطلاق «الاكاذيب البيضاء» عنهم. وان تهمة معاداة السامية الفجّة (او تهمة «كراهية الذات» في حالة اليهود) التي تطلق ضد اي شخص يحتج على التمييز ضد الفلسطينيين، او يشير الى اي حقيقة حول الديانة اليهودية، او الماضي اليهودي، تهمة تتعارض مع «الصيغة الموافق عليها»، هذه التهمة يُطلقها اصدقاء اليهود من غير اليهود، بعداء وقوة اكبر مما يفعل اليهود انفسهم. ان وجود هذه الجماعة ونفوذها الكبير في البلدان الغربية كافة وخصوصاً في الولايات المتحدة (وفي غيرها ايضاً، من البلدان الناطقة بالانكليزية)، هو الذي اتاح للحاخامات وعلماء اليهودية، نشر اكاذيبهم، وليس فقط من دون معارضة، بل بمساعدة كبيرة ايضاً.

في الواقع، ان ما فعله، العديدون ممن تظاهروا بالعداء للستالينية، هو مجرد استبدالهم صنماً بآخر لعبادته، وكانوا يميلون الى تأييد العنصرية والتعصب اليهودي، بحماسة ومخادعة اكبر مما كنا نجده في الماضي في وسط اكثر الستالينيين اخلاصاً. وعلى الرغم من ان ظاهرة التأييد الاعمى والستاليني، لأي شرّ ما دام شراً يهودياً، ظاهرة تعززت ابتداء من عام ١٩٤٥، عندما اصبحت الحقيقة عن ابادة اليهود الاوروبيين معروفة، فإنه من الخطأ الافتراض بأن هذه الظاهرة بدأت آنذاك فحسب. وعلى العكس من ذلك، تعود هذه الظاهرة الى تاريخ ابعد من ذلك بكثير، خصوصاً في الدوائر الاشتراكية ـ الديمقراطية.

وموسى هيس، احد اصدقاء ماركس الاوائل، الذي كان معروفاً ومحترماً على نطاق واسع كأحد اوائل الاشتراكيين في المانيا، كشف عن نفسه فيما بعد، كعنصري يهودي متطرف، وكانت اراؤه حول «العرق اليهودي النقي» التي نُشرت عام ١٨٥٨،

آراء لا تختلف بالمقارنة، عن اللغو حول «العرق الآري النقي». ولكن الاشتراكيين الالمان الذين ناضلوا ضد العنصرية الالمانية التزموا الصمت حول عنصريتهم اليهودية.

وفي عام ١٩٤٤، ابّان النضال الفعلي ضد هتلر، صادق حزب العمال البريطاني على خطة من اجل طرد الفلسطينيين من فلسطين، كانت مماثلة لخطط هتلر المبكرة (حتى حوالى العام ١٩٤١)، بخصوص اليهود.

وقد صودق على هذه الخطة بضغط من الاعضاء اليهود في قيادة الحزب، الذين اظهر العديدون منهم موقفاً ينم عن القربى والود تجاه كل السياسات الاسرائيلية، اقوى مما كان يظهره في اي وقت، مؤيدو ايان سميث من المحافظين. ولكن المحظورات الستالينية على اليسار في بريطانيا، كانت اقوى من المحظورات على اليمين، اذ لا يجري اي نقاش تقريباً، حتى عندما يؤيد حزب العمال حكومة [مناحم] بيغن.

ويسود وضع مماثل في الولايات المتحدة؛ ومرة اخرى، يبدو الليبراليون الفئة الاسوأ من غيرها.

وليس المجال هنا، مجال تحرّي التبعات السياسية كافة لهذا الوضع، ولكن علينا ان نواجه الحقيقة: اننا في نضالنا ضد عنصرية الديانة اليهودية وتعصبها، سنجد بأن ألدّ اعدائنا لن يكونوا العنصريين اليهود(والذين يستخدمون العنصرية) فحسب، بل اولئك الناس ايضاً، من غير اليهود، الذين يُعرفون في مجالات اخرى - وزيفاً برأيي - كأناس «تقدميين».

الحواشي

١ ـ ان اليهود بذاتهم وصفوا انفسهم في كل مكان، كطائفة دينية، او، حتى نكون اكثر دقة، كأمة دينية. «ان شعبنا هو شعب فقط بسبب التوراة (الشرائع الدينية)» ـ ان هذا القول لأحد ارفع المراجع، الحاخام سعاديا هاجاعون، الذي عاش في القرن العاشر، واصبح مضرب الامثال.

٢ ـ منحهم اياها الامبراطور جوزف الثاني، في العام ١٧٨٢.

٣ ـ كل هذا محذوف في كتب التاريخ اليهودية العامية، من اجل اشاعة الاسطورة القائلة بان اليهود حافظوا على ديانتهم بفضل اعجوبة او قوة خفية غريبة.

٤ ـ في كتابها "Origins of Totalitarianism" ، على سبيل المثال، الذي خصص جزء كبير منه لليهود.

٥ ـ كان الحاخامات، قبل نهاية القرن الثامن عشر، يسمحون لليهود الالمان بكتابة الالمانية بالاحرف العبرية فقط، تحت طائلة الحرم الكنسي والجلد، الخ.

٦ ـ عندما ادت صفقة بين الامبراطورية الرومانية والقادة اليهود (حكم اسرة النسيعيم)، الى اخضاع كل اليهود في الامبراطورية للسلطة التاديبية والمالية لهؤلاء القادة ومحاكمهم الحاخامية، بعدما اخذوا على عاتقهم المحافظة على النظام في وسط اليهود.

٧ ـ اكتب ذلك لكوني غير اشتراكي. ولكنني سوف أجلّ واحترم الناس الذين اخالفهم في مبادئهم، اذا ما بذلوا جهداً مخلصاً ليكونوا اوفياء لمبادئهم. وعلى العكس من ذلك، ليس هناك ما هو احقر من الاستخدام غير الصادق للمبادئ الجامعة، صحيحة كانت ام غير صحيحة، من اجل الاهداف الانانية للفرد، او ما هو اسوأ، من اجل الاهداف الانانية للجماعة.

٨ ـ ان العديد من جوانب اليهودية الارثوذكسية مستقاة في الواقع، من اسبارطة، على ما

يبدو، وذلك عبر النفوذ السياسي المفسد لافلاطون. انظر، حول هذا الموضوع، التعليقات الممتازة لموسى هداس في "Hellenistic culture,Fusion and Diffusion", Columbia University Press, New York,1959.

٩ ـ بما في ذلك جغرافية فلسطين وبالطبع، موقعها بالذات. ويبين ذلك توجه الكنس اليهودية كافة في بلدان بولندا وروسيا: فمن المفترض على اليهود اداء الصلاة وهم يواجهون القدس، وكان اليهود الاوروبيون الذين لم تكن لديهم الا فكرة غامضة عن موقع القدس، يفترضون دائماً بانها باتجاه الشرق، بينما كان موقع القدس بالنسبة اليهم في الواقع، هو اكثر باتجاه الجنوب.

١٠ ـ انني استخدم من بداية هذا الفصل وحتى نهايته، مصطلح اليهودية الكلاسيكية للاشارة الى اليهودية الحاخامية كما برزت بعد عام ٨٠٠ م تقريباً، ودامت حتى نهاية القرن الثامن عشر. وانني اتجنّب مصطلح «اليهودية المعيارية» الذي يستخدمه العديد من المؤلفين ليؤدي المعنى نفسه تقريباً، لان لهذا المصطلح في رأيي، معاني ضمنية غير مبررة.

١١ ـ ان اعمال اليهود الهيللينيين مثل فيلو الاسكندرية، تشكل استثناء. لقد كتبت قبل ان تحرز اليهودية مكانة الهيمنة الحصرية. ولقد مُنع نشر هذه الاعمال فيما بعد بالطبع، وفي وسط اليهود، ولم تبق الا لان الكهنة المسيحيين وجدوها ملائمة.

١٢ ـ خلال كامل الفترة بين عام ١٠٠م وعام ١٥٠٠، كُتب كتابان عن الرحلات وكتاب تاريخ واحد للدراسات التلمودية ـ وهو كتاب قصير وغير دقيق وممل، كتبه علاوة على ذلك، فيلسوف مُحتقر (ابراهيم بن دافيد، في اسبانيا، في حوالى العام ١١٧٠).

١٣ ـ «ميصور عينايم» لعزاريا دي روسي من فيرارا في ايطاليا، ١٥٧٤.

١٤ ـ الحالات المعروفة اكثر من غيرها كانت في اسبانيا؛ على سبيل المثال (واذا كان لنا ان نستخدم الاسماء المسيحية التي تبنوها لانفسهم) الاستاذ الفونسو من فالا دوليد، الذي اعتنق المسيحية في عام ١٣٢٠، وبول من سانتا ماريا، الذي اعتنق المسيحية في عام ١٣٩٠ وعُيِّن اسقفاً لبور غوس في عام ١٤١٥. ولكن بالامكان ان نذكر العديد من الحالات الاخرى، من انحاء اوروبا الغربية.

١٥ ـ بالتأكيد، كانت اللهجة، والنتائج ايضاً، افضل بكثير مما كانت في الجدالات التي اتُّهم فيها المسيحيون بالهرطقة ـ مثلاً، تلك التي أدين فيها بيتر ابيلارد او الفرنسيسكانيون المتشددون.

١٦ ـ ان المثالين الستاليني والصيني معروفان معرفة جيدة بما فيه الكفاية. الا انه من الجدير ان نذكر بان اضطهاد المؤرخين الصادقين في المانيا بدأ في وقت مبكر جداً. ففي العام ١٨٧٤ سُجن هـ. ايوالد، وهو استاذ في غوتينجن، بسبب تعبيره عن آراء «غير صحيحة» حول فتوحات فريدريك الثاني، قبل مائة عام. والوضع في اسرائيل مشابه: فأسوأ الهجمات ضدي لم تثرها المصطلحات العنيفة التي استخدمها في اداناتي للصهيونية ولاضطهاد الفلسطينيين، ولكن اثارها مقال من اولى مقالاتي حول دور اليهود في تجارة الرقيق، وكانت آخر الحالات التي استشهدت بها تعود الى عام ١٨٧٠. ولقد نُشر هذا المقال قبل حرب ١٩٦٧؛ ونشره في هذه الايام، سوف يكون مستحيلاً.

١٧ ـ كان ينبغي في النهاية، ازالة بعض المقاطع الاخرى ايضاً، مثل تلك التي بدت لا معقولة لاهوتياً (مثلاً، حيث يُقال بان الله يصلي لنفسه، او انه يقوم جسدياً، ببعض الممارسات التي اوصى الفرد اليهودي بالقيام بها)، او تلك المقاطع التي تمتدح بحرية زائدة، المغامرات الجنسية للحاخامات القدامى.

١٨ ـ دراسة «بيراخوت»، ص ـ ٥٨ ب.

١٩ ـ «ان امك سترتبك على نحو موجع؛ ان التي حملت بك ستشعر بالخزي...» ارميا النبي، ٥٠:١٢.

٢٠ ـ صادر عن Boys Town، القدس، وقد حرره موسى هيامسون، احد اشهر علماء اليهودية في بريطانيا.

٢١ ـ المؤسسون المفترضون للفرقة الدينية الصدوقية.

٢٢ ـ يسعدني ان اقول بان كلمة «السود» تظهر في ترجمة جديدة صدرت مؤخراً (عن دار نشر جامعة شيكاغو)، ولكن هذا الكتاب الكبير، الباهظ الثمن، من غير المحتمل الى الآن، ان يصل الى «الايدي التي ينبغي الا يصل اليها. وعلى نحو مماثل، كان يُسمح في انكلترا، في اوائل القرن التاسع عشر، بنشر كتب راديكالية (مثل كتاب غودوين) شرط ان تصدر في طبعات باهظة الثمن.

٢٣ ـ يمكننا ان نذكر واقعة اضافية في هذا الصدد. لقد كان ممكناً تماماً، وجديراً بالاحترام على ما يبدو، ان ينشر عالم يهودي بالاسلام، هو برنارد لويس (الذي درّس سابقاً في لندن،

ويدرّس الآن في الولايات المتحدة)، مقالاً فيEncounter، يشير فيه الى العديد من الفقرات في الادب الاسلامي، المعادية للسود، برأيه، ولكن حتى (اي فقرة من هذا الفقرات، لاتشبه الفقرة المقتبسة اعلاه. وسوف يكون مستحيلاً تماماً لاي كان اليوم، مثلما كان مستحيلاً خلال السنوات الثلاثين الاخيرة، ان يناقش في اي نشرة اميركية مُعتبرة، هذه الفقرة اعلاه او غيرها من الفقرات التلمودية العديدة النابية، المعادية للسود. ولكن التهجم على الاسلام وحده، من دون نقد الجهات كافة، يصبح مجرد افتراء.

الفصل الثالث

الارثوذوكسية والتأويل

هذا الفصل مخصص لوصف مفصّل اكثر للبنية اللاهوتية ـ الدينية لليهودية الكلاسيكية(١). ولكن من الضروري لنا، قبل الشروع في هذا الوصف، ان نبدد، على الاقل، بعضاً من التصورات المغلوطة التي نشرت باللغات الاجنبية كافة تقريباً (اي، غير العبرية) روايات عن اليهودية، خصوصاً التصورات التي بثّها هؤلاء الذين يشيعون عبارات متداولة حالياً، مثل «التقاليد اليهودية ـ المسيحية» او «القيم المشتركة للاديان التوحيدية».

وانني،لاعتبارات تتعلق بالمجال المتوفر، سأكتفي بالتعاطي بالتفصيل، مع اهم هذه الاوهام الباطلة الشائعة في وسط عامة الناس، ألا وهي: «ان الديانة اليهودية، كانت وما زالت، ديانة تؤمن بإله واحد. والآن، وكما يعرف العديد من علماء التوراة، وكما تكشف بسهولة، القراءة الدقيقة للتوراة، فان وجهة النظر هذه التي لا علاقة لها بالتاريخ، وجهة نظر خاطئة تماماً. ففي العديد من اسفار التوراة، ان لم يكن في معظمها، هناك اقرار واضح، بصحة وجود، وبقوة، «آلهة آخرين»، ولكن يهوه، وهو اقوى هذه الآلهة(٢)، يشعر بغيرة شديدة من منافسيه، ويمنع شعبه من عبادتهم(٣). اما وجود الآلهة كافة، غير يهوه، فلا ينكره الا بعض الانبياء اللاحقين، في فترة متأخرة جداً في التوراة(٤).

ولكن ما يهمنا ليس اليهودية التوراتية فحسب، بل اليهودية الكلاسيكية؛ ومن

الواضـح تماماً، ولو ان الامر غير مُدرك على نطاق واسـع، بأن اليهودية الكلاسيكية، خلال البضع مئات من السنوات الاخيرة، كانت في القسم الاكبر منها، ابعد ما تكون عن الديانة الموحدة الصرفة. ويمكن قول الشيء نفسه، عن المبادىء الحقيقية السائدة في الارثوذوكسية اليهودية في يومنا الحاضر، وهي اليهودية التي تشكل استمراراً مباشراً لليهودية الكلاسيكية. ولقد اندثر الايمان بإله واحد بانتشار الصوفية اليهودية (الكابالاه) التي نمت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وحققت مع نهاية القرن السادس عشر، نصراً كاملاً تقريبياً، في مراكز اليهودية كافة. وكان على عصر التنوير اليهودي، الذي نشأ من ازمة اليهودية الكلاسيكية، ان يقاتل ضد هذه الصوفية وتأثيرها، اكثر من اي امر آخر، ولكن نفوذ الكابالاه بقي هو الغالب(٥) في الارثوذوكسية اليهودية الحديثة، وخصوصاً في وسط الحاخامات. فحركة غوش ايمونيم، على سبيل المثال، تستوحي، الى حد كبير، افكار الصوفية اليهودية ، الكابالية.

لذلك، فإن معرفة هذه الافكار وفهمها، امر مهم لسببين اثنين: السبب الاول وهو ان المرء لايستطيع من دون ذلك، فهم المعتقدات الحقيقية لليهودية في نهاية فترتها الكلاسيكية. والسبب الثاني هو ان هذه الافكار تلعب دوراً سياسياً معاصراً مهماً، بالنظر الى كونها تشكل جزءاً من نظام المعتقدات الجلي للعديد من السياسيين المتدينين، بمن فيهم معظم قيادات غوش ايمونيم، وبالنظر الى تأثيرها غير المباشر على العديد من القيادات الصهيونية للأحزاب كافة، بما فيها اليسار الصهيوني.

وبحسب الكابالاه لا يحكم الكون إله واحد بل عدة آلهة، لها شخصياتها وتأثيراتها المختلفة، منبعثة من العلّة الاولى النائية والمعتمة، ويستطيع المرء اذا ما حذف الكثير من التفاصيل، ان يلخص النظام كما يلي: انبثق او وُلد من العلة الاولى، إله ذكر اولاً، يدعى «الحكمة» او «الاب»، ثم إلهة انثى تدعى «المعرفة» او «الأم». وقد وُلد من اقتران هذين الاثنين، زوج من الآلهة الاصغر: الابن، ويُطلق عليه اسماء عديدة من بينها «الوجه الصغير» او «المقدس والمبارك»: والابنة، وتُسمى ايضاً، «السيدة» (او «ماترونيت»، وهي كلمة مشتقة من اللاتينية) و«شخينة»، و«الملكة»، وما

الى ذلك من اسماء. وعلى هذين الالهين ان يتحدا، ولكن مكائد الشيطان، وهو شخصية مهمة ومستقلة في هذا النظام، تمنع اتحادهما. اما الخليقة فقد تولتها العلة الاولى من اجل ان تتيح اتحادهما، ولكنهما يصبحان على شقاق اكبر من اي وقت، بسبب السقوط، وقد تمكّن الشيطان فعلاً، من الاقتراب كثيراً من الابنة الالهية، وتمكن حتى من اغتصابها (اما في الظاهر او في الواقع ـ فالآراء تختلف حول هذا الامر). اما خلق الشعب اليهودي فقد جرى من اجل اصلاح الكسر الذي سببه آدم وحواء، وقد أُحرز ذلك لبرهة قصيرة تحت جبل سيناء: الإله الذكر الابن، الذي تقمص موسى، اتحّد مع الإلهة شخينة. ولسوء الحظ فقد تسببت خطيئة العجل الذهبي مرة اخرى، بشقاق في الالوهة؛ الا ان توبة الشعب اليهودي اصلحت ذات البين، الى حد ما. وعلى نحو مماثل، يُعتقد بأن كل حادثة في التاريخ اليهودي التوراتي مرتبطة باتحاد الزوج الالهي او بشقاقه، وان الفتح اليهودي لفلسطين والاستيلاء عليها من الكنعانيين، ثم بناء الهيكلين الاول والثاني، هما امران ملائمان بصفة خاصة لاتحادهما، بينما تدمير الهياكل ونفي اليهود عن الارض المقدسة، ليس الا مجرد اشارات خارجية تدل لا على الشقاق الالهي فحسب، بل ايضاً على «العدْوِ الحقيقي وراء البغاء مع آلهة غرباء»: فالابنة تكاد تقع في قبضة الشيطان، فيما يصطحب الابن شخصيات انثوية مختلفة الى فراشه، بدلاً من زوجته الحقيقية.

وواجب اليهود الاتقياء ان يعيدوا بواسطة صلواتهم وطقوسهم الدينية، الوحدة الالهية الكاملة، بشكل اتحاد جنسي بين الإله الذكر والإلهة الانثى(٦). وهكذا تُتلى الكابالية التالية قبل اداء معظم الافعال الطقوسية، التي ينبغي لكل يهودي ورع تأديتها عدة مرات في اليوم: «من اجل المجمع(٧) [الجنسي] للمقدس المبارك وشخينته...» وقد رُتبت صلوات اليهودية ايضاً، بحيث تشجع على هذا الاتحاد الجنسي، ولو مؤقتاً، فحسب. وتتطابق اجزاء متوالية من الصلاة تطابقاً صوفياً، مع المراحل المتوالية لهذا الاتحاد: ففي لحظة من اللحظات، تقترب الإلهة مع جارياتها، وفي لحظة اخرى يضع الإله ذراعه حول عنقها ويداعب صدرها، وفي نهاية المطاف، يفترض ان تكون عملية الجماع قد حصلت.

فالصلوات والطقوس الدينية الاخرى، بحسب تفسير الكاباليين، مكرّسة

لخداع ملائكة مختلفين (متخيّلين كآلهة ثانويين يتمتعون بدرجة من الاستقلال)، او لاسترحام الشيطان. وعند لحظة معينة في صلاة الصباح، تُتلى بعض الآيات بالآرامية (عوضاً عن العبرية المعهودة اكثر)[٨]. ويفترض ان تكون هذه التلاوة وسيلة لخداع الملائكة الذين يشغّلون البوابة التي تدخل منها الصلوات الى السماء، والذين يملكون القوة على سد الطريق في وجه صلوات الاتقياء. فالملائكة لا تفقه الا العبرية وتستعصى عليها الآيات الآرامية؛ ولانها بليدة الذهن الى حد ما (اذ يُفترض بأنها اقل حذاقة من الكاباليين)، فانها تفتح البوابة، فتدخل لحظة فتحها، الصلوات بما فيها الصلوات كافة التي تُليت بالعبرية. ولنأخذ مثلاً آخر: قبل وجبة الطعام وبعدها، يمارس اليهودي التقي طقس غسل اليدين، وهو يتمتم بتبريك خاص. ويكون اليهودي في احدى هاتين المناسبتين في حالة عبادة الله، بتشجيعه للاتحاد الالهي بين الابن والابنة؛ ولكنه في المناسبة الاخرى، يكون في حالة عبادة الشيطان، الذي يحب الصلوات والطقوس اليهودية محبة كبيرة، والى درجة انه عندما يُقدم له بعضها، ينشغل بها لبعض الوقت فينسى ان يضايق الابنة الالهية. ويعتقد الكاباليون فعلاً، بان بعض التضحيات التي تُحرق في الهيكل هي تضحيات مخصصة للشيطان. وعلى سبيل المثال، فان الثيران السبعة المخصية التي يُضّحى بها خلال الايام السبعة لعيد الشهادة (Tabernacles)[٩]، يفترض ان تكون ثيراناً مقدمة للشيطان بصفته حاكماً للأغيار كافة[١٠]، من اجل ابقائه منشغلاً الى حد لا يستطيع معه التدخل في اليوم الثامن، عندما تقدم التضحية لله. ويمكننا ان نعطي امثلة عديدة اخرى من هذا النوع.

وينبغي لنا ان نسجل بضع نقاط بخصوص هذا النظام واهميته، حتى نفهم اليهودية فهماً صحيحاً، ان في فترتها الكلاسيكية، ام في تورطها السياسي الحالي، في الممارسة الصهيونية:

اولاً، ومهما يمكن قوله في نظام الكابالاه هذا، فانه نظام لا يمكن ان يُعتبر موحّداً، يؤمن بإله واحد، الا اذا كان المرء مستعداً لاعتبار الهندوسية او الديانة اليونانية ـ الرومانية القديمة او حتى ديانة مصر القديمة، ديانة تقول بالإله «الواحد».

ثانياً، تتوضح الطبيعة الحقيقية لليهودية الكلاسيكية بالسهولة التي جرى بها تبني هذا النظام. فالايمان والمعتقدات (باستثناء القومية منها)، يلعبان دوراً صغيراً للغاية في اليهودية الكلاسيكية. والاهمية الاولى، للعمل الطقسي اكثر مما هي للمغزى الذي يفترض ان يكون له، او المعتقد الذي يرتبط به. لذلك، ففي الاوقات التي رفضت فيها اقلية يهودية متديّنة، قبول الكابالاه (كما هي الحال اليوم)، يستطيع المرء ان يشاهد بعض اليهود وهم يؤدون طقساً دينياً معيناً، معتقدين بأنه فعل عبادة لله، ويشاهد بعضهم الآخر يؤدي الطقس نفسه لكن بنيّة استرحام الشيطان ـ لكن ما دام الطقس المؤدّى هو نفسه، فيستطيعون جميعاً اداء الصلاة معاً والبقاء اعضاء في جماعة المؤمنين نفسها، مهما كانت الكراهية التي قد يكنونها لبعضهم بعضاً. أما اذا ما تجرأ احدهم على ادخال تجديد في «طريقة» غسل الايدي[١١]، بدلاً من «القصد» المرتبط بطقس غسل الايدي، فإن انشقاقاً دينياً حقيقياً، سوف ينجم عن ذلك بالتأكيد.

ويمكن قول الشيء نفسه حول الصيغ المقدسة كافة لليهودية. فالمعنى في احسن الاحوال، امر ثانوي ما دام الطقس باقياً بتمامه ولم يُمس. ولنأخذ المثل التالي: ان الصيغة اليهودية الاكثر قدسية، «اسمعي اسرائيل، ان الرب إلهنا، والرب واحد»، والتي يتلوها كل يهودي متدّين بضع مرات في اليوم، يمكنها في وقتنا الحاضر، ان تعني أمرين متناقضين؛ اذ يمكنها ان تعني بأن الرب «واحد» حقاً، ويمكنها ان تعني ايضاً، بأن مرحلة معينة في اتحاد الآلهين، الذكر والانثى، قد أحرزت، او انها في طور التشجيع بالتلاوة الصحيحة لهذه الصيغة. ولكن عندما يُقدم يهود من جماعة المؤمنين المُصلحين، على تلاوة هذه الصيغة بأي لغة اخرى غير العبرية، يغضب الحاخامات الارثوذوكس جميعاً، غضباً شديداً حقاً، سواء أكانوا من المؤمنين بالوحدة، أم بالاتحاد الجنسي الإلهي.

واخيراً، فإن لكل هذا اهمية كبيرة في اسرائيل (وفي غيرها من المراكز اليهودية) حتى في وقتنا الحاضر. فالمغزى الكبير الذي يُعطى لما هو مجرّد صيغ (مثل «قانون القدس»)؛ وافكار غوش ايمونيم وحوافزها؛ واللزوم الكامن وراء كراهية الاغيار

الذين يعيشون في فلسطين؛ والموقف الجبري إزاء محاولات الدول العربية لاحقاق السلام ـ كل هذا وسواه من سمات السياسة الصهيونية، المحيّرة لكثير من ذوي النوايا الطيبة، والذين يكونون فكرة خاطئة عن اليهودية الكلاسيكية، كل هذا أقرب الى فهمنا عندما ندرجه على هذه الخلفية الصوفية والدينية. ولكن عليّ ان احذّر من السقوط في التطرف الآخر، ومحاولة تفسير كل السياسة الصهيونية على اساس هذه الخلفية. الا انه من الواضح، بأن مدى تأثيرات هذه الخلفية يتفاوت. فقد كان بن ـ غوريون بارعاً في التلاعب والمناورة بها، بطريقة مضبوطة من اجل غايات محددة. ولكن ما أحدثه الماضي من تأثير على الحاضر في عهد بيغن، كان اكثر من ذلك بكثير. إلا أن ما ينبغي ان يحاذره المرء هو تجاهل الماضي وتأثيراته، لانه بمجرد معرفته بهذا الماضي يستطيع ان يجاوز قوته العمياء.

تفسير التوراة

سوف يتبيّن من المثل السابق ان معظم ما يعتقده الناس، الذين يفترض ان يكونوا اناساً مطّلعين، بأنهم يعرفونه عن اليهودية قد يكون مضللاً تماماً، الا اذا كانوا يستطيعون قراءة العبرية. فكل التفاصيل التي وردت اعلاه يمكن العثور عليها في النصوص الاصلية، او في بعض الحالات، في الكتب الحديثة المكتوبة بالعبرية لقراء متخصصين نوعاً ما. وعبثاً يحاول المرء العثور عليها باللغة الانكليزية، خصوصاً في تلك الاماكن من النصوص التي ادى فيها حذف حقائق اجتماعية على درجة من الاهمية، الى تشويه الصورة بكاملها.

وهناك فكرة اخرى عن اليهودية، خاطئة و شائعة، خصوصاً، في وسط المسيحيين، او في وسط اناس متأثرين جداً، بالتقاليد والثقافة المسيحية. وهذه الفكرة هي الفكرة المضللة بان اليهودية «ديانة توراتية»؛ وبأن للعهد القديم في اليهودية، المكانة المركزية نفسها، والسلطة الشرعية نفسها، التي للانجيل لدى المسيحية البروتستانتية وحتى الكاثوليكية.

وهذا مرتبط، مرة اخرى، بمسألة التفسير. فقد رأينا تساهلاً كبيراً في الامور

المتعلقة بالمعتقد، ولكن العكس تماماً هو الصحيح بالنسبة الى التفسير الشرعي للنصوص المقدسة. فالتفسير هنا راسخ رسوخاً صارماً ـ ولكن بالاستناد الى التلمود وليس الى التوراة نفسها[١٢]. والعديد من الآيات التوراتية، وربما كان معظمها، الذي يوصي بالاعمال والفرائض الدينية، آيات «تفهمها» اليهودية الكلاسيكية والارثوذوكسية في وقتنا الحاضر، بمعنى مغاير تماماً، بل حتى مناقض لمعناها الحرفي كما هو مفهوم لدى المسيحيين او غيرهم من قارئي العهد القديم، الذين لا يرون الا النص الصريح. والانقسام نفسه موجود في اسرائيل، في الوقت الحاضر، بين الذين تلقوا تعليمهم في المدارس الدينية اليهودية، وبين الذين تلقوا تعليمهم في مدارس عبرية «علمانية»، حيث يُدرس عموماً، المعنى الصريح للعهد القديم.

ولا يمكن فهم هذه النقطة المهمة الا من خلال الامثلة. وسوف يُلاحظ بأن التغييرات في المعاني لا تتخذ كلها الاتجاه نفسه، من وجهة النظر الاخلاقية، كما يُفهم هذا المصطلح اليوم. ويدعي المدافعون عن اليهودية بأن تفسير التوراة، الذي يعود بالاصل، الى الفريسيين، ليُثبّت من ثمّ، في التلمود، هو تفسير متحرر دائماً، اكثر من المعنى الحرفي. ولكن بعض الامثلة ادناه، تظهر بأن الامر ليس كذلك على الاطلاق.

١ ـ دعونا نبدأ بالوصايا العشر بالذات. يُفهم من الوصية الثامنة، «لا تسرق» (الخروج ٢٠: ١٥)، بأنها تنهي عن «سرقة» (اي خطف) شخص يهودي. والسبب في ذلك ان جميع الاعمال، التي تنهي عنها الوصايا العشر في التوراة، هي بحسب التلمود، جرائم عقوبتها الموت. اما سرقة الممتلكات فهي ليست جريمة عقوبتها الموت (في الوقت الذي يسمح فيه القانون التلمودي لليهود بخطف الاغيار) ـ ومن هنا كان هذا التفسير للوصية الثامنة. ولكن جملة مطابقة تقريباً ـ «لا تسرق» (ليفيتيكوس ١٩: ١١) يُسمح لها بالاحتفاظ بمعناها الحرفي.

٢ ـ الآية الشهيرة القائلة «العين بالعين والسن بالسن» الخ. (الخروج ٢١: ٢٤)،

تُفهم على انها تعني «مال العين لقاء العين»، اي دفع غرامة عوضاً من القصاص الجسدي.

٣ ـ وها هنا حالة شهيرة من حالات تحويل المعنى الحرفي الى نقيضه تماماً. فالنص التوراتي يحذر صراحة من التحازب مع جوقة تنادي بقضية غير عادلة: «لا تتبع الجماهير بفعل الشرّ؛ ولا تتكلم في قضية تخضع فيها للكثيرين من اجل انتزاع حكم» (الخروج ٢٣: ٢) فقد انتُزعت هذه الوصية من مضمونها، وفُسِّرت كأمر يحذو حذو الاكثرية!

٤ ـ اما الآية القائلة «لا تغلي الجدي في حليب امه» (الخروج، ٢٣: ١٩)، فقد فُسّرت كحظر على مزج اي نوع من اللحوم مع اي نوع من الحليب او من منتجات الحليب. وبما ان هذه الآية نفسها مكررة في موضعين آخرين من الاسفار الخمسة في العهد القديم، فإن مجرد هذا التكرار فُهم على انه منع ثلاثي يحظر على اليهودي(١) اكل مزيج من هذا النوع؛(٢) طبخ مزيج من هذا النوع لأي غرض كان؛(٣) والاستمتاع به او الاستفادة منه بأي شكل من الاشكال[١٣].

٥ ـ أُعطِيت في حالات عديدة، مصطلحات عامة، مثل «رفيقك» و «غريب» وحتى «رجل» معاني شوفينية حصرية. فالآية الشهيرة «احب رفيقك كما تحب نفسك» (ليفيتيكوس ١٩: ١٨) فُهمت من اليهودية الكلاسيكية (وارثوذوكسية يومنا الحاضر)، كأمر بمحبة الرفيق اليهودي وليس اي انسان آخر. وعلى نحو مماثل، فإن الآية القائلة «ولا تقف ضد دم رفيقك» (المصدر نفسه، ١٦)، يُفترض ان تعني بأن على المرء ألا يقف بلا مبالاة عندما تكون حياة (دماء) رفيق يهودي في خطر؛ ولكن كما سنرى في الفصل الخامس، يحظر على اليهودي عموماً، انقاذ حياة الاغيار لانهم ليسوا رفاقه. اما الوصية الكريمة التي تقضي بترك لمامات الحقل والكرم «للفقير وللغريب» (المصدر نفسه، ٩ ـ ١٠) فتُفسر كوصية تُشير حصراً، الى الفقراء اليهود او الى الفقراء الذين تحوّلوا الى اليهودية. وتبدأ قوانين التحريم المتعلقة بالجثث بالآية القائلة، «هذا هو الشرع، عندما يموت رجل في خيمة: فان كل من يدخل الى الخيمة... سيكون نجساً لمدة سبعة ايام» (العدد ١٩: ١٦)، ولكن كلمة

«رجل» (آدم) فُهمت على انها تعني «يهودي»، بحيث تكون الجثة اليهودية هي المحرمة فحسب، (اي انها بخسة ومقدسة في آن). وبالاستناد الى هذا التفسير، يكنّ اليهود المتديّنون اجلالاً سحرياً كبيراً للجثث وللمقابر اليهودية، ولكنهم لا يكنون اي احترام للجثث والمقابر غير اليهودية. وهكذا، فقد دُمّرت في اسرائيل المئات من المقابر الاسلامية تدميراً كاملاً (وفي احدى الحالات كان التدمير من اجل ايجاد مُتسع لتشييد فندق هيلتون تل ـ ابيب)، فيما كانت هناك صيحات احتجاج كبيرة لأن المقبرة اليهودية قد تضررت في جبل الزيتون الخاضع للحكم الاردني. والامثلة من هذا النوع عديدة الى حد لا يمكننا معه ان نستشهد بها كلها. وسوف نبحث في الفصل الخامس بعض النتائج غير الانسانية الناجمة عن هذا النوع من التفسير.

٦ ـ ولننظر اخيراً، في فقرة من الفقرات النبوية الاجمل، وهي ادانة اشعيا (Isaiah) الرائعة للرياء وللطقوس الجوفاء وحضه على كرم الاخلاق. فإحدى الآيات في هذه الفقرة (اشعيا ١: ١٥)، تقول: «عندما تبسط يديك نحوي سأشيح بعيني عنك؛ وعندما تؤدي صلواتك العديدة لن اسمع: فيداك مخضبتان بالدماء». وبما أن الكهنة اليهود كانوا «يبسطون ايديهم» عندما يباركون الناس اثناء خدمة الصلاة، فيفترض ان تعني هذه الآية ان الكاهن الذي يرتكب جريمة قتل غير مقصودة، يسقط حقه في «بسط يديه» للمباركة (حتى ولوتاب)، لانها مخضّبة بالدم.

من الواضح تماماً حتى من هذه الامثلة، ان اليهود الارثوذوكس (او اليهود كافة، قبل حوالى العام ١٧٨٠) عندما يقرأون التوراة، فانهم يقرأون كتاباً مختلفاً تماماً، ويحمل معاني مختلفة اختلافاً كلياً عن التوراة كما يقرأه غير اليهود او اليهود من غير الارثوذوكس. وهذا التمييز ينطبق حتى على اسرائيل، على الرغم من ان الفريقين يقرآن النص بالعبرية. وقد اكدت التجربة هذا الامر تكراراً، خصوصاً منذ عام ١٩٦٧. فالعديد من اليهود في اسرائيل (وفي اماكن اخرى)، الذين ليسوا من الارثوذوكس، ولا يملكون الا شيئاً قليلاً من المعرفة التفصيلية بالديانة اليهودية، حاولوا تعيير الاسرائيليين الارثوذوكس (او اليمينيين المتأثرين تأثراً شديداً بالدين)

حتى يقلعوا عن موقفهم اللانساني تجاه الفلسطينيين، وذلك بالاستشهاد لهم بآيات من التوراة بمعناها الانساني البسيط الواضح.

ولكن تبين دائماً، بأن حججاً من هذا النوع ليس لها اي تأثير مهما كان طفيفاً على هؤلاء الذين يتبعون اليهودية الكلاسيكية؛ فهم ببساطة، لا يفهمون ما يُقال لهم، لان النص التوراتي يعني لهم شيئاً مختلفاً تماماً عما يعنيه للآخرين جميعاً.

فاذا كانت مثل هذه الفجوة في الفهم والتفاهم موجودة في اسرائيل حيث يقرأ الناس العبرية ويستطيعون الحصول الفوري على المعلومات الصحيحة اذا ارادوا ذلك، يستطيع المرء ان يتخيّل عمق التصور المغلوط في الخارج، ولنقُل، في وسط الناس الذين تثقفوا على التقاليد المسيحية. في الواقع، كلما قرأ امرؤ كهذا التوراة اكثر، كلما قلّت معرفته او معرفتها باليهودية الارثوذكسية، لأن هذه اليهودية تعتبر العهد القديم نصاً لصيغ مقدسة ثابتة لا تتغير، تلاوتها عمل جزاؤه عظيم، ولكن معانيها تُحدّد برمتها، في مكان آخر. وكما قال هامبتي دامبتي لأليس: ان الذي يقف وراء مسألة من يستطيع تحديد معاني الكلمات، هو السؤال الحقيقي التالي: «من سيكون السيّد؟».

بنية التلمود

لذلك ينبغي ان يكون مفهوماً فهماً واضحاً، بأن التلمود، او ما يُسمى بالتلمود البابلي، حتى نكون دقيقين، هو مصدر المرجعية للممارسات اليهودية الكلاسيكية كافة (والارثوذكسية في يومنا الحاضر)، والقاعدة المحددة لبنيتها الشرعية. اما باقي الادب التلمودي (بما فيه ما يُسمى تلمود القدس او تلمود فلسطين) فإنه يعمل كمرجع اضافي او مكمّل.

ولا نملك هنا الدخول في وصف مفصل للتلمود وللأدب التلمودي، بل سنحصر انفسنا في طرح بعض النقاط الرئيسية التي نحتاجها في مجادلتنا. ففي الاساس، يتألف التلمود من قسمين: الاول، المشناه ـ وهو مجموعة قوانين موجزة تقع في ستة مجلدات، ينقسم كل مجلد منها الى بضعة ابحاث في مواضيع معينة،

مكتوبة بالعبرية، وقد حُرِّر في فلسطين، في حوالى العام ٢٠٠ م، مستخلص من مواد قانونية اوسع كثيراً (شفوية في الغالب)، جرى تأليفها خلال القرنين السابقين. اما القسم الثاني، وهو القسم الغالب الى حد كبير، فهو «الجماره»، وهي سجل واسع لمناقشات تتناول المشناه او تدور حولها. وهناك مجموعتان متوازيتان تقريباً من «الجماره»، الّفت احداها في بلاد ما بين النهرين (بابل) بين العام ٢٠٠م والعام ٥٠٠م تقريباً؛ اما المجموعة الاخرى فقد أُلفت في فلسطين بين العام ٢٠٠ م تقريباً، وثمة تاريخ آخر غير معروف، ولكن قبل العام ٥٠٠م بوقت طويل. والتلمود البابلي (اي المشناه بالاضافة الى الجماره البابلية)، اكثر شمولاً وافضل تنسيقاً من التلمود الفلسطيني، ويُعتبر وحده نهائياً ومُعتمداً. اما التلمود المقدسي (الفلسطيني)، فقد أولي قطعاً، مكانة ادنى كمرجع شرعي، مع عدد من المؤلفات المجموعة والمصنفة، التي تُعرف بمجملها بـ«الادب التلمودي»، وتضم المواد التي استبعدها محررو التلمودين.

اما باقي التلمود والادب التلمودي فقد كُتب، وخلافاً للمشناه، بمزيج من العبرية والآرامية، ولكن الآرامية هي اللغة الغالبة في التلمود البابلي. والتلمود لا يقتصر على المسائل الشرعية، اذ من دون اي ترتيب أو سبب ظاهر، يمكن للبحث الشرعي ان ينقطع فجأة، يقطعه ما يشار اليه كـ «قصة» (اغاداه) ـ وهي مزيج من النوادر والحكايات عن حاخامات او اناس عاديين، وشخصيات توراتية وملائكة وعفاريت وسحر واعاجيب[١٥].

لقد اعتبرت هذه الفقرات القصصية دائماً (حتى من التلمود نفسه)، وعلى الرغم من تأثيرها الشعبي الكبير في اليهودية، اعتُبرت ذات قيمة ثانوية. فالاهمية العظمى بالنسبة الى اليهودية الكلاسيكية، هي للأقسام الشرعية في النص، وخصوصاً البحث الذي يتناول القضايا التي تُعتبر قضايا تنطوي على مشاكل. فالتلمود نفسه يحدد الفئات اليهودية المختلفة تحديداً تصاعدياً كالتالي: يندرج في الفئة الادنى اليهود الذين هم على جهل مطبق، يليهم الذين لا يعرفون الا التوراة، ثم هؤلاء الملمّون بالمشناه او الاغاداه، ومن ثم الطبقة المتفوقة التي درست «الجماره»، والقادرة

على البحث في القسم الشرعي منها، وهي الطبقة الصالحة لقيادة اليهود في الامور كافة.

ويمكن وصف النظام الشرعي في التلمود كنظام شامل كلية، وسلطوي صارم، ومع ذلك قابل للتطور غير المحدود ولكن من دون اي تغيير في قاعدته العقائدية. فهذا النظام يغطي كل ناحية من نواحي الحياة اليهودية، الفردية والاجتماعية، وبتفصيل مسهب عادة، مع جزاءات وعقوبات مخصصة لكل خطيئة او مخالفة لأحكام الشرع يمكن تصورها. والاحكام الاساسية لكل مشكلة من المشاكل، هي احكام محددة تحديداً متعنتاً، ولا يمكن التشكيك فيها. اما ما يمكن التشكيك فيه، وقد بُحث باستفاضة، فهو تفصيل هذه الاحكام وتعريفها العملي. ودعوني اعطي بعض الامثلة على ذلك:

«عدم القيام بأي عمل» يوم السبت. ومفهوم «العمل» هنا، معرّف على اساس انه يشتمل على ٣٩ نوعاً من الاعمال على وجه التحديد، لا اكثر ولا اقل. ومعيار التضمين في هذه القائمة لا علاقة له بمشقّة عمل معين؛ انها بكل بساطة، مسألة تعريف عقائدي، وإن أحد انواع العمل المحظور هي الكتابة. وهنا يثار السؤال: ما هو عدد الاحرف التي ينبغي للمرء كتابتها ليرتكب خطيئة الكتابة يوم السبت؟ الجواب: حرفان. وهل تظل الخطيئة هي نفسها بغض النظر عن اليد التي استُخدمت؟ الجواب: كلا. الا ان حظر الكتابة قد عُزز للاحتراس من الوقوع في الخطيئة، بحظر ثانوي يحرم لمس اي اداة من ادوات الكتابة يوم السبت.

وهناك عمل نموذجي آخر محظور اداؤه يوم السبت، ألا وهو طحن القمح. ويستنتج من هذا الحظر، بالقياس عليه، بأن اي نوع من الطحن مهما كان، هو ممنوع. وهذا المنع معزز بدوره، بحظر مفروض على مزاولة التطبيب يوم السبت (الا في الحالات التي يتشكل فيها خطر على حياة فرد يهودي)، وذلك للاحتراس من ارتكاب خطيئة سحن عقار من العقاقير. ولا جدوى من الاشارة الى انعدام وجود خطر كهذا في زماننا الحديث (او انه لم يكن موجوداً في حالات عديدة، حتى في

ازمنة التلمود). والتلمود كتعزيز للتعزيز، يمنع التلمود صراحة، العقاقير السائلة والمشروبات المنعشة في يوم السبت. فما جرى تثبيته يبقى ثابتاً الى الابد، ومهما كان منافياً للمعقول. وقد كتب ترتاليان، وهو من آباء الكنيسة الاوائل، يقول: «انني اؤمن بها لأنها منافية للمعقول». ويمكن لهذا القول ان يخدم كشعار لاكثرية الاحكام التلمودية، بابدال كلمة «اؤمن» بكلمة «امارس».

ويوضح المثل التالي توضيحاً افضل مستوى السخف الذي بلغه هذا النظام. فأحد نماذج العمل المحظورة ايام السبت هو الحصاد. وقد جرى توسيع هذا الحظر، بالتماثل، ليشمل كسر غصن من شجرة. وبالتالي، يحظر ركوب الخيل (او اي حيوان آخر)، كاحتياط ضد اغراء كسر غصن من شجرة واستخدامه لِلَمز الدابة. ولا جدوى من المجادلة بالقول بأنك تملك سوطاً جاهزاً، او انك تنوي ركوب الخيل في مكان لا يوجد فيه شجر. فالمحظور يبقى محظوراً ابداً. الا ان هذا الحظر يمكن ان يوسع ليصبح اكثر تشدداً: ففي ازمنتنا الحديثة اصبح ركوب الدراجة محظوراً ايضاً ايام السبت، لانه يشبه ركوب الخيل.

اما المثل الاخير الذي اورده فيوضح كيف تستخدم الاساليب نفسها ايضاً، في حالات نظرية صرفة، لا يوجد لها، في الواقع، تطبيق يمكن تصوره. فخلال وجود الهيكل كان يسمح لرئيس الكهنة بأن يتزوج فتاة عذراء فحسب.

وعلى الرغم من انه لم يعد يوجد هيكل او رئيس كهنة خلال الفترة التلمودية بكاملها تقريباً، فإن التلمود يكرّس احد اكثر مناقشاته تعقيداً (وغرابة)، للتعريف الدقيق لمصطلح «العذراء» الصالحة للزواج من رئيس كهنة. ولكن ماذا بالنسبة الى المرأة التي فض غشاء بكارتها عرضاً؟ وهل يختلف الامر اذا كان الحادث قد حصل قبل عامها الثالث ام بعده؟ ونتيجة اصطدامها بقطعة معدنية ام خشبية؟ وهل كانت تتسلق شجرة؟ واذا كانت تفعل، هل كانت تتسلق الشجرة صعوداً ام نزولاً؟ وهل وقع الحادث بصورة طبيعية ام غير طبيعية؟ كل هذه المسائل والكثير غيرها، تبحث بتفصيل مُسهب. وكان على كل عالم من علماء اليهودية الكلاسيكية ان يتضلّع في مئات المشاكل من هذا النوع. وكان العلماء الكبار يُقيّمون على اساس قدرتهم على

تطوير هذه المشاكل اكثر فاكثر، لأن الامثلة اظهرت لنا بأن المجال متاح دائماً امام المزيد من التطور ـ ولو باتجاه واحد ـ وفي الواقع، فقد استمر مثل هذا التطور، بعد الصياغة النهائية للتلمود.

ولكن هناك فارقان كبيران بين الفترة التلمودية (التي تنتهي في حوالى العام ٥٠٠م) والفترة اليهودية الكلاسيكية (ابتداء من حوالى العام ٨٠٠م). فالمنطقة الجغرافية المعكوسة في التلمود، منطقة محصورة، بينما المجتمع اليهودي الذي يعكسه مجتمع «كامل»، قاعدته الزراعة اليهودية. (وينطبق ذلك على بلاد ما بين النهرين وعلى فلسطين ايضاً). وعلى الرغم من ان يهوداً كانوا في ذلك الوقت، يسكنون في انحاء الامبراطورية الرومانية، وفي مناطق عديدة من الامبراطورية الساسانية، فإنه من الواضح تماماً من النص التلمودي، أن تأليفه ـ على مدى خمسة قرون ـ كان شأناً محلياً محضاً؛ ولم يشارك فيه اي عالم من بلدان اخرى غير بلاد ما بين النهرين وفلسطين، كما ان النص لا يعكس الاوضاع الاجتماعية خارج هاتين المنطقتين.

ولا يُعرف الا القليل عن اوضاع اليهود الاجتماعية والدينية خلال القرون الثلاثة الفاصلة بين الفترتين. ولكننا نجد ابتداء من العام ٨٠٠م، عندما عادت وتوافرت معلومات تاريخية اكثر تفصيلاً، بأن السمتين الاثنتين المذكورتين اعلاه، قد انعكستا. فقد بات معترفاً بالتلمود البابلي (والى درجة اقل بكثير، بباقي الادب التلمودي) كمرجع معتمد يُدرّس ويُطوّر في المجتمعات اليهودية كافة. وكان المجتمع اليهودي قد مرّ في الوقت نفسه، بعملية تغيير عميقة: ومهما كانت هذه العملية وحيثما كانت، فانها لا تشمل الفلاحين.

اما النظام الاجتماعي الناجم عن هذا التغيير، فسوف نبحثه في الفصل الرابع. وسنصف هنا، كيف تكيّف التلمود مع اوضاع اليهودية الكلاسيكية ـ الاوسع جغرافياً بما لا يقاس، والاضيق اجتماعياً بما لا يقاس، والمختلفة اختلافاً جذرياً، في اي حال. وسوف نركز، برأيي، على اهم طرق هذا التكيف، ألا وهي الفتاوى.

الفتاوى

ان النظام التلمودي، وكما لحظنا اعلاه، نظام عقائدي غاية في التزمت، ولا يسمح بأي تخفيف في احكامه حتى عندما تصل الى حدود السخف بفعل تغيّر الظروف. وفي حالة التلمود ـ وبخلاف حالة التوراة ـ فإن المعنى الحرفي للنص مُلزم، ولا يسمح للمرء بالاسترسال في تفسيره. لكن احكاماً مختلفة من احكام التلمود اصبحت في فترة اليهودية الكلاسيكية، مسائل لا يمكن الدفاع عنها بالنسبة الى الطبقات الحاكمة اليهودية ـ الحاخامات والاغنياء. فابتُدعت لمصلحة هذه الطبقات طريقة للخداع المنتظم تحافظ على حرفية الشرع في الوقت الذي تنتهك فيه روحه وقصده. وفي رأيي، فقد كان هذا النظام المنافق للفتاوى اهم الاسباب المؤدية الى الحط من مقام اليهودية في عهدها التاريخي الكلاسيكي. (اما السبب الثاني فكان الصوفية اليهودية التي مورست في اي حال، لفترة من الزمن اقصر بكثير). ونحن بحاجة مرة اخرى، الى امثلة توضح كيفية عمل هذا النظام:

١ ـ تقاضي الفائدة (الربا):

يحظر التلمود على اليهودي حظراً متشدداً، وتحت طائلة العقاب الشديد، تقاضي فائدة على قرض يُعطى ليهودي آخر. (وبحسب اكثرية المراجع التلمودية، فان الواجب الديني يفرض تقاضي فائدة عالية الى اقصى حد ممكن، على قرض يُعطى لغير يهودي). وهناك احكام مفصّلة تفصيلاً مسهباً، يطاول المنع فيها حالات مستبعدة اشد الاستبعاد، يمكن فيها للدائن اليهودي الاستفادة من المدين اليهودي. ويصم التلمود اليهود كافة المتواطئين في معاملة غير مشروعة من هذا النوع، بمن فيهم الكاتب والشهود، بوصمة سوء السمعة، ويُسقط عنهم حق الشهادة في المحكمة، لان اليهودي الذي يشارك في عمل من هذا النوع يكون كمن يعلن بأن «لاعلاقة له بإله اسرائيل». ومن الواضح ان هذا الحكم ملائم جداً لحاجات الفلاح او الحرفي اليهودي، او لحاجات طوائف يهودية صغيرة تستخدم اموالها لاقراض غير اليهود. ولكن بحلول القرن السادس عشر، كان الوضع مختلفاً كثيراً في اوروبا

الشرقية (في بولندا بصورة رئيسية). فقد كانت هناك مجتمعات يهودية كبيرة نسبياً، وكانت تشكل الاكثرية في العديد من المدن. وكان الفلاحون الخاضعون لنظام القنانة، الذي لا يختلف كثيراً، عن العبودية، في وضع لا يكاد يسمح لهم بالاقتراض، بينما كان اقراض النبلاء من عمل قلة من اليهود الشديدي الثراء. وكان العديد من اليهود يتعاملون تجارياً، مع بعضهم بعضاً.

لقد ابتُدع في هذه الظروف، الترتيب التالي، (المسمى الفتاوى التجارية ـ هيتر عيسكا) لقروض بين اليهود، ذات فوائد، لا تنتهك حرفية الشرع، لأنها رسمياً، ليست قرضاً على الاطلاق. فالدائن «يستثمر» ماله في عمل المدين التجاري، مشترطاً شرطين اثنين: الاول، ان المدين سيدفع للدائن، في تاريخ متفق عليه، في المستقبل، مبلغاً من المال منصوصاً عليه (وهو في الحقيقة فائدة القرض) وذلك كحصة الدائن «من الارباح» اما الشرط الثاني، فيفترض بأن المدين سيحقق ربحاً كافياً لإعطاء الدائن حصته، الا اذا ادعى المدين عكس ذلك، وثبّت ادعاءه بشهادة لحاخام المدينة، او للقاضي الحاخامي، الخ ـ اللذين يرفضان بموجب ترتيب، الادلاء بشهادة في قضايا من هذا النوع.

وكل ما هو مطلوب، بالممارسة، اخذ نصّ لهذه الفتوى، مكتوب بالارامية، وغير مفهوم بتاتاً، من الاكثرية الساحقة، وتعليقه على جدار الغرفة التي تجري فيها المعاملة (وتُعرض نسخ لهذا النص في فروع المصارف الاسرائيلية كافة)، او يحتفظ بهذا النص في صندوق ـ ليصبح من ثم، القرض ذو الفائدة، بين دائن ومدين يهوديين، عملية شرعية تماماً، لا غبار عليها.

٢ ـ السنة السبتية:

بحسب الشرع التلمودي (على اساس ليفيتيكوس، ٢٥)، يجب ان تُترك الارض المملوكة من اليهود في فلسطين[١٦]، ارضاً بلا زرع كل سنة سابعة (سبتية)، عندما يُحظر كل العمل الزراعي على مثل هذه الارض (بما في ذلك الحصاد). وهناك شواهد وفيرة تدل على ان هذا القانون كان مطبقاً بحذافيره طوال الف عام تقريباً،

من القرن الخامس ق. م. وحتى اختفاء الزراعة اليهودية في فلسطين. وفيما بعد، ولما لم تعد هناك فرصة تتيح تطبيق هذا القانون تطبيقاً عملياً، أبقي عليه نظرياً كما هو، من دون مساس. ولكن مع اقامة اولى المستعمرات الزراعية اليهودية في فلسطين، في العقد الثامن من القرن التاسع عشر، اصبح هذا القانون موضوع اهتمام عملي. فالحاخامات المتعاطون مع المستوطنين ابتدعوا من باب المساعدة، فتوى، ما لبث خلفاؤهم في الاحزاب الدينية الصهيونية، فيما بعد، ان عملوا على اعطائها صفة الكمال، فأصبح هذا القانون ممارسة اسرائيلية ثابتة.

يعمل هذا القانون كما يلي: قبل السنة السبتية بوقت قصير، يعطي وزير الشؤون الداخلية الاسرائيلي، الحاخام الرئيسي وثيقة تجعله المالك الشرعي للأراضي الاسرائيلية كافة، الخاصة منها والعامة. فيذهب الحاخام الرئيسي الى شخص غير يهودي، مسلحاً بهذه الورقة، فيبيعه اراضي اسرائيل كافة، (بما فيها المناطق المحتلة منذ العام ١٩٦٧)، وذلك لقاء مبلغ رمزي من المال. وتكون هناك وثيقة اخرى منفصلة، تنص على ان «الشاري» سوف «يعيد بيع» الارض الى الشخص الذي باعه اياها، بعد انقضاء السنة. وتُكرر هذه المبادلة التجارية، عادة، كل سبع سنوات مع الشاري نفسه.

لا يعترف الحاخامات غير الصهيونيين بشرعية هذه الفتوى[١٧]، وهم يدّعون، وعن حق، بأن القانون الاسرائيلي، ما دام يحظر على اليهود بيع اراضٍ في فلسطين الى الاغيار، فإن هذه المبادلة التجارية برمتها، مبادلة قائمة على خطيئة، وبالتالي، فإنها لاغية وباطلة. الا ان الحاخامات الصهيونيين يردون على ذلك بالقول، بأن المحظور هو عملية بيع حقيقية وليس عملية بيع غير حقيقية!

٣ ـ الحلب يوم السبت:

كان هذا الحرم في ازمنة ما بعد ـ التلمود، وقد فُرض من خلال عملية زيادة التشدد الديني المذكور اعلاه. وكان يمكن التقيد بهذا الحظر بسهولة، في الشتات، بما ان اليهود الذين كانوا يملكون الابقار كانوا، عادة، على درجة من الثراء تمكنهم من

استخدام خدم من غير اليهود، يمكن ان يُطلب منهم القيام بعملية الحلب (باللجوء الى انتحال الاعذار التي نصفها ادناه). وكان يهود المستعمرات اليهودية الاوائل، في فلسطين، يستخدمون العرب لهذه الغاية ولغيرها من الغايات. ولكن كانت هناك حاجة الى فتوى بهذا الشأن في ضوء الفرض بالقوة لسياسة العمل العبري الصهيونية. (وكان لهذا الامر اهمية خاصة قبل ادخال وسائل الحلب المكننة في اواخر الخمسينات). وهنا ايضاً نشأ خلاف بين الحاخامات الصهيونيين وغير الصهيونيين.

وبحسب الحاخامات الصهيونيين يصبح الحلب الممنوع مباحاً شرط الا يكون الحليب ابيض اللون، بل مصبوغاً باللون الازرق. ويقتصر استخدام هذا الحليب السبتي الازرق اللون، على صناعة الاجبان، فتُغسل الصبغة الزرقاء في مصل اللبن. وقد ابتدع الحاخامات غير الصهيونيين، خطة ذات دلالة اكثر غموضاً (كنت شاهداً شخصياً على تطبيقها في كيبوتس للمتدينين عام ١٩٥٢). فقد اكتشف هؤلاء نصاً قديماً يسمح بإفراغ ضروع البقرة يوم السبت، فقط من اجل اراحتها من المعاناة التي يسببها انتفاخ ضروعها، ولكن بشرط متشدّد يقضي بترك الحليب يُهدر، سائلاً على الارض.

واليكم الآن ما يجري عمله في الواقع: يذهب احد المستوطنين الاتقياء صباح يوم السبت، الى حظيرة البقر ويضع الجرادل تحت الابقار (اذ لا يوجد حظر على هذا النوع من العمل في الادب التلمودي كافة). ومن ثم يذهب الى الكنيس من اجل الصلاة. فيأتي رفيقه بـ «النية الصادقة» لتخفيف آلام هذه الحيوانات، بجعل حليبها يسيل على الارض. ولكن إذا صادف وجود جردل هناك، هل يصبح هذا الرفيق مجبراً على رفعه من مكانه؟ بالطبع لا.

انه يكتفي بتجاهل الجرادل، ويؤدي مهمة الرحمة التي يتولاها، ثم يذهب الى الكنيس. ويأتي اخيراً، رفيق ثالث من الاتقياء، فيدخل الى حظيرة البقر ويكتشف لدهشته العظيمة، الجرادل المليئة بالحليب، فيضعها في براد ويلحق برفاقه في

الكنيس. والآن، اصبح كل شيء على ما يرام، وليست هناك حاجة لهدر المال على الصبغة الزرقاء.

٤ ـ المحاصيل المختلطة:

لقد اصدر الحاخامات الصهيونيون فتاوى مماثلة بالنسبة الى الحظر المفروض على بذر نوعين مختلفين من البذار في الحقل نفسه (بالاستناد الى ليفيتيكوس، ١٩: ١٩). إلا ان علم الاقتصاد الزراعي الحديث اظهر بأن بذر البذار المختلط في بعض الحالات (خصوصاً في زراعة العلف) مربح جداً. ولقد اخترع الحاخامات فتوى يستطيع رجل واحد بموجبها، بذر الحقل بالطول، بنوع واحد من البذار، فيما يأتي رفيقه من بعده، في اليوم نفسه، ويبذر الحقل بالعرض، بنوع آخر من البذار. إلا ان هذه الطريقة اعُتبرت هدراً للعمل اكثر من اللزوم، فكان ان ابتُكرت طريقة افضل: يجمع رجل واحد نوعاً واحداً من البذار، في كومة بمكان عام، ويغطيها باحتراس، بكيس او بلوح من الكرتون. ثم يضع نوعاً آخر من البذار فوق هذا الغطاء. فيأتي فيما بعد رجل آخر ويصيح صيحة تعجب امام شهود، قائلاً: «انني بحاجة الى هذا الكيس او لوح الكرتون» فيزيله بطريقة يختلط فيها البذار ببعضه، بصورة «طبيعية». ويأتي اخيراً، رجل ثالث، فيُقال له: «خذ هذا البذار وابذره في الحقل»، فيشرع في فعل ذلك[١٨].

٥ ـ المواد المخمرة:

ينبغي الا تؤكل، او تُحفظ بحوزة يهودي، خلال ايام عيد الفصح السبعة (او الثمانية خارج فلسطين). وكان يجري توسيع مفهوم «المواد المخمرة» بصورة متواصلة، كما ان النفور حتى من رؤيتها خلال العيد، قارب حدود الهستيريا. وتتضمن هذه المواد انواع الطحين كافة وحتى الحبوب غير المجروشة. وكان بالامكان احتمال هذا الامر في المجتمع التلمودي الاول، لانهم كانوا آنذاك يخبزون عادة، الخبز (المخمّر أو غير المخمر)، مرة واحدة في الاسبوع؛ وكانت العائلة الفلاحية تستخدم آخر كمية متبقية من مؤونة السنة السابقة من الحبوب، لصنع الخبز غير

المخمّر من اجل العيد الذي يؤذن بحلول موسم الحصاد الجديد. الا ان المحافظة على هذه الفريضة، في اوضاع اليهود الاوروبيين، في مرحلة ما بعد التلمود، كانت صعبة على العائلة اليهودية من الطبقة المتوسطة، بل اكثر صعوبة على تجار الذرة. ولذلك ابتُكرت فتوى، تباع بموجبها كل هذه المواد الى احد الاغيار، في عملية بيع غير حقيقية، قبل حلول العيد، ثم تُعاد وتُشترى منه، بصورة اوتوماتيكية، بعد العيد. والشيء الوحيد الذي ينبغي فعله هو وضع هذه المواد المحرمة كلها في مكان مُقفل طوال فترة العيد. وقد جعلوا في اسرائيل من عملية البيع غير الحقيقية هذه، عملية فعّالة اكثر. فاليهود المتدينون «يبيعون» موادهم المخمرة لحاخاماتهم المحليين، الذين «يبيعونها» بدورهم، الى الحاخامات الرئيسيين فيقوم هؤلاء ببيعها الى احد الاغيار، وبذلك، تصبح عملية البيع بموجب الفتوى، عملية يُفترض ان تشمل ايضاً، المواد المخمرة العائدة لليهود الذين لا يمارسون الفرائض الدينية.

٦ ـ اغيار يوم السبت (الغوييم):

ربما كانت الفتاوى المطوّرة اكثر من غيرها، تلك الفتاوى المتعلقة بـ «اغيار (غوييم) يوم السبت». وكما ذكرنا اعلاه، فقد كانت سلسلة الاعمال المحظورة يوم السبت، تتوسع باستمرار. ولكن سلسلة الاعمال التي ينبغي القيام بها، او الاشراف عليها لتلبية بعض الحاجات او لزيادة الراحة، ما زالت هي الاخرى، تتوسع ايضاً. وينطبق ذلك بصفة خاصة، على ازمنتنا الحديثة، ولكن الاحساس بتأثير التطّور التكنولوجي كان قد بدأ قبل وقت طويل. فالحظر الذي كان مفروضاً على جرش الحبوب في يوم السبت، لِنَقُل في فلسطين القرن الثاني، كان امراً بسيطاً نسبياً، لفلاح او لحرفي يهودي، كان يستخدم المطحنة اليدوية للاغراض البيتية. ولكن هذا الحظر كان امراً مختلفاً تماماً بالنسبة الى مستأجر الطاحونة المائية او الهوائية ـ احدى اكثر المهن شيوعاً في اوروبا الشرقية. ولكن حتى مشكلة انسانية بسيطة من نوع الرغبة في تناول كوب من الشاي الساخن بعد ظهر يوم من ايام السبت، تصبح مشكلة اكبر بوجود السماور، الذي يتصدر الغرفة، و يستخدم بانتظام خلال ايام الاسبوع، وهذان الامران مثالان اثنان فحسب، من بين عدد كبير جداً، مما يُسمى

«مشاكل المحافظة على فرائض يوم السبت». ويمكن للمرء ان يقول، وهو على يقين، بأن هذه المشاكل بالنسبة الى مجتمع يقتصر افراده على اليهود الارثوذوكس، كانت، على الاقل خلال القرون الثمانية او العشرة الاخيرة، مشاكل لا حل لها من دون «مساعدة» الاغيار. وهذا الامر صحيح اليوم، في «الدولة اليهودية»، اكثر مما كان قبلها، لأن العديد من الخدمات العامة، مثل توفير المياه والغاز والكهرباء، تندرج في هذه القائمة. واليهودية الكلاسيكية لم تكن تستطيع الوجود لأسبوع بكامله، من دون ان تستخدم بعض الاشخاص من غير اليهود.

ولكن هناك عقبة كبيرة في وجه استخدام غير اليهود للقيام بهذه الاعمال يوم السبت، من دون فتاوى خاصة بهذا الشأن؛ فالانظمة التلمودية تمنع اليهودي عن الطلب الى غير يهودي ان يقوم بأي عمل يُحظر عليهم القيام به بأنفسهم ، ايام السبت[١٩]. وسوف اصف هنا نوعين فقط من انواع الفتاوى الكثيرة التي تُستخدم لاغراض من هذا النوع.

هناك اولاً، طريقة التلميح التي تعتمد على منطق السفسطة الذي يصبح الطلب الآثم بموجبه طلباً ليس عليه لوم اذا صيغ بمكر. والتلميح كقاعدة، يجب ان يكون «مبهماً»، ولكن في حالات الحاجة الشديدة يصبح التلميح «الواضح» مباحاً، وعلى سبيل المثال، يُلقَّن الجنود الاسرائيليون، في كتيِّب، صدر حديثاً، حول المحافظة على الفرائض الدينية، كيف يتكلمون مع العمال العرب، الذين يستخدمهم الجيش، كأغيار يوم السبت. ففي الحالات الملحّة كمثل ان يكون الطقس بارداً جداً، ويجب اشعال النار، او عندما تكون هناك حاجة للنور من اجل اجراء طقس من الطقوس الدينية، يمكن لجندي يهودي تقي ان يستخدم التلميح «الواضح»، فيقول للعربي: «الطقس بارد هنا (او المكان معتم هنا)». ولكن التلميح «المبهم» يجب ان يكفي عادة، كمثل ان يُقال: «لو كان المكان هنا اكثر دفئاً لكان مريحاً اكثر»[٢٠] وطريقة «التلميح» هذه منفّرة ومخزية بصفة خاصة، بالنظر الى استخدامها عادة، مع غير اليهود الواقعين كلية تحت سيطرة مستخدميهم اليهود بسبب فقرهم ومكانتهم الاجتماعية التابعة. والخادم من الاغيار (او المستخدم في الجيش الاسرائيلي) الذي لا يتمرّن على تفسير «التلميحات المبهمة» يُصرف من عمله بلا رحمة.

اما الطريقة الثانية، فتُستخدم في الحالات التي يُطلب فيها من الاغيار يوم السبت، القيام بعمل روتيني، او منتظم، بدون اشراف يهودي، وليس القيام بعمل عرضي او خدمة شخصية، يمكن «التلميح» بشأنها عندما تنشأ الحاجة اليها. وبموجب هذه الطريقة ـ المسماة «التضمين المُضمر» (هابلاغاه) ليوم السبت بين ايام الاسبوع ـ يُستأجر الاغيار «للاسبوع بكامله (او السنة بكاملها)»، من دون الاتيان بذكر السبت في العقد. ولكن العمل لا يُؤدّى في الواقع، الا يوم السبت. ولقد استخدمت هذه الطريقة في الماضي، لاستئجار الاغيار من اجل اطفاء الشموع في الكنيس بعد صلاة مساء السبت (عوضاً عن تركها تحترق وتذهب سدى). ومن الامثلة الاسرائيلية الحديثة: ضبط امدادات المياه او حراسة خزانات المياه ايام السبت[٢١].

وتُستخدم ايضاً فكرة مماثلة اخرى، في حالة اليهود، ولكن لغاية مختلفة. فاليهود محظر عليهم تلقي اي مدفوعات لقاء عمل قاموا به يوم السبت، حتى ولو كان هذا العمل من الاعمال المباحة. والمثل الرئيسي هنا، يتعلق بالمهن المقدسة: اي الحاخام، او العالم التلمودي، الذي يلقي موعظة او يعلم يوم السبت، والمرتل المنفرد الذي يرتل فقط في ايام السبت، وفي غيرها من الايام المقدسة (التي ينطبق عليها تحريمات مماثلة)، والقندلفت، وامثاله من المسؤولين. وقد كانت هذه الوظائف في الازمنة التلمودية، وحتى من بعدها ببضعة قرون، في بعض البلدان، وظائف لا رواتب لها. ولكن ما ان اصبحت فيما بعد، مهناً مدفوعة الراتب حتى باتت تُستخدم فتوى «التضمين المُضمر»، وبات هؤلاء يُستأجرون على اساس «شهري» او «سنوي». ولكن المشكلة كانت معقدة بصفة خاصة، في حالة الحاخامات وعلماء التلمود، لان التلمود يحرم عليهم تلقي اي مدفوعات لقاء الوعظ والتعليم، او تدريس مسائل تلمودية حتى في ايام الاسبوع[٢٢]. لذلك كانت لهم فتوى اضافية تنصّ على ان راتبهم ليس راتباً حقيقياً على الاطلاق، بل «تعويض على التكاسل» (رمي باتالاه). وتكون النتيجة المجتمعة لهاتين الروايتين ان الاجر الذي يُدفع في الحقيقة، لقاء عمل يؤدى بصورة رئيسية ايام السبت، او فقط ايام السبت، ينقلب بسحر ساحر، الى اجر يُدفع لقاء التكاسل في ايام الاسبوع.

٧ ـ النواحي الاجتماعية للفتاوى:

سمتان اثنتان من سمات هذه الممارسات، وغيرها من الممارسات المماثلة، تستحقان ذكراً خاصاً.

اولاً، ان سمة من السمات الغالبة لنظام الفتاوى هذا، ولليهودية الكلاسيكية بقدر ما هي قائمة عليه، هي سمة الخداع ـ وخداع الله بالدرجة الاولى، اذا كنا نستطيع ان نستخدم هذه الكلمة لكائن متخيّل، يخدعه بكل سهولة، الحاخامات الذين يعتبرون انفسهم اكثر حذاقة منه. ولا يمكن تصوّر تناقض اكبر من التناقض القائم بين اله التوراة (خصوصاً إله الانبياء الاعظم)، وبين إله اليهودية الكلاسيكية. فإله اليهودية الكلاسيكية على شبه اكبر بإله روما القديم، جوبيتر، الذي كان يخدعه المتعبدون له ايضاً، او الآلهة الموصوفة في مؤلف فرايزر «الغصن الذهبي».

فاليهودية الكلاسيكية من وجهة النظر الاخلاقية، تمثل عملية انحطاط ما زالت مستمرة. وان لهذا الانحطاط الى مجموعة من الطقوس القبلية الفارغة والخرافات السحرية تبعات اجتماعية وسياسية شديدة الاهمية. اذ ينبغي ان نتذكر بأن خرافات اليهودية الكلاسيكية هي بالضبط، التي تستحوذ على ألباب الجماهير اليهودية، اكثر مما تفعل تلك الاقسام في التوراة، او حتى في التلمود، التي تنطوي على قيمة دينية واخلاقية حقيقية. (ويمكننا ان نلحظ الامر نفسه في ديانات اخرى تمر في هذه الآونة، بمرحلة انتعاش). فما هي المناسبة التي تُعتبر شعبياً، «اقدس» المناسبات واجلّها في السنة الدينية اليهودية، والتي تحضرها اعداد كبيرة جداً من اليهود الذين هم، فيما عدا هذه المناسبة، يهود بعيدون جداً عن الدين؟ انها صلاة «كول يندري» عشية يوم الغفران (يوم كيپور) ـ وهي عبارة عن ترتيل لفتوى تتميز تميزاً خاصاً بالمخادعة والسخف، تُعلن مسبقاً بواسطتها، العهود الخاصة كافة التي تُقطع لله في السنة التالية، عهوداً باطلة ولاغية[٢٣]؛ او انها، في مجال الديانة الشخصية، صلاة قديش، التي يتلوها الابناء في ايام الحداد، على ارواح آبائهم وامهاتهم من اجل رفع ارواحهم الراحلة، الى الجنّة ـ وهي تلاوة لنص آرامي غير مفهوم من الغالبية العظمى. ومن الواضح تماماً، بأن التقدير الشعبي الذي يُعطى لهذه الطقوس، وهي الاقسام الاكثر خرافة في الديانة اليهودية، لا يُعطى للاقسام الافضل فيها.

ومع خداع الله يُخدع اليهود الآخرون، ولمصلحة الطبقة اليهودية الحاكمة، بالدرجة الاولى؛ فمن ميّزات نظام الفتاوى انه لم يسمح بابتداع اي فتوى لمصلحة اليهود الفقراء تحديداً. فاليهود، على سبيل المثال، الذين كانوا يعانون من المجاعة، ولكنهم لم يكونوا على شفير الموت فعلاً، لم يُعطوا قط، الاذن من حاخاماتهم (الذين لم يعانوا غالباً، من الجوع)، بتناول اي نوع من الطعام المحرّم، مع ان الطعام المُعد بالطريقة اليهودية (الكاشيرا) طعام غالي الثمن.

اما السمة الغالبة الثانية للفتاوى فهي انها في القسم الاكبر منها، فتاوى تحفزها روح الربح. وان هذا المزيج من النفاق وحافز الربح هو الذي سيطر على اليهودية الكلاسيكية سيطرة مطّردة. وفي اسرائيل، حيث تتواصل هذه العملية، يدرك الرأي العام الشعبي الامر إدراكاً مبهماً، على الرغم من عملية غسل الدماغ التي يعززها النظام التربوي ووسائل الاعلام. فالمؤسسة الدينية - اي الحاخامات والاحزاب الدينية - وبالمشاركة، الطائفة الارثوذوكسية ككل، الى حد ما، مكروهتان تماماً من عامة الناس في اسرائيل. واحد اهم اسباب هذه الكراهية، هي بالضبط سمعتهما بالازدواجية وتقاضي الرشوة. ولكن الرأي العام (الذي قد يكون متحاملاً في اغلب الاحيان) يختلف بالطبع عن التحليل الاجتماعي. ولكن الصحيح فعلاً، في هذه الحالة الخاصة، ان لدى المؤسسة الدينية اليهودية ميلاً قوياً الى المخاتلة والارتشاء بسبب التأثير المُفسد للديانة اليهودية الارثوذوكسية. ولان الدين في الحياة الاجتماعية العامة هو احد المؤثرات الاجتماعية فحسب، فإن تأثيره على جمهور المؤمنين ليس كبيراً الى درجة تضاهي تأثيره على الحاخامات وقيادات الاحزاب الدينية. فاولئك اليهود المتدينون الصادقون في اسرائيل، ولا ريب انهم في غالبيتهم صادقون، ليسوا كذلك بسبب تأثير دياناتهم وحاخاماتهم عليهم، ولكن رغماً عن هذا التأثير. ومن جهة اخرى، فإن مستوى المخاتلة والارتشاء والفساد، في تلك المجالات القليلة في الحياة العامة في اسرائيل، التي تخضع بكليتها لسيطرة الدوائر الدينية، مستوى ذائع الصيت، ويجاوز الى حد بعيد، المستوى «المتوسط» الذي يصبر عليه المجتمع الاسرائيلي غير المتدين عموماً.

وسنرى في الفصل الرابع كيف تتصل سيطرة حافز الربح في اليهودية الكلاسيكية، ببنية المجتمع اليهودي، وكيف تعبر عن نفسها في المجتمع العام الذي عاش اليهود في وسطه، في الفترة «الكلاسيكية».

وانني هنا، ارغب فقط في ابداء الملاحظة بأن حافز الربح لا يميّز اليهودية، في فترات تاريخها كافة.

ووحده الذي حجب هذه الحقيقة، كان ذلك الارتباك الذي يتميّز به من يتمسك بالنظريات دون الواقع، الساعي وراء «جوهر» اليهودية الميتافيزيقي غير المحدود بالزمن، بدلاً من النظر الى واقع التغييرات التاريخية في المجتمع اليهودي. (ولقد شجعت الصهيونية هذا الارتباك باعتمادها على «الحقوق التاريخية» التي استخلصتها من التوراة استخلاصاً لا علاقة له بالتاريخ). وهكذا، يدعي المدافعون عن اليهودية والمقارعون الحجة بالحجة، وعن حق تماماً، بأن التوراة معادية لحافز الربح، فيما يبدي التلمود لا مبالاة تجاهه. ولكن السبب في ذلك عائد الى الاوضاع الاجتماعية المختلفة التي جرى تأليفهما فيها. وكما سبق ان اشرنا اعلاه، فقد جرى تأليف التلمود في منطقتين معرّفتين تعريفاً واضحاً، وفي فترة كان يشكل فيها اليهود الذين يعيشون فيهما، مجتمعاً قائماً على الزراعة، قوامه الفلاحون بصورة رئيسية - وهو بالحق، مجتمع يختلف اختلافاً شديداً عن مجتمع اليهودية الكلاسيكية.

وسوف نتناول في الفصل الخامس، وبالتفصيل، المواقف المعادية، والتضليلات التي مارستها اليهودية الكلاسيكية ضد الاغيار. ولكن ما هو اهم كسمة اجتماعية، الخداع الذي يحركه حافز الربح، والذي مارسه الاثرياء اليهود ضد رفاقهم من الفقراء اليهود (مثل الفتوى الخاصة بالفائدة على القروض). وينبغي لي ان اقول هنا، وعلى الرغم من معارضتي للماركسية، ان في الفلسفة ام في النظرية الاجتماعية، بأن كارل ماركس كان على حق تماماً، عندما ميّز اليهودية في مقالتين له، كديانة يسيطر عليها السعي وراء الربح - ولكن شرط ان ينحصر هذا القول

باليهودية كما عرفها هو، اي اليهودية الكلاسيكية، التي كانت في شبابه قد دخلت فترة انحطاطها. صحيح ان ماركس قال هذا الكلام اعتباطاً، وهو قول لا صلة له بالتاريخ، ويفتقر الى البراهين، ولكن من الواضح بأنه توصل الى مثل هذا الاستنتاج ببصيرته، وفي هذه الحالة ـ وبالحدود التاريخية الصحيحة ـ فقد كانت بصيرته صائبة.

الحواشي

١ - انني، وكما فعلت في الفصل الثاني، استخدم مصطلح اليهودية الكلاسيكية للاشارة الى اليهودية الحاخامية في الفترة ما بين عام ٨٠٠م تقريباً، وحتى نهاية القرن الثامن عشر. وتتوافق هذه الفترة، بصورة مجملة، مع القرون الوسطى اليهودية، بما ان ظروف القرون الوسطى، بالنسبة الى معظم اليهود، دامت لوقت اطول مما دامت بالنسبة الى الامم الاوروبية الغربية، اي حتى فترة الثورة الفرنسية. ولذلك، فان ما اسميه «اليهودية الكلاسيكية» يمكن اعتباره كيهودية القرون الوسطى.

٢ - سفر الخروج، ١٥: ١١.

٣ - المصدر نفسه، ٢٠: ٣ - ٦.

٤ - ارميا النبي، ١٠؛ لقد كرر اشعيا الثاني الفكرة نفسها فيما بعد، انظر النبي اشعيا، ٤٤.

٥ - ان الكابالاه هي بالطبع، عقيدة باطنية، ولقد انحصرت بالعلماء دراستها بالتفصيل وفي اوروبا بعد حوالى العام ١٧٥٠، اتخذت اجراءات متشددة للحفاظ على سريتها ومنع دراستها الا من قبل علماء ناضجين وباشراف متشدد. ولم يكن لدى الجماهير اليهودية في اوروبا الشرقية معرفة حقيقية بالعقيدة الكابالية؛ ولكن الكابالاه كانت ترشح اليهم بشكل خرافات وممارسات شعوذة.

٦ - يعتقد العديد من الصوفيين اليهود المعاصرين بامكانية تحقيق الهدف نفسه بسرعة اكبر، عن طريق الحرب ضد العرب، وطرد الفلسطينيين، او حتى من خلال انشاء العديد من المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية. اما الحركة المتنامية من اجل انشاء الهيكل الثالث، فتقوم ايضاً، على اساس افكار من هذا النوع.

٧ ـ ان الكلمة العبرية المستخدمة هنا ـ يهود، وتعني حرفياً الاتحاد في الخلوة، هي نفسها الكلمة المستخدمة في النصوص الشرعية (التي تتناول الزواج، الخ) للاشارة الى الاتصال الجنسي.

٨ ـ ما يسمى «كيدوشا شليشيت» (القدسية الثالثة)، التي ادخلت في صلاة «وفالتسيون» في نحو نهاية القداس الصباحي.

٩ ـ سفر الاعداد، ٢٩.

١٠ ـ تتوضح قوة الشيطان وصلته بغير اليهود، من خلال العادة الشائعة، التي ارسيت تحت نفوذ الكابالاه في العديد من المجتمعات اليهودية، ابتداء من القرن السابع عشر. فعلى المرأة العائدة من حمام التطهّر الطقسي الشهري (الذي يصبح وصالها مع زوجها من بعده، امراً ملزماً) ان تحترس من التقاء احد المخلوقات الشيطانية الاربعة: الاغيار والخنزير والكلب، او الحمار. فاذا حصل والتقت باحد هذه المخلوقات، عليها ان تأخذ حماماً آخر. ومن بين الدعاة الى هذه العادة «شيفيت موسار»، وهو كتاب يتناول السلوك الاخلاقي اليهودي، نُشر للمرة الاولى في عام ١٧١٢، وكان احد اكثر الكتب شعبية بين اليهود في اوروبا الشرقية والبلدان الاسلامية حتى اوائل هذا القرن، وما زال يُقرأ على نطاق واسع في بعض الدوائر الارثوذوكسية.

١١ ـ هذا الامر موصوف بتفاصيله الدقيقة. فغسيل الايدي على سبيل المثال، يجب الا يجري تحت حنفية، بل ينبغي غسل كل يدٍ على حدة، في ماء من قدح (من حجم صغير موصوف) يُمسك باليد الاخرى. واذا كانت ايدي المرء قذرتين فعلاً، يستحيل تماماً تنظيفهما بهذه الطريقة، ولكن من الواضح ان الاعتبارات الذرائعية من هذا النوع، اعتبارات لا تدخل في هذه الموضوع. واليهودية الكلاسيكية توصي بعدد كبير جداً من الطقوس التفصيلية، من هذا النوع، والتي تعلق عليها الكابالاه اهمية عميقة. فهناك على سبيل المثال، قواعد دقيقة عديدة تتعلق بالسلوك في دورة المياه. واليهودي الذي يتغوّط في الخلاء ينبغي الا يفعل ذلك في الاتجاه الشمالي ـ الجنوبي، لان الشمال مرتبط بالشيطان.

١٢ ـ «التفسير» هو تعبيري الخاص. فوجهة النظر الارثوذوكسية الكلاسيكية (وارثوذوكسية يومنا الحاضر) هي ان المعنى التلمودي، حتى حيثما يكون مخالفاً للمعنى الحرفي، كان دائماً المعنى المعمول به.

١٣ ـ بحسب قصة مشكوك في صحتها، فان مهرطقاً يهودياً شهيراً في القرن التاسع عشر، لاحظ في هذا الصدد بان الآية القائلة «لا ترتكب الزنى» مكررة مرتين فحسب. «فيفترض على المرء بالتالي، ان يمتنع عن اكل الزنى او طبخه، ولكن لا بأس من الاستمتاع به».

١٤ ـ تُرجمت الكلمة العبرية، «رعاخا»، في ترجمة الملك جيمس (ومعظم الترجمات الانكليزية الاخرى)، ترجمة غير دقيقة الى حد ما، وكما لو كانت تعني «جارك». ولكن انظر II صموئيل، ١٦: ١٧ حيث تُرجمت الكلمة نفسها في ترجمة الملك جيمس، ترجمة صحيحة اكثر، بحيث تعني «صديقك».

١٥ ـ «الميشناه» متحررة من كل هذا تحرراً لافتاً، والاعتقاد بالشياطين والشعوذة بصفة خاصة، امر نادر نسبياً فيها. ولكن التلمود البابلي من ناحية اخرى، مليء بالخرافات الفاضحة.

١٦ ـ او في انحاء عديدة من فلسطين، اذا توخينا الدقة. والمناطق التي ينطبق عليها القانون هي على ما يبدو، المناطق التي كانت فيها غلبة ديمغرافية يهودية، في حوالى ١٥٠ ـ ٢٠٠م.

١٧ ـ ولذلك ينظم اليهود الارثوذوكس غير الصهيونيين في اسرائيل، حوانيت خاصة في السنوات السبعية، تبيع الفاكهة والخضار التي زرعها العرب في ارض عربية.

١٨ ـ في شتاء ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦، شاركت انا بنفسي، في مثل هذا الاجراءات، وكنت صبياً في الثالثة عشرة من العمر. وكان الرجل المسؤول عن العمل الزراعي في المدرسة الزراعية الدينية التي كنت ادرس فيها، يهودياً تقياً بصفة خاصة، وكان يعتقد بانه من الاسلم لو ادى الخطوة الحاسمة، خطوة ازالة اللوح، يتيم يقل عمره عن ثلاثة عشر عاماً، غير قادر على ان يكون مذنباً بارتكاب خطيئة، او ان يجعل اي شخص آخر مذنباً بارتكاب خطيئة. (ان ولداً تحت هذه السن لا يمكن ان يكون مذنباً بارتكاب خطيئة؛ فوالده، اذا كان له اب، يُعتبر مسؤولاً). ولقد شُرح لي كل شيء شرحاً دقيقاً، قبل القيام بالمهمة، بما في ذلك فريضة القول، «انني بحاجة الى هذا اللوح»، في وقت لم تكن هناك حاجة اليه في الواقع.

١٩ ـ ان التلمود على سبيل المثال، يمنع اليهودي من التمتع بضوء شمعة يضيئها احد الاغيار في يوم السبت، الا اذا كان هذا قد اضاءها لاستخدامه الخاص، قبل ان يدخل اليهودي الى الغرفة.

٢٠ ـ لقد استخدم احد اعمامي في وارسو، قبل العام ١٩٣٩، طريقة حاذقة اكثر. فقد

استخدم خادمة غير يهودية تدعى ماريسيا، وكان من عادته عندما يستيقظ من قيلولة يوم السبت، ان يقول بهدوء في البداية، «كم يكون جميلاً لو» ـ ثم يرفع صوته صائحاً، «... تجلب لنا ماريسيا كوباً من الشاي!» لقد كان يُعتبر رجلاً تقياً جداً، ويخاف الله، ولا يمكن ان يخطر في باله شُرب نقطة من الحليب قبل انقضاء ست ساعات كاملة على تناوله اللحم. ويوجد في مطبخه حوضان، احدهما لغسيل الصحون التي استُخدمت لاكل اللحم، والآخر للصحون التي استُخدمت للحليب.

٢١ ـ تحصل اخطاء مؤسفة بين الحين والآخر، لان بعض هذه الاعمال لا عناء فيها ابداً، وتسمح للموظفين بالتعطيل لمدة ستة ايام كل اسبوع. ولقد اصيبت مدينة بناي براك (بالقرب من تل ابيب)، التي يقطنها حصراً تقريباً، يهود ارثوذوكس، اصيبت بصدمة في الستينات بسبب فضيحة فظيعة. فلقد اكتشف عند وفاة احد «اغيار يوم السبت»، الذي استخدموه لما يزيد على عشرين عاماً، ليشرف على تزويداتهم من المياه ايام السبت، بانه لم يكن مسيحياً في الحقيقة بل كان يهودياً! طالبت المدينة عندما وظفت خلفه الدرزي، بوثيقة حكومية تشهد بان الموظف الجديد من الاغيار وبان نسبه من الاغيار الصرف، وحصلت عليها. ويقال من مصدر موثوق، بانه طُلب من الشرطة السرية البحث والتحقيق في هذا الامر.

٢٢ ـ وعلى العكس من ذلك، يمكن القيام بتدريس الكتاب المقدس لقاء مبلغ من المال. ولقد اعتُبرت هذه الوظيفة دائماً، وظيفة، قليلة الاجر.

٢٣ ـ وهناك طقس آخر «غاية في الاهمية»، يقضي بنفخ بوق مصنوع من قرن الكبش، في رأس السنة، والغاية منه ارباك الشيطان.

الفصل الرابع

وطأة التاريخ

كُتب الكثير من الكلام الفارغ في محاولة لتقديم تفسير اجتماعي او صوفي لليهود او لليهودية «ككل». وهذا امر غير ممكن، لان البنية الاجتماعية للشعب اليهودي والبنية الايديولوجية لليهودية، تغيرت تغيراً عميقاً عبر العصور. وبإمكاننا ان نميّز اربع مراحل رئيسية:

١ ـ مرحلة الممالك القديمة، مملكة اسرائيل ومملكة يهودا، حتى تدمير الهيكل الاول (في عام ٥٨٧ ق. م). والمنفى البابلي. (ويُعنى حيّز كبير من العهد القديم بهذه الفترة، على الرغم من ان معظم كتب العهد القديم الرئيسية، بما فيها الاسفار الخمسة في العهد القديم كما نعرفها، جرى تأليفها في الواقع، بعد هذا التاريخ).

لقد كانت هذه الممالك اليهودية القديمة، على الصعيد الاجتماعي، مشابهة تماماً لملكتي فلسطين وسوريا المجاورتين. وهذا الشبه ـ الذي يتكشّف لدى القراءة الدقيقة للانبياء ـ يمتد ليشمل الديانات التي مارستها الاكثرية الساحقة من الناس[1]. والافكار التي كان لها ان تصبح افكاراً نموذجية لليهودية اللاحقة ـ بما فيها على وجه الخصوص، التمييز الأثني والحصرية التوحيدية ـ كانت في هذه المرحلة، افكاراً محصورة بدوائر صغيرة من الكهنة والانبياء الذين اعتمد نفوذهم الاجتماعي على الدعم الملكي.

٢ ـ مرحلة ازدواج المراكز، فلسطين وبلاد ما بين النهرين، ابتداء من «العودة

الاولى من بابل» (عام ٥٣٧ ق. م.)، وحتى حوالى العام ٥٠٠م. وقد تميّزت هذه المرحلة بوجود هذين المجتمعين اليهوديين المتمتعين بالحكم الذاتي، والقائمين اساساً على الزراعة، واللذين فرضت عليهما قوة الامبراطورية الفارسية وسلطانها، «الديانة اليهودية»، كما شرحتها سابقاً، الدوائر الكهنوتية ودوائر الكَتَبَة. فسفر عزرا في العهد القديم يشمل سرداً لنشاطات عزرا الكاهن، وهو «كاتب فوري لشريعة موسى»، الذي خوّله ملك فارس، ارتحششتا الاول، صلاحية «تعيين قضاة وقضاة صلح»، على يهود فلسطين، حتى اذا حصل «ولم يأتمر احدهم بقانون الرب آلهكم، وبقانون الملك، يُنفّذ فيه الحكم بسرعة، سواء أكان حكماً بالموت ام بالنفي أم بمصادرة البضائع، ام بالسجن»(٢). ومن خلال سفر نحاميا، ساقي الملك ارتحششتا، الذي عُيّن حاكماً فارسياً ليهودا ويتمتع حتى بسلطات اكبر، يتبّين لنا الى اي حد كان دور الاكراه الاجنبي، (ويقال في يومنا هذا الاكراه «الامبريالي»)، دوراً فعالاً في فرض الديانة اليهودية، وبنتائج دائمة.

لقد استمر الحكم الذاتي اليهودي في هذين المركزين خلال معظم هذه الفترة، وكانت تُقمع اي انحرافات عن الارثوذوكسية الدينية. ولم يكن يحصل شذوذ عن هذه القاعدة الا عندما كانت الارستقراطية الدينية نفسها، «تُصاب بعدوى» الافكار الاغريقية (من عام ٣٠٠ الى ١٦٦ق. م. وايضاً، تحت حكم هيرودوتس الكبير وخلفائه من عام ٥٠ ق. م. الى عام ٧٠ م.)، او عندما كانت هذه الارستقراطية الدينية تنقسم في ردة فعل على تطورات جديدة (مثل الانقسام بين الفريقين الكبيرين، الفريسيين والصدّوقيين، الذي برز في حوالى العام ١٤٠ ق. م.). ولكن في اللحظة التي كان ينتصر فيها اي من الفريقين، كان المنتصر يستخدم الآلية القمعية للحكم الذاتي اليهودي (او الاستقلال، لفترة قصيرة) لفرض وجهات نظره الدينية على اليهود في كلا المركزين .

وخلال معظم هذا الوقت، وخصوصاً بعد انهيار الامبراطورية الفارسية وحتى حوالى العام ٢٠٠ م. كان اليهود القاطنون خارج هذين المركزين، احراراً من الاكراه الديني اليهودي. ويوجد من بين اوراق البُردى المحفوظة في اليفانتين Elephantine

(في مصر العليا)، كتاب يعود تاريخه الى عام ٤١٩ ق. م. يحتوي على نصّ لأمر صادر عن ملك فارس، داريوس الثاني، ويتضمن تعليمات ليهود مصر بالنسبة الى تفاصيل التقيد بفرائض عيد الفصح(٣).

ولكن الممالك الهيللينة والجمهورية الرومانية والامبراطورية الرومانية القديمة، لم تكن تُعير اي اهتمام لهذه الامور. ولقد اتاحت الحرية التي كان يتمتع بها اليهود الهيللينيون خارج فلسطين، ابداع ادب يهودي مكتوب باليونانية، ما لبثت اليهودية ان رفضته بمجمله فيما بعد، وقد حفظت المسيحية بقاياه(٤). كما كان نشوء المسيحية بحد ذاته، ممكناً بسبب هذه الحرية النسبية في المجتمعات اليهودية خارج هذين المركزين. وقد كانت تجربة بولس الرسول ذات مغزى: ففي كورنث، عندما اتهمت الطائفة اليهودية المحلية بولس بالهرطقة، رد غاليو، الحاكم الروماني، القضية على الفور، ورفض ان يكون «حكماً في امور من هذا النوع»،(٥) ولكن الحاكم فستوس، في يهودا، شعر بأنه مُلزم بالاهتمام القانوني بهذا الجدل اليهودي الداخلي الديني الصرف(٦).

ولكن هذا التسامح لاقى نهايته في حوالى العام ٢٠٠م، عندما اقدمت السلطات الرومانية، في هذه الاثناء، على فرض الديانة اليهودية على اليهود كافة في الامبراطورية، وبحسب ما كانت هذه الديانة قد تطورت وشُرحت في فلسطين(٧).

٣ ـ المرحلة التي عرّفناها كمرحلة اليهودية الكلاسيكية، والتي سنبحث فيها ادناه(٨).

٤ ـ المرحلة الحديثة التي تميزت بانهيار المجتمع الاستبدادي اليهودي وسلطته، وبمحاولات اعادة فرضه، والصهيونية هنا، هي اهم هذه المحاولات. فهذه المرحلة تبدأ في هولندا في القرن السابع عشر، وفي فرنسا والنمسا (باستثناء المجر) في اواخر القرن الثامن عشر، وفي معظم البلدان الاوروبية الاخرى، في اواسط القرن التاسع عشر، وفي بعض البلدان الاسلامية في القرن العشرين. (وكان يهود اليمن في عام ١٩٤٨، ما زالوا يعيشون في مرحلة القرون الوسطى «الكلاسيكية»). وسوف نقول شيئاً عن هذه التطورات فيما بعد.

وهناك فجوة تُقاس ببضعة قرون، بين المرحلة الثانية والمرحلة الثالثة، وهي مرحلة اليهودية الكلاسيكية. ومعرفتنا اليوم، باليهود والمجتمع اليهودي خلال هذه الفجوة، معرفة طفيفة جداً، اما المعلومات الشحيحة التي نملكها فهي معلومات مستقاة من مصادر خارجية (غير اليهودية). وحتى اواسط القرن العاشر لا نجد اطلاقاً في بلدان العالم المسيحي اللاتيني، اي سجلات ادبية يهودية، على الاطلاق. ولكن المعلومات عن الاحوال الداخلية لليهود، ومعظمها من الادب الديني، لم تصبح اكثر وفرة، الا في القرن الحادي عشر، وخصوصاً في القرن الثاني عشر. اما قبل ذلك، فقد كنا نعتمد اعتماداً كلياً، على الشهادات الرومانية اولاً، ثم على الشهادات المسيحية. ولم تكن الفجوة في المعلومات بهذا الاتساع في البلدان الاسلامية؛ ومع ذلك، لم نعرف عن المجتمع اليهودي قبل العام ٨٠٠م. وعن التغييرات التي لا بد من ان يكون قد مرّ بها خلال القرون الثلاثة السابقة، الا النزر اليسير.

السمات الرئيسية لليهودية الكلاسيكية

دعونا نتجاهل اذن، لمصلحة غرضنا هنا، «عصور الظلمات»، ونبدأ بالقرنين، بين العام ١٠٠٠ والعام١٢٠٠، اللذين تتوافر فيهما معلومات كثيرة من مصادر داخلية وخارجية على السواء، عن المراكز اليهودية المهمة كافة، في الشرق كما في الغرب. فاليهودية الكلاسيكية، التي يمكن تمييزها بوضوح في هذه الفترة، مرت منذ ذلك الوقت، بتغييرات قليلة جداً، وما زالت قوة لها سلطانها حتى يومنا هذا (تحت قناع اليهودية الارثوذكسية).

فكيف يمكننا ان نصوّر خصائص هذه اليهودية الكلاسيكية، وما هي الفروقات الاجتماعية التي تميزها عن المراحل المبكرة لليهودية؟ في اعتقادي، أنه يوجد ثلاث سمات رئيسية من هذا النوع:

١ ـ لم يكن هناك فلاحون في المجتمع اليهودي الكلاسيكي، وهو في ذلك يختلف اختلافاً عميقاً، عن المجتمعات اليهودية القديمة في مركزي فلسطين وبلاد ما بين النهرين. ومن الصعب علينا في ازمنتنا الحديثة، ان نفهم ماذا يعني ذلك. وعلينا

ان نبذل جهداً لنتخيّل ماهية نظام القنانة آنذاك، والفارق الكبير في معرفة القراءة والكتابة، ناهيك عن الثقافة، بين القرية والمدينة، طوال هذه الفترة، والحرية الاكبر بما لايُقاس، التي كانت تتمتع بها الاقلية الصغيرة بمجملها، والتي لم تكن اقلية فلاحية - حتى ندرك بأن اليهود خلال الفترة الكلاسيكية بكاملها، كانوا يشكلون جزءاً لا يتجزأ من الطبقات صاحبة الامتيازات، على الرغم من كل الاضطهاد الذي كانوا يخضعون له. فالتأريخ اليهودي، ولا سيما التأريخ المدوّن باللغة الانكليزية، تأريخ مضلل حول هذه النقطة نظراً لميله الى التركيز على الفقر اليهودي والتمييز المناهض لليهود. ولقد كان ذلك الفقر وذلك التمييز حقيقيين تماماً في بعض الفترات، الا ان افقر اليهود من حرفيين وباعة متجولين وخدم لملاكي الاراضي، او صغار الكتبة، كانوا افضل حالاً بما لا يقاس، من احوال عبيد الارض. وكان هذا صحيحاً بصفة خاصة، في البلدان الاوروبية حيث استمر نظام القنانة حتى القرن التاسع عشر، ان بشكل جزئي ام بشكل متطرف: اي في بروسيا والنمسا (بما فيها المجر)، وبولندا والاراضي البولندية التي استولت عليها روسيا. وهناك مغزى في حقيقة ان غالبية ساحقة من اليهود كانت، وقبل بداية الهجرة اليهودية الكبيرة في الازمنة الحديثة (حوالى ١٨٨٠)، تعيش في هذه المناطق، وان وظيفتهم الاجتماعية الاهم هناك، كانت همزة الوصل، او الواسطة لقمع الفلاحين باسم النبلاء والتاج.

لقد كانت اليهودية الكلاسيكية في كل مكان، تنمي الكراهية والازدراء للزراعة كمهنة، وللفلاحين كطبقة، بشكل يفوق حتى ما تنمّيه من كراهية وازدراء للاغيار - وهي كراهية لا اعرف ما يضاهيها في المجتمعات الاخرى.

وتظهر هذه الحقيقة فوراً، لأي شخص ملمّ بأدب القرنين التاسع عشر والعشرين، باللغتين، العبرية والييديش[٩].

وان معظم الاشتراكيين اليهود في اوروبا الشرقية (اي اعضاء الاحزاب والجماعات الحزبية المنشقة، اليهودية حصراً، او اليهودية في غالبيتها الساحقة) هم مذنبون بامتناعهم عن الاشارة في اي وقت، الى هذه الحقيقة؛ بل ان الكثير منهم، كانوا، بأنفسهم، موصومين بموقفهم المعادي للفلاحين معاداة شرسة، والموروث

عن اليهودية الكلاسيكية. وكان الاشتراكيون الصهيونيون بالطبع، هم الاسوأ على هذا الصعيد، الا ان غيرهم، مثل يهود البوند، (Bund)، لم يكونوا افضل منهم بكثير. ومن الامثلة النموذجية على ذلك، معارضتهم لتشكيل التعاونيات الفلاحية التي كان يشجعها الكهنة الكاثوليك، بحجة ان هذه التعاونيات كانت «عملاً معادياً للسامية». وهذا الموقف لم يمت بأي شكل من الاشكال حتى في ايامنا هذه؛ ويمكن ان يُشاهد بوضوح في وجهات النظر العنصرية التي يحملها العديد من «المنشقين» في الاتحاد السوفييتي حيال الشعب الروسي، وفي إحجام الكثير من الاشتراكيين اليهود، مثل اسحق دويتشر، عن البحث في هذه الخلفية. فالدعاية العنصرية القائمة على فكرة التفوق للاخلاق والقوة العقلية اليهودية (والتي برز فيها اشتراكيون يهود عديدون)، كانت، بمجملها غارقة في انعدام الاحساس بمعاناة ذلك القسم الاكبر من البشرية الذي خضع، بصفة خاصة، للاضطهاد خلال آلاف السنين الغابرة ـ أي الفلاحين.

٢ ـ لقد كان المجتمع اليهودي الكلاسيكي يعتمد، بصفة خاصة، على الملوك او على النبلاء الذين كانت لهم سلطات ملكية. وسوف نبحث في الفصل التالي القوانين اليهودية المختلفة، الموجهة ضد الاغيار، وخصوصاً تلك القوانين التي تأمر اليهود بشتمهم والامتناع عن امتداحهم او امتداح عاداتهم. وهذه القوانين لا تسمح الا باستثناء واحد، وواحد فقط لا غير: ملك من الاغيار، او قطب محلي قوي، من اقطاب الصناعة او التجارة، (بارتيز بالعبرية، وبورتيز باليديش). فالملك يُمتدح وتُتلى الصلوات من اجله، وهو يُطاع، ليس في معظم الامور المدنية فحسب، بل في بعض الامور الدينية ايضاً. وكما سنرى، فإن الاطباء اليهود، الذين يُمنعون عادة، عن انقاذ حياة الاغيار العاديين ايام السبت، يتلقون الاوامر ببذل اقصى جهدهم لشفاء الاقطاب والحكام؛ وهذا ما يُفسر تفسيراً جزئياً، سبب استخدام الملوك والنبلاء والبابوات والاساقفة في اغلب الاحيان، للأطباء اليهود. وليس الاطباء وحدهم من كان يمكن الاعتماد عليهم لبذل اقصى ما يستطيعونه للملك او البارون، بطريقة لا يستطيع المسيحي تأديتها دائماً، بل جباة الضرائب والرسوم الجمركية اليهود ايضاً، او وكلاء الاقطاعيات اليهود (في اوروبا الشرقية).

فالوضع القانوني للمجتمع اليهودي في فترة اليهودية الكلاسيكية كان يقوم عادة، على «امتياز» ـ وهو ميثاق يمنحه ملك او امير (او احد النبلاء النافذين في بولندا، بعد القرن السادس عشر)، للمجتمع اليهودي، وينعم عليه بحقوق الحكم الذاتي ـ اي تقليد الحاخامات سلطة املاء ارادتهم على اليهود الآخرين. وقد اشتملت مثل هذه الامتيازات على عنصر مهم يعود الى اواخر الامبراطورية الرومانية، ألا وهو انشاء العزب الكهنوتية اليهودية، تماماً مثلما كان لرجال الدين المسيحيين في القرون الوسطى، وهي عُزب معفاة من دفع الضرائب للملك، ومخولة حق فرض الضرائب ولمصلحتها الخاصة، على الاهالي الذين يعيشون تحت سيطرتها ـ اي اليهود. ومن المثير للاهتمام ان نلاحظ بأن هذه الصفقة بين الامبراطورية الرومانية القديمة والحاخامات، تسبق بمائة سنة على الاقل، تاريخ اقدام الامبراطور قسطنطين الكبير وخلفائه، على منح الكهنوت المسيحي الامتيازات المشابهة لها شبهاً كبيراً.

فمنذ العام ٢٠٠ م تقريباً، وحتى اوائل القرن الخامس، كان الوضع القانوني لليهود في الامبراطورية الرومانية كما يلي: كان البطريرك اليهودي، الذي يتبوأ منصبه بالوراثة، (ويقيم في طبريا، في فلسطين)، بطريركاً معترفاً به كصاحب مقام رفيع في التراتبية الرسمية في الامبراطورية، وكالرئيس الاعلى لليهود كافة في الامبراطورية[١٠]. وكان البطريرك، بصفته مسؤولاً رومانياً، السيّد اللامع، الذي ينتمي الى طبقة المسؤولين الكبار، التي كانت تضم القناصل وكبار القادة العسكريين في الامبراطورية، ورؤساء الوزراء المحيطين بالعرش، (المجمع المقدس)، و لا يفوقه مرتبة سوى افراد العائلة الامبراطورية. وفي الواقع، فقد كان البطريرك اللامع (كما كان يُلقّب دائماً في المراسيم الامبراطورية)، اعلى رتبة من الحاكم الاقليمي لفلسطين. وقد اقدم الامبراطور ثيودوسيوس الاول، الاكبر، وهو المسيحي الارثوذكسي التقي، على اعدام حاكم فلسطين بسبب اهانته للبطريرك.

وفي الوقت نفسه، كان جميع الحاخامات ـ الذين يعيّنهم البطريرك ـ يُحرّرون من معظم الضرائب الرومانية الجائرة، ويحصلون على امتيازات رسمية، مثل

الاعفاء من الخدمة في مجالس المدن (كان هذا احد اول الامتيازات التي مُنحت لرجال الدين المسيحيين فيما بعد). وكان البطريرك بالاضافة الى ذلك، مخولاً حق فرض الضرائب على اليهود وتأديبهم بفرض الغرامات والجلْد وغيرها من العقوبات. ولقد استخدم هذه السلطة لقمع الهرطقات اليهودية ولاضطهاد الواعظين اليهود الذين كانوا يتهمونه بفرض الضرائب على فقراء اليهود لمنفعته الشخصية (كما نعرف من التلمود).

ونعرف ايضاً من مصادر يهودية بأن الحاخامات المعفين من الضرائب، كانوا يستخدمون، ضمن نطاق سلطتهم، الحرمان الكنسي وغيره من الوسائل لتعزيز هيمنة البطريرك الدينية. كما نسمع ايضاً، في معظم الاحيان وبصورة غير مباشرة، عن الكراهية والاحتقار الذي كان يكنّه الكثيرون من اليهود الفلاحين وفقراء المدن في فلسطين، للحاخامات، وعن الازدراء ايضاً الذي كان يكنّه الحاخامات للفقراء اليهود، (والذي كان يُعبّر عنه عادة، كازدراء «للجهلة»). ومع ذلك، فقد استمر هذا الترتيب الاستعماري النموذجي، لكونه مدعوماً من جبروت الامبراطورية الرومانية.

لقد كانت هناك ترتيبات مشابهة، ضمن كل بلد، طوال فترة اليهودية الكلاسيكية بكاملها. إلا ان تأثيراتها على المجتمعات اليهودية كانت تتفاوت بحسب حجم كل مجتمع منها. فحيثما كان هناك قلة من اليهود، كانت الفروقات الاجتماعية قليلة عادة، ضمن المجتمع، الذي كان يتألف من اليهود الاغنياء ويهود الطبقة الوسطى، الذين تلقى معظمهم تربية حاخامية ـ تلمودية وافرة. ولكن في البلدان التي كان يكثر فيها عدد اليهود، والتي ظهرت فيها طبقة كبيرة من فقراء اليهود، ظهر الانقسام نفسه الذي وصفناه اعلاه، ونلاحظ بأن الطبقة الحاخامية المتحالفة مع اليهود الاغنياء، كانت تضطهد فقراء اليهود لمصلحتها الخاصة ولمصلحة الدولة ايضاً ـ اي مصلحة العرش والنبلاء.

كان هذا هو الوضع في بولندا ما قبل العام ١٧٩٥، بصفة خاصة. وسنوجز لاحقاً، الظروف الخاصة باليهود البولنديين، ولكنني اود ان اشير هنا، فقط الى

الانقسام العميق الذي تطور هناك ابتداء من القرن الثامن عشر، وطوال القرن التاسع عشر، بين الطبقة العليا اليهودية (الحاخامات والاغنياء) وبين الجماهير اليهودية، نتيجة تشكّل مجتمع يهودي كبير في ذلك البلد. ولطالما كان للمجتمع اليهودي سلطة على افراده، كانت تُقمع تمردات الفقراء، الذين كان عليهم تحمل العبء الاساسي للضرائب، مع بداية نشأتها، بواسطة قوة القهر العارية «للحكم الذاتي» اليهودي، والعقوبات الدينية مجتمعة.

وبسبب كل هذا، كان الحاخامات طوال الفترة الكلاسيكية، (وفي الازمنة الحديثة ايضاً)، اخلص مؤيدي السلطات الحاكمة، ان لم نقل اشد مؤيديها حماسة؛ وكلما كان الحكم اكثر رجعية كلما حاز على دعم حاخامي اكبر.

٣ ـ ان مجتمع اليهودية الكلاسيكية، مجتمع معارض كلية للمجتمع غير اليهودي المحيط به، باستثناء الملك (او النبلاء عندما يتولون تسيير شؤون الدولة). وهذا ما نبيّنه بياناً وافياً في الفصل الخامس.

واذا ما اخذنا نتائج هذه السمات الاجتماعية الثلاث، مجتمعة، فإنها تقطع شوطاً كبيراً في تفسير تاريخ المجتمعات اليهودية الكلاسيكية ان في البلدان المسيحية ام في البلدان الاسلامية.

ومكانة اليهود كانت مكانة مؤاتية، بصفة خاصة، في ظل الانظمة القوية التي احتفظت بطابعها الاقطاعي، والتي لم يكن قد بدأ يتطور فيها بعد، الوعي القومي، حتى على مستوى اولي. بل كانت هذه المكانة مؤاتية حتى اكثر من ذلك، في بلدان مثل بولندا قبل العام ١٧٩٥، او في الممالك الايبيرية، قبل النصف الثاني من القرن الخامس عشر، حيث كان قد توقف تشكيل الملكية الاقطاعية القوية القائمة على اساس قومي، اما توقفاً دائماً او توقفاً مؤقتاً. وفي الواقع، فإن اليهودية الكلاسيكية تزدهر افضل ما تزدهر، في ظل انظمة الحكم القوية المنفصلة عن معظم طبقات المجتمع؛ ففي انظمة كهذه يُنجز اليهود وظيفة من وظائف الطبقة الوسطى ـ ولكن بشكل التبعية الدائمة. ولهذا السبب كانوا يحظون، ليس فقط بمعارضة الفلاحين

(الذين لم تكن معارضتهم ذات اهمية الا في حالات التمرد الشعبي النادرة، التي كانت تنشأ بين الحين والآخر)، بل بالمعارضة الاهم، ألا وهي معارضة الطبقة الوسطى غير اليهودية (التي كانت صاعدة في اوروبا)، ومعارضة رجال الدين من العامة؛ إلا أنهم كانوا محميين من طبقة الكهنوت العليا والنبلاء. ولكن مكانة اليهود كانت تتدهور في البلدان التي كُبح فيها جماح الفوضى الاقطاعية، ودخل نبلاؤها في شراكة مع الملك، (مع قسم من البورجوازية على الاقل)، من اجل حكم الدولة، التي كانت تأخذ شكلاً قومياً او قومياً بدائياً.

وسوف نوضح الآن باختصار، وببضعة امثلة، هذا النسق العام الذي يصحّ على البلدان المسلمة والمسيحية على السواء.

انكلترا وفرنسا وايطاليا

بما ان الفترة الاولى للاقامة اليهودية في انكلترا كانت فترة قصيرة جداً، وتزامنت مع تطور الملكية الاقطاعية القومية الانكليزية، يمكن ان نستخدم هذا البلد كأفضل نموذج توضيحي للنسق المبين اعلاه. فقد جلب وليام الفاتح اليهود الى انكلترا ليكونوا جزءاً من الطبقة النورمانية الحاكمة، الناطقة بالفرنسية، وليكون واجبهم الاول منح القروض لهؤلاء الاشراف، الروحيين والزمنيين، العاجزين، من دونها، عن دفع ما يتوجب عليهم من رسوم اقطاعية (التي كانت رسوماً باهظة في انكلترا بصفة خاصة، وكانت تُجبى في تلك الفترة بصرامة اكثر مما كان يحصل في الملكيات الاوروبية الاخرى). وكان حاميهم الملكي الاكبر آنذاك، الملك هنري الثاني، ولكن صدور البراءة العظمى (Magna Carta) شكّل بداية تدهورهم الذي استمر خلال نزاع البارونات مع هنري الثالث. وكان الحل المؤقت لهذا النزاع، الذي حققه ادوارد الاول، مع تشكيل البرلمان وتحديد الضرائب «العادية» الثابتة، قد ترافق مع طرد اليهود.

وعلى نحو مماثل، فقد ازدهر وضع اليهود في فرنسا ابان تشكيل الامارات الاقطاعية القوية في القرنين، الحادي عشر والثاني عشر، بما فيها الحوز الملكي؛

وكان افضل حماتهم من بين ملوك اسرة كابيتيان، الملك لويس السابع عشر (١١٣٧ ـ ١١٨٠)، على الرغم من تقواه ومسيحيته المخلصة والعميقة. ولقد اعتبر يهود فرنسا انفسهم، في ذلك الوقت، فرساناً (پاراشيم، بالعبرية)، وكان حاخامنا تام، ابرز المراجع اليهودية في فرنسا آنذاك، يحذرهم من قبول اي دعوة من سيد اقطاعي للاستقرار في اقطاعته ما لم يمنحهم امتيازات مماثلة لتلك الامتيازات التي يتمتع بها الفرسان الآخرون

وفي عهد فيليب الثاني أغسطس، مُنشىء التحالف السياسي والعسكري مع التاج، بدأ وضع اليهود يتدهور مع صعود حركة المشاعية المدينية، ثم هوى وضعهم في عهد فيليب الرابع، الوسيم، الذي عقد اجتماع اول مجلس تشريعي لكل فرنسا، ليكسب الدعم ضد البابا. وقد ارتبط الطرد النهائي لليهود من كل فرنسا، ارتباطاً وثيقاً بالارساء المتين لحقوق التاج بفرض الضرائب وللطابع القومي للملكية.

ويمكننا ان نورد امثلة مشابهة من بلدان اوروبية اخرى كان يعيش فيها اليهود خلال تلك الفترة. وإن احتفظنا ببولندا واسبانيا المسيحية من اجل بحث مفصل اكثر، نستطيع ان نلحظ بان التناسق نفسه كان بادياً في ايطاليا، حيث كان شكل السلطة في العديد من المدن التي كانت تشكل دولاً، شكلاً جمهورياً. فقد ازدهر وضع اليهود خصوصاً في الولايات البابوية، وفي المملكتين الاقطاعيتين التوأمين، في صقلية ونابولي، (وحتى طردهم باوامر اسبانيا، في حوالى العام (١٥٠٠م.)، وفي الجيوب الاقطاعية في بيدمونت. اما في المدن المستقلة والتجارية العظيمة، مثل فلورنسا، فقد كان عددهم قليلاً ودورهم الاجتماعي ليس مهماً.

العالم الاسلامي

وينطبق النسق العام نفسه، على المجتمعات اليهودية خلال الفترة الكلاسيكية في البلدان الاسلامية ايضاً، باستثناء حقيقة مهمة وهي ان طرد اليهود لم يكن معروفاً فيها عملياً، لانه كان مناقضاً للشريعة الاسلامية. (اما القانون الكنسي الكاثوليكي من ناحية اخرى، فلم يكن يمنع مثل هذا الطرد، كما لم يكن يأمر به).

ولقد ازدهرت المجتمعات اليهودية في العصر الذهبي اليهودي الشهير، ولكن الذي اسيء تفسيره اجتماعياً، في البلدان الاسلامية، وخصوصاً في ظل الانظمة التي كانت منفصلة عن الاكثرية الساحقة من الشعوب التي تحكمها، والتي كانت سلطتها تستند الى القوة العارية وجيش من المرتزقة. وافضل الامثلة على ذلك، اسبانيا المسلمة، حيث نلاحظ ان العصر الذهبي اليهودي الحقيقي (للشعر العبري وقواعد اللغة والفلسفة الخ)، يبدأ، بالضبط مع سقوط الخلافة الاموية في اسبانيا، بعد موت الحاكم الفعلي، المنصور، في عام ١٠٠٢م. وانشاء ممالك الطوائف المتعددة، التي كانت قائمة كلها، على القوة العارية. اما القائد العام اليهودي الشهير، ورئيس وزراء مملكة غرناطة، صموئيل الرئيس (وهو شموئيل هانجيد، الذي توفي عام ١٠٥٦)، والذي كان ايضاً احد اعظم الشعراء بالعبرية في العصور كافة، فقد قام صعوده اساساً، على حقيقة ان المملكة التي كان يخدمها، كانت طغياناً لقوة عسكرية من البربر، صغيرة نوعاً ما، تمارسه على السكان الناطقين بالعربية. كما نشأ وضع مماثل في ممالك الطوائف العربية الاخرى في اسبانيا. لقد تدهور وضع اليهود نوعاً ما، مع انشاء نظام المرابطين (١٠٨٦ ـ ١٠٩٠)، واصبح مزعزعاً تماماً في ظل نظام الموحّدين الشعبي القوي (بعد العام ١١٤٧)، عندما هاجر اليهود، نتيجة الاضطهاد، الى الممالك الاسبانية المسيحية، حيث كانت قوة الملوك ما تزال قوة ركيكة جداً.

ويمكننا ان نُبدي ملاحظات مماثلة بالنسبة الى الدول الاسلامية في الشرق. فالدولة الاولى التي بلغ فيها المجتمع مركز نفوذ سياسي مهم، كانت الامبراطورية الفاطمية، خصوصاً بعد فتح مصر في عام ٩٦٩، وبالضبط لأنها كانت تقوم على حكم الاقلية الدينية الشيعية الاسماعيلية. ويمكننا ايضاً، ان نلاحظ الظاهرة نفسها في الدول السلجوقية ـ التي كانت قائمة على جيوش من النمط الاقطاعي، وعلى المرتزقة، وعلى قوات العبيد (المماليك) بصورة متزايدة ـ وفي الدول التي خلفتها ايضاً. ولم تكن محاباة صلاح الدين للمجتمعات اليهودية، في مصر اولاً، ثم في اجزاء اخرى من هذه الامبراطورية الموسعة، تقوم على اساس صفاته الشخصية الحقيقية، وعلى تسامحه ومحبته وحكمته السياسية العميقة، بل على اساس

صعوده الى السلطة كقائد ثوري لمرتزقة كانوا قد وصلوا لتوهم، من مصر، ثم كمغتصب لسلطة السلالة الحاكمة التي خدمها هو وابوه وعمه من قبله.

ولكن ربما كان افضل الامثلة الاسلامية، الدولة التي كان وضع اليهود فيها افضل من وضعهم في اي مكان آخر في الشرق، منذ انهيار الامبراطورية الفارسية القديمة ـ الا وهي الامبراطورية العثمانية، وخصوصاً في اوجها في القرن السادس عشر(١١). فقد كان النظام العثماني، وكما هو معروف جيداً، قائماً مبدئياً، على الاستبعاد الكامل تقريباً، للاتراك انفسهم، (كي لا نذكر المسلمين الآخرين بالولادة)، عن مراكز السلطة السياسية وعن اهم الفرق في الجيش اي الفرق الانكشارية؛ فهذان المجالان كانا يُزودان بعبيد السلطان المسيحيين بالولادة، الذين كانوا يُخطفون وهم اطفال، وتجري تربيتهم في مدارس خاصة. وحتى نهاية القرن السادس عشر، لم يكن يستطيع اي تركي وُلد حراً، ان يصبح انكشارياً، او ان يتولى اي منصب حكومي مهم. وكان دور اليهود في مجالهم، في ظل نظام كهذا، مشابهاً تماماً لدور الانكشارية في مجالهم. وهكذا، فقد كان وضع اليهود على افضل حال، في ظل نظام كان على الصعيد السياسي، منفصلاً اقصى الانفصال، عن الشعوب التي كان يحكمها. ولكن وضع اليهود راح يتدهور، مع قبول الاتراك انفسهم (وبعض الشعوب المسلمة الاخرى ايضاً، مثل الالبانيين) في الطبقة الحاكمة للامبراطورية العثمانية. إلا ان هذا التدهور في وضعهم، لم يكن تدهوراً حاداً جداً، بسبب استمرار عَسَف النظام العثماني وطابعه اللاقومي.

وهذه النقطة مهمة جداً في رأيي، لأن وضع اليهود الجيد نسبياً، في ظل الاسلام عموماً، وخصوصاً في ظل انظمة معينة، يستخدمه الكثيرون من صانعي الدعاية الفلسطينيين، وغيرهم من العرب، بطريقة تنمّ عن جهل كبير، وان تكن حسنة النية. فهم يعمّمون، ويقلصون المسائل الجدية، السياسية والتاريخية، الى مجرد شعارات. صحيح ان وضع اليهود في ظل الاسلام، كان، افضل بكثير من وضعهم في ظل المسيحية ـ الا ان السؤال المهم الذي ينبغي طرحه هو: ايّ الانظمة كانت هي الافضل او الاسوأ؟ وقد رأينا الى اين يقودنا تحليل كهذا.

ولكن الامر الثاني، والاهم، هو ان الوضع «الافضل» للمجتمع اليهودي في الدول ما قبل الحديثة، كان يستتبع درجة اكبر من الطغيان الذي يمارسه الحاخامات ضد اليهود الآخرين ضمن هذا المجتمع. ولنُعط مثلاً واحداً على ذلك: لا شك ان شخصية صلاح الدين، اذا اخذنا عصره في الاعتبار، شخصية توحي بالاحترام العميق. ولكنني مع هذا الاحترام، لا استطيع ان انسى بأن الامتيازات الاضافية التي منحها للمجتمع اليهودي في مصر، وتعيينه بن ميمون كرئيس (نجيد) لهم، اطلق على الفور يد الحاخامات لممارسة اضطهاد ديني عنيف ضد «الخطاة» اليهود. وعلى سبيل المثال، فقد كان الزواج محرّماً على «الكهنة» اليهود (الذين يفترض انهم متحدرون من الكهنة القدامى الذين خدموا في الهيكل)، ليس من مومسات[١٢] فحسب، بل من مطلقات. وتحريم الزواج من مطلقات، والذي كان يسبب المصاعب دائماً، انتهك خلال الفوضى التي عمت في ظل آخر الحكام الفاطميين (حوالى ١١٣٠ ـ ١١٨٠)، عندما تزوج «كهنة»، وخلافاً للشرع الديني اليهودي، من مطلقات يهوديات، في محاكم اسلامية (كانت مخوّلة اسمياً، سلطة عقد زواج غير المسلمين). فالتسامح الاكبر تجاه «اليهود» الذي ارساه صلاح الدين لدى صعوده الى السلطة، مكّن بن ميمون من اصدار الاوامر الى المحاكم الحاخامية في مصر، لالقاء القبض على كل اليهود الذين عقدوا مثل هذه الزيجات الممنوعة، وَجَلْدِهم الى ان يوافقوا على طلاق زوجاتهم[١٣]. وعلى نحو مماثل، كانت سلطات المحاكم الحاخامية في الامبراطورية العثمانية، واسعة جداً، وبالتالي، وبيلة الى اقصى الحدود. لذلك، ينبغي الا يُستخدم وضع اليهود في البلدان الاسلامية في الماضي، على الاطلاق، كحجة سياسية في المضامين المعاصرة (او المستقبلية).

اسبانيا المسيحية

لقد تركتُ اسبانيا المسيحية[١٤] (او بالاحرى شبه جزيرة ايبيريا، بما فيها)، وبولندا ما قبل العام ١٧٩٥، تركتهما لآخر البحث، لانهما البلدان اللذان كان فيهما وضع المجتمع اليهودي والتطور الداخلي لليهودية الكلاسيكية، غاية في الاهمية.

فعلى الصعيد السياسي، بلغ وضع اليهود في ممالك اسبانيا المسيحية، اعلى

مستوى بلغه اليهود على الاطلاق، في اي بلد آخر من البلدان قبل القرن التاسع عشر (باستثناء بعض ممالك الطوائف، وفي ظل الحكم الفاطمي). فقد خدم العديد من اليهود، رسمياً، كأمناء خزينة لملوك قشتالة، وكجباة ضرائب عامة واقليمية، وكديبلوماسيين (يمثلون مليكهم في البلاطات الملكية الاجنبية، مسلمة كانت ام مسيحية، حتى خارج اسبانيا نفسها)، وكرجال بلاط ومستشارين للحكام وللنبلاء العظام. ولم يمارس المجتمع اليهودي في اي بلد آخر، باستثناء بولندا، مثل هذه السلطات الشرعية العظيمة على اليهود، او يستخدمها علناً، وعلى نطاق واسع، الى هذا الحد الذي يشمل سلطة انزال عقوبة الاعدام ايضاً. ومنذ القرن الحادي عشر كان شائعاً في قشتالة اضطهاد فرقة القرائين رافضي التلمود (وهم طائفة يهودية مارقة عن الدين) وذلك بجَلْدِهم حتى الموت اذا لم يعلنوا توبتهم. وكان الحاخامات يجدعون انوف النساء اليهوديات اللواتي يجامعن الاغيار، بحجة ان الامرأة «بهذه الطريقة، سوف تفقد جمالها فيصبح عشيقها غير اليهودي كارهاً لها». وكانت تُقطع ايدي اليهود الذين كانوا يجرأون على الاعتداء على قاضٍ حاخامي. اما الزناة فكانوا يُسجنون ولكن من بعد جعلهم يركضون في الحي اليهودي، بين صفين من الرجال الذين كانون ينهالون عليهم ضرباً بالعصي. وكانت تُقطع ألسن الذين يُظن، اثناء الجدالات الدينية، بأنهم مارقون عن الدين.

ولقد كان كل هذا مرتبطاً تاريخياً، بالفوضى الاقطاعية، وبمحاولة بعض «الملوك الاقوياء» الحكم بواسطة القوة المحضة، متجاهلين المؤسسات البرلمانية، الكورتيز، الذي كان موجوداً في ذلك الحين. ولم تكن قوة اليهود السياسية والمالية وحدها، القوة الاكثر أهمية في هذا الصراع، بل قوتهم العسكرية ايضاً (على الاقل في قشتالة، التي كانت اهم الممالك). وسوف يكون مثل واحد هنا كافياً: لقد بلغ سوء الحكم الاقطاعي ونفوذ اليهود السياسي ذروتهما في عهد بيدرو الاول، الذي كان يُلقب ببيدرو «القاسي» وعن حق. وكانت المجتمعات اليهودية في طليطلة، وبورغوس، وغيرهما من المدن الكثيرة، تخدم عملياً، كحاميات له في الحرب الاهلية الطويلة بينه وبين اخيه، غير الشقيق، هنري التراستماري، الذي صار يُدعى بعد انتصاره، هنري الثاني (١٣٦٩ ـ ١٣٧٩)[١٥]. وبيدرو الاول هذا بنفسه، هو الذي

اعطى يهود قشتالة حق انشاء محاكم تفتيش في انحاء البلاد، ضد المنحرفين الدينيين من اليهود - اي قبل ما يزيد على مائة عام من انشاء محاكم التفتيش المقدسة الكاثوليكية الاكثر شهرة.

وكما حصل في البلدان الاوروبية الغربية الاخرى، ان الظهور التدريجي للوعي القومي حول الملكية، الذي بدأ في عهد عائلة تراستمارا، وبلغ ذروته، بعد صعود وهبوط، في عهد الملكين الكاثوليكيين، فرديناند وايزابيلا، قد رافقه اولاً، تدهور في مكانة اليهود، ثم حركات وضغوطات شعبية ضدهم، ادت في النهاية، الى طردهم. وعلى العموم، كان النبلاء وكبار رجال الدين هم الذين يدافعون عن اليهود. فالمعادون لهم كانوا أولئك الرهبانيات الاكثر عامية في الكنيسة، خصوصاً جماعات الكهنة الذين كانوا يعيشون على الصدقة، والذين كانوا على علاقة بحياة الطبقات الدنيا، التي كانت معادية لليهود، وكان الدّ اعداء اليهود، ثوركيمادا والكاردينال زيمينيز، وهما من كبار الاصلاحيين في الكنيسة الاسبانية، قد جعلاها اقل فساداً واكثر اعتماداً على الملكية الى حد كبير، عوضاً من ان تكون حكراً على الارستقراطية الاقتصادية.

بولندا

ان بولندا القديمة، ما قبل العام١٧٩٥ - كانت جمهورية اقطاعية يحكمها ملك بالانتخاب - هي مثل نقيض؛ فهي توضح كيف كانت مكانة اليهود، قبل قدوم الدولة الحديثة، مكانة غاية في الاهمية على الصعيد الاجتماعي، وكيف كان حكمهم الذاتي الاعظم، في ظل نظام متخلف تماماً، والى درجة الانحطاط الكامل.

لقد كانت بولندا القرون الوسطى متأخرة في تطورها، عن بلدان مثل انكلترا وفرنسا لاسباب عديدة؛ فقد تشكلت فيها ملكية على النمط الاقطاعي - ولكن من دون مؤسسات برلمانية - فقط في القرن الرابع عشر، وخصوصاً في عهد كازيمير الاكبر (١٣٣٣ - ١٣٧٠). وفور وفاته، ادت التغييرات في الاسرة الحاكمة، وغيرها من العوامل، الى تطور متسارع في قوة الاقطاب من النبلاء، ثم في قوة صغار

النبلاء ايضاً؛ ومع حلول العام ١٥٧٢، كانت عملية تقليص الملك الى مجرد شخصية صورية، واستبعاد الاقطاعيين من غير النبلاء، عن السلطة السياسية، قد اكتملت عملياً.

وخلال مسار القرنين التاليين، تحوّل انعدام الحكم الى حالة من الفوضى مسلماً بها، والى درجة ان قراراً صادراً عن المحكمة في قضية تمسّ احد النبلاء، كان يؤخذ كمجرد ترخيص قانوني لشن حرب خاصة من اجل فرض حكم المحكمة (لانه لم تكن هناك طريقة اخرى لفرضه)؛ والى درجة ان العداوات المزمنة بين الأسر النبيلة الكبيرة، كانت في القرن الثامن عشر، تشمل جيوشاً خاصة يصل عددها الى عشرات الآلاف، اي ما يفوق عدد القوات التافهة لجيش الجمهورية الرسمي.

وقد رافق هذا المسار انحطاط في مكانة الفلاحين البولنديين (الذين كانوا احراراً في القرون الوسطى الاولى)، والى حدّ سقوطهم في نظام القنانة المطلق، الذي لا يكاد يتميز عن العبودية الكاملة، والذي كان بالتأكيد، النظام الاسوأ في اوروبا. و في البلدان المجاورة، كانت رغبة نبلائها في التمتع بسلطة مماثلة لسلطة النبيل البولندي (polish pan) على فلاحيه، (بما فيها سلطة الحياة والموت بدون اي حق بالاستئناف)، قد لعبت دوراً فعالاً في توسّع بولندا الاقليمي. وكان الوضع في اراضي بولندا «الشرقية» (روسيا البيضاء واوكرانيا) - التي استعمرها الفلاحون المستعبدون الجدد واستوطنوها - من اسوأ الاوضاع على الاطلاق[١٦].

وعلى ما يبدو، فقد كان عدد ضئيل من اليهود (وان من ذوي المراكز المهمة)، يعيشون في بولندا، منذ انشاء الدولة البولندية. وكانت قد بدأت في القرن الثالث عشر هجرة يهودية ذات شأن، الى هذا البلد، ازدادت في عهد كازيمير الاكبر مع تداعي وضع اليهود في اوروبا الغربية، ثم في اوروبا الوسطى. ولم يُعرف الكثير عن اليهود البولنديين في تلك الفترة؛ ولكن مع تداعي الملكية في القرن السادس عشر - خصوصاً في عهد سيغيسماند الاول، العجوز، (١٥٠٦ - ١٥٤٨)، وابنه سيغيسماند الثاني اغسطس (١٥٤٨ - ١٥٧٢) - انطلق اليهود البولنديون الى تبوء

مركز اجتماعي وسياسي بارز، رافقته،كما عهدنا من قبل، درجة كبيرة من الحكم الذاتي.

وكانت هذه هي الفترة التي مُنح فيها يهود بولندا امتيازاتهم الكبرى، والتي بلغت ذروتها في انشاء لجنة الاراضي الاربع الشهيرة، التي كانت عبارة عن جهاز يهودي للحكم الذاتي شديد الفعالية، تشمل سلطته جميع اليهود في تقسيمات بولندا الاربعة. وكانت وظيفة من وظائفه المهمة العديدة، جباية الضرائب كافة من اليهود في انحاء البلاد وحسم جزء من ريعها لاستخدام الجهاز نفسه، وللجاليات اليهودية المحلية، وتسليم الباقي لخزانة الدولة.

فأي دور اجتماعي لعبه يهود بولندا من بداية القرن السادس عشر وحتى العام ١٧٩٥؟

مع تداعي سلطة الملكية سارع النبلاء الى تولي دور الملك فيما يتعلق باليهود ـ وكان لهذا التطور نتائج مأساوية مستديمة لليهود انفسهم، ولعامة الشعب في الجمهورية البولندية. فقد استخدم النبلاء اليهود في انحاء بولندا، كعملاء لهم لتقويض القوة التجارية للمدن الملكية، التي كانت في اي حال، مدناً ضعيفة. فمن بين البلدان في العالم المسيحي الغربي كانت املاك نبلاء بولندا وحدها داخل المدينة الملكية، مُعفاة من قوانين المدينة ومن الانظمة النقابية. وقد اقدم النبلاء في حالات عديدة، على توطين عملائهم اليهود في مثل هذه الاملاك، مثيرين بذلك نزاعاً دائماً. وكان اليهود «منتصرين» عادة، بمعنى ان المدن لم تكن تستطيع لا اخضاعهم ولا طردهم؛ ومع ذلك، كانت تقع خسائر يهودية في الارواح (وحتى اكثر منها في الممتلكات اليهودية)، خلال اعمال الشغب الشعبية التي كانت تقع تكراراً. إلا ان النبلاء ظلوا يحصلون على ارباحهم. ولقد ترتبت نتائج مماثلة، او نتائج اسوأ، من جراء استخدام النبلاء لليهود، وبشكل مستمر، كعملاء تجاريين لهم: فقد احرزوا اعفاءات من معظم الرسوم والمكوس شكّلت خسارة للبورجوازية الوطنية.

ولكن النتائج الاكثر مأساوية والتي دامت وقتاً طويلاً، كانت تلك التي حصلت في اقاليم بولندا الشرقية ـ وهي المنطقة التي تقع شرقي الحدود الحالية تقريباً، بما

فيها كامل اوكرانيا الحالية، وصولاً الى حدود المناطق الناطقة باللغة الروسية ـ العظيمة.

(فحتى عام ١٦٦٧، كانت الحدود البولندية تجاوز نهر الدنيبر شرقاً، بحيث كانت بولتافا مثلاً، تقع ضمن بولندا). ولم تكن في هذه الاراضي الواسعة اي مدن ملكية تقريباً. فقد كان النبلاء هم الذين انشأوا هذه المدن، وكانت تعود لهم، ولكن اقتصر استيطانها على اليهود تقريباً. وحتى العام ١٩٣٩، كان اليهود يشكلون ٩٠ بالمائة على الاقل، من سكان العديد من المدن البولندية الواقعة شرقي نهر باغ، وكانت هذه الظاهرة الديمغرافية اكثر بروزاً، في تلك المنطقة من بولندا التي ضمتها روسيا القيصرية، وتُعرف باسم «الحد الفاصل» اليهودي. وخارج نطاق هذه المدن، كان الكثير من اليهود في انحاء بولندا، ولكن خصوصاً في الشرق، يُستخدمون كمضطهدين لطبقة الفلاحين المستعبدين وكمشرفين مباشرين عليهم ـ كوكلاء لعزب بكاملها (مخوّلين سلطات ملاّكي الاراضي القمعية كاملة)، او كمستأجرين لبعض الاحتكارات الاقطاعية مثل مطاحن القمح والافران، ومعامل تقطير الخمور والحانات (مع حق التفتيش بقوة السلاح، في بيوت الفلاحين بحثاً عن معامل تقطير غير مرخصة)، وكجباة لمختلف انواع الرسوم الاقطاعية المعهودة. باختصار، كان اليهود في بولندا الشرقية، خاضعين لحكم النبلاء (والكنيسة التي باتت اقطاعية، ومُشكّلة حصراً، من النبلاء) المستغلّين المباشرين لطبقة الفلاحين، وسكان المدن الوحيدين عملياً.

ولا ريب في ان معظم الارباح التي كانوا ينتزعونها من الفلاحين كانت تذهب الى ملاكي الاراضي بطريقة او بأخرى.

ولا ريب ايضاً، في ان اضطهاد النبلاء لليهود وقهرهم، كان اضطهاداً قاسياً، وتروي السجلات التاريخية روايات كثيرة ومؤلمة، عن المعاناة والاذلال الذي كان يلحقه النبلاء بـ«يهودهم». ولكن، كما لحظنا من قبل، فقد كان الاضطهاد الذي عانى منه الفلاحون على ايدي الملاكين واليهود اضطهاداً يفوقه سوءاً. ويُمكن للمرء ان يفترض بان وطأة الشرائع الدينية اليهودية ضد الاغيار كانت تقع بكامل ثقلها على

كاهل الفلاحين باستثناء ازمنة الانتفاضات الفلاحية. وكما سنرى في الفصل التالي، فإن هذه الشرائع كانت تُعلّق او تُلطّف، في الحالات التي كان يُخشى فيها احتمال إثارة العداء الخطير تجاه اليهود. ولكن كان تجاهل عداء الفلاحين كعداء غير مؤثر، امراً ممكناً، ما دام الوكيل اليهودي يستطيع الاحتماء في «سلام» سيّد من الاسياد الكبار.

ولقد بقي الوضع راكداً حتى حلول الدولة الحديثة، وكانت قد تقطّعت اوصال بولندا في حينها. ولذلك، كانت بولندا البلد الكبير الوحيد في العالم المسيحي الغربي الذي لم يُطرد منه اليهود على الاطلاق. ولم يكن ممكناً نشوء طبقة متوسطة جديدة من طبقة فلاحين مُستعبدين استعباداً كلياً؛ وقد كانت البورجوازية القديمة محصورة جغرافياً، وضعيفة تجارياً، وبالتالي، لا قوة لها. وبالاجمال، راحت الامور تتدهور باطراد، من سيء الى اسوأ، ولكن من دون اي تغيير حقيقي.

وسارت الاوضاع الداخلية ضمن المجتمع اليهودي في مسار مماثل. ففي الفترة ما بين ١٥٠٠ ـ ١٧٩٥، وهي احدى اكثر الفترات التي استبدت بها الخرافات في تاريخ اليهودية، كان اليهود البولنديون اكثر الجاليات اليهودية تعصّباً وتعلقاً بهذه الخرافات، على الاطلاق. ولقد استُخدمت السلطة الواسعة للحكم الذاتي اليهودي، استخداماً متزايداً، لكبت الافكار الخلاقة او المبدعة، وتعزيز اشد اشكال الاستغلال المخزي للفقراء اليهود من قبل الاغنياء اليهود بالتحالف مع الحاخامات، وتبرير دور اليهود في اضطهاد الفلاحين لخدمة النبلاء. وهنا ايضاً، لم يكن من مفر الا بالتحرير من الخارج. ان بولندا ما قبل العام ١٧٩٥، حيث كان الدور الاجتماعي لليهود اهم من اي دور اجتماعي آخر ليهود الشتات الكلاسيكي، توضح اكثر من اي بلد آخر، افلاس اليهودية الكلاسيكية.

اضطهادات اليهود

غالباً ما كان اليهود،طوال فترة اليهودية الكلاسيكية، يخضعون للاضطهاد(١٧) ـ وهذه الحقيقة تخدم الآن كـ «الحجة» الرئيسية للمدافعين عن الديانة اليهودية

بشرائعها المعادية للاغيار، وعن الصهيونية بصفة خاصة. وبالطبع، يفترض ان تكون الابادة النازية لنحو خمسة ملايين او ستة ملايين يهودي اوروبي، الحجة التي تتوج حجج هذا الخط من التفكير. لذلك علينا ان ننظر في هذه الظاهرة وفي سمتها المعاصرة. ولهذا الامر اهمية خاصة في ضوء حقيقة ان المتحدرين من يهود بولندا ما قبل العام ١٧٩٥، (وغالباً ما يُطلق عليهم اسم «اليهود الاوروبيين الشرقيين» ـ كنقيض ليهود المجال الثقافي الالماني في اوائل القرن التاسع عشر، بما فيه النمسا وبوهيميا ومورافيا)، هم اليهود الذين يمارسون السلطة السياسية الغالبة في اسرائيل، وفي وسط الجاليات اليهودية ايضاً، في الولايات المتحدة وغيرها من البلدان الناطقة بالانكليزية. وهذا النمط من التفكير المترسّخ في وسطهم بصفة خاصة، اكثر بكثير مما هو مترسّخ في وسط غيرهم من اليهود، يعود الى تاريخهم الماضي الخاص.

وعلينا اولاً، ان نميز تمييزاً واضحاً، بين اضطهاد اليهود خلال الفترة الكلاسيكية من جهة، وبين الابادة النازية من جهة اخرى. فاضطهاد اليهود خلال الفترة الكلاسيكية كان اضطهاد الحركات الشعبية لهم، اي كان اضطهاداً آتياً من اسفل؛ بينما الابادة النازية كانت امراً مُوحى به ومنظم ومُنّفذ من اعلى: من مسؤولي الدولة.

وان اعمالاً مثل الابادة النازية، التي هي من تنظيم الدولة، كانت اعمالاً نادرة نسبياً في تاريخ البشرية على الرغم من وجود حالات اخرى (مثل ابادة التاسمانيين وغيرهم من الشعوب التي كانت مُستعمرة). علاوة على ذلك، كانت النازية تعتزم ابادة شعوب اخرى ايضاً، غير اليهود: فلقد أبيد الغجر مثلما أبيد اليهود، وكانت ابادة السلافيين جارية، بواسطة المذابح المنسّقة لملايين المدنيين واسرى الحرب. لذا، فإن اضطهاد اليهود الذي كان شائعاً في العديد من البلدان خلال الفترة الكلاسيكية، اعطى النموذج (والعذر) للسياسيين الصهيونيين في اضطهادهم للفلسطينيين، والحجة ايضاً، التي يستخدمها المدافعون عن اليهودية عموماً؛ واننا الآن، بصدد النظر في هذه الظاهرة.

وينبغي ان نشير الى انه في اسوأ اعمال الاضطهاد المعادية لليهود، اي تلك التي قُتل فيها يهود، وفيها كلها، كانت النخبة الحاكمة - اي الامبراطور والبابا والملوك والارستقراطية العليا، وكبار الكهنة، والبورجوازية الغنية ايضاً في المدن التي تتمتع بالحكم الذاتي - كانت دائماً الى جانب اليهود.

فقد كان اعداء اليهود ينتمون الى الطبقات المضطهدة والمُستغلة اكثر من غيرها، وهؤلاء القريبون منهم في حياتهم اليومية ومصالحهم، مثل الرهبان الذين ينتمون الى الرهبنة التي تعيش على الصدقة(١٨). صحيح انه في معظم الحالات (وليس كلها، حسبما اعتقد) كان افراد النخبة الحاكمة يدافعون عن اليهود ليس لاعتبارات انسانية، او بسبب تعاطفهم مع اليهود بوصفهم يهوداً، بل لتلك الاسباب التي يستخدمها الحكام عادة، لتبرير مصالحهم، وهي حقيقة ان اليهود كانوا مفيدين ومصدراً للربح (لهم)، ودفاعاً عن «القانون والنظام»، وكراهية الطبقات الدنيا، والتخوّف من امكانية تطور اعمال الشغب المناهضة لليهود، الى ثورة شعبية عامة. ومع ذلك، تبقى حقيقة انهم دافعوا فعلاً عن اليهود. ولهذا السبب، كانت المجازر كافة ضد اليهود خلال الفترة الكلاسيكية، جزءاً من ثورة فلاحية او حركات شعبية اخرى، في اوقات كان الحكم فيها ضعيفاً بصفة خاصة، لسبب من الاسباب. ويصحّ هذا القول حتى في حالة روسيا القيصرية الاستثنائية الى حد ما. فالحكم القيصري كان يشجع المذابح خفية، بواسطة شرطته السرية؛ ولكنه كان يفعل ذلك فقط عندما يكون ضعيفاً بصفة خاصة (بعد اغتيال الكسندر الثاني عام ١٨٨١، وفي الفترة التي سبقت مباشرة ثورة العام ١٩٠٥، التي تلتها مباشرة ايضاً)، وحتى عند ذلك، كان يحرص على احتواء انهيار «القانون والنظام». وعلى سبيل المثال، فخلال فترات قوته الكبرى - في عهد نيكولاس الاول، او في القسم الاخير من عهد الكسندر الثالث، عندما كانت المعارضة قد سُحقت - لم يكن النظام القيصري يتسامح ازاء المجازر، على الرغم من ان التمييز القانوني ضد اليهود كان قد ازداد حدّة.

وبالامكان ملاحظة القاعدة العامة في المجازر الرئيسية كافة ضد اليهود في اوروبا المسيحية. فخلال الحملة الصليبية الاولى، لم تكن جيوش الفرسان النظامية،

بقيادة دوق او كونت شهير، هي التي تتعرض بالسوء لليهود، بل الحشود الشعبية هي التي كانت تتجمع بعفوية، وتتألف حصراً تقريباً، من الفلاحين والمعدمين السائرين على خطى الكاهن بطرس الناسك. ففي كل مدينة كان الاسقف، او ممثل الامبراطور، يبديان معارضتهما لهم، ويحاولان حماية اليهود[١٩]، وغالباً من دون جدوى ـ وكانت اعمال الشغب ضد اليهود في انكلترا التي رافقت الحملة الصليبية الثالثة، جزءاً من حركة شعبية موجهة ايضاً ضد المسؤولين الملكيين، وقد عاقب ريتشارد الاول بعض المشاركين في اعمال الشغب. اما المجازر ضد اليهود خلال تفشي الموت الاسود فقد ارتُكبت خلافاً للاوامر الصارمة، الصادرة عن البابا والامبراطور والاساقفة والامراء الالمان. وكان يسبقها عادة، في المدن الحرة، مثل ستراسبورغ، الثورات المحلية التي كانت تطيح بالمجالس البلدية الاوليغارشية، التي كانت تحمي اليهود، وتبدلها بمجالس اكثر شعبية. وقد وقعت المجازر الكبرى ضد اليهود، في اسبانيا، عام ١٣٩١، في ظل حكم وصاية ضعيف، وفي وقت كانت فيه البابوية وقد اضعفها الشقاق بين البابوات المتنافسين، عاجزة عن السيطرة على جماعة الرهبان الفقراء الذين يعيشون على الصدقة.

وربما كان المثل الابرز، تلك المجزرة الكبيرة ضد اليهود التي ارتُكبت خلال تمرّد شميلنيسكي في اوكرانيا (عام ١٦٤٨)، الذي بدأ كتمرد لضباط القازاق، ولكنه سرعان ما تحول الى حركة شعبية واسعة للفلاحين المستعبدين: المحرومين، الرعايا، الاوكرانيين، الارثوذوكس [الذين كانت تضطهدهم الكنيسة الكاثوليكية البولندية] والذين كانوا يثورون ضد اسيادهم البولنديين الكاثوليك، وخصوصاً ضد اسيادهم وكلاء الاقطاع ورجال الدين واليهود[٢٠]. وهذه الانتفاضة الفلاحية ضد الاضطهاد المتطرف، وهي انتفاضة لم ترافقها المجازر، التي ارتكبها الثوار فحسب، بل حتى الفظائع «والارهاب المضاد» الاشد هولاً الذي ارتكبته جيوش الاقطاب البولنديين الخاصة[٢١]، بقيت انتفاضة محفورة في وعي اليهود الاوروبيين الشرقيين الى يومنا هذا، ولكن ليس كانتفاضة فلاحية، كثورة المضطَهدين، معذبي الارض الحقيقيين، ولا حتى كانتقام ينزل على النبلاء البولنديين كافة، بل كعمل معاد

للسامية لا مبرر له، موجه ضد اليهود كيهود. وفي الواقع، غالباً ما «تفسّر» الصحافة الاسرائيلية تصويت البعثة الاوكرانية في الامم المتحدة، والسياسات السوفييتية حول الشرق الاوسط، بصورة عامة اكثر، كـ «تراث شميلنيسكي» او «المتحدرين» منه.

معاداة السامية الحديثة

مرّ طابع الاضطهادات المعادية لليهود بتغيير جذري في الازمنة الحديثة. فمع قدوم الدولة الحديثة، والغاء نظام القنانة، واحراز حقوق الفرد في حدها الادنى، تختفي بالضرورة، وظيفة اليهود الخاصة، الاجتماعية ـ الاقتصادية. وتختفي معها أيضاً، سلطات المجتمع اليهودي على افراده، وتكتسب اعداد متزايدة من الافراد اليهود حرية الدخول الى المجتمع العام في بلدانها. وكان من الطبيعي ان يثير هذا الانتقال من حال الى اخرى، ردة فعل عنيفة من جانب اليهود (خصوصاً حاخاماتهم)، ومن جانب تلك العناصر في المجتمع الاوروبي التي تعارض المجتمع المفتوح، والتي كان مسار تحرير الفرد باكمله، مساراً بغيضاً بالنسبة لها.

وتظهر معاداة السامية الحديثة اول ما تظهر، في فرنسا والمانيا، ثم في روسيا، بعد عام ١٨٧٠. وخلافاً للرأي السائد في وسط الاشتراكيين اليهود، لا اعتقد بأن بدايتها، او تطورها فيما بعد، وحتى يومنا الحاضر، يمكن ان يُعزى «للرأسمالية». بل على العكس من ذلك، فان الرأسماليين الناجحين في كل البلدان، كانوا، برأيي، على العموم، متحررين من معاداة السامية تحرراً ملحوظاً، وان البلدان التي انشئت فيها الرأسمالية اول ما انشئت، وبشكلها الاوسع ـ مثل انكلترا وبلجيكا ـ هي ايضاً البلدان التي كانت فيها معاداة السامية اقل انتشاراً مما كانت عليه في اي مكان آخر(٢٢).

لقد كانت معاداة السامية الحديثة المبكرة (١٨٨٠ ـ ١٩٠٠)، ردة فعل اناس مرتبكين، يكنون كراهية عميقة للمجتمع الحديث بنواحيه كافة، الحسنة والسيئة، ويؤمنون ايماناً متحمساً، بالنظرية التآمرية للتاريخ. وقد اسند لليهود دور كبش

الفداء في انهيار المجتمع القديم (الذي كان الحنين المعادي للسامية يتخيله مجتمعاً مغلقاً ومنظّماً، اكثر مما كان في الحقيقة، في اي وقت من الاوقات) وكبش الفداء في كل ما كان مقلقاً في الازمنة الحديثة. ولكن المعادين للسامية واجهوا منذ البداية، ما كان مشكلة صعبة بالنسبة اليهم: كيف يعرفون كبش الفداء هذا، خصوصاً بالمصطلحات الشعبية؟ ما هو الذي يفترض ان يكون قاسماً مشتركاً بين الموسيقي اليهودي والمصرفي اليهودي والحرفي اليهودي والمتسول اليهودي - خصوصاً بعد ان ذابت الى حد كبير السمات الدينية المشتركة، على الاقل في المظهر الخارجي؟ فكانت «نظرية» العرق اليهودي الرد الحديث لمعاداة السامية، على هذه المشكلة.

وفي المقابل، كانت المعارضة المسيحية القديمة، بل اكثر منها المعارضة الاسلامية، لليهودية الكلاسيكية، متحررة تحرراً ملحوظاً من العنصرية. ولا ريب ان هذا الامر كان الى حد ما، نتيجة من نتائج الطابع العالمي للمسيحية والاسلام، ولصلتهما الاصلية ايضاً، باليهودية (ولقد عنّف القديس توماس مور تكراراً، امرأة كانت تعترض عندما يقول لها بان السيدة مريم العذراء كانت يهودية). والسبب الاهم، بما لا يُقاس في رأيي، كان الدور الاجتماعي لليهود كجزء لا يتجزأ من الطبقات العليا. فقد عومل اليهود في العديد من البلدان كنبلاء محتملين، وكانوا ما ان يتحولون عن ديانتهم، ويعتنقون الديانة المسيحية، حتى يصبح بامكانهم التزاوج على الفور، مع ارفع النبلاء. اما نبلاء قشتالة واراغون القرن الخامس عشر، او ارستقراطيو بولندا القرن الثامن عشر - حتى نأخذ حالتين كان فيهما التزاوج مع اليهود المتحولين عن دينهم واسع الانتشار - فكان زواجهم من فلاحين اسبان، او من فلاحي القنانة في بولندا لا يكاد يحتمل، ومهما بلغ المديح الذي يغدقه الانجيل على الفقراء.

ان اسطورة «العرق» اليهودي الحديثة - الطباع المخفية ظاهرياً، ولكن التي يفترض انها الطباع الغالبة «لليهود»، بمعزل عن التاريخ، والدور الاجتماعي، واي شيء آخر - هي العلامة المميزة الرسمية والاهم، لمعاداة السامية الحديثة. وهذا ما ادركه في الواقع، بعض قادة الكنيسة عندما ظهرت معاداة السامية الحديثة للمرة

الاولى، كحركة تتمتع ببعض القوة. فقد عارض بعض القادة الكاثوليك الفرنسيين، على سبيل المثال، العقيدة العنصرية الجديدة التي قدمها أ. درامونت، وهو اول معاد فرنسي شعبي حديث للسامية، ومؤلف الكتاب الشهير "la France Juive" (الصادر في عام ١٨٨٦)، الذي احرز انتشاراً واسعاً[٢٣]. وقد واجه معادو السامية الالمان الحديثون الاوائل، معارضة مماثلة.

وينبغي ان نشير الى حقيقة ان بعض الجماعات المهمة من المحافظين الاوروبيين، كانوا مستعدين تماماً، على مجاراة معاداة السامية الحديثة واستخدامها لاغراضهم الخاصة، وكان مناهضو السامية مستعدين بالقدر نفسه، لاستغلال المحافظين عندما تسنح الفرصة بذلك، على الرغم من ان أوجه الشبه بين الفريقين كانت ضئيلة.

«ولكن الضحايا الذين عوملوا معاملة قاسية جداً [بواسطة قلم درامونت المذكور اعلاه] لم يكونوا آل روتشيلد بل النبلاء الكبار الذين كانوا يتوددون اليهم. ولم يوفر درامونت العائلة المالكة... ولا الاساقفة، ولا حتى البابا نفسه»[٢٤]. ومع ذلك، فقد كان العديد من النبلاء الفرنسيين الكبار والاساقفة والمحافظين على العموم، سعداء تماماً باستخدام معاداة درامونت للسامية خلال الازمة الناجمة عن قضية درايفوس، في محاولة لاسقاط النظام الجمهوري.

وقد عاود هذا النوع من التحالف الانتهازي، الظهور تكراراً، في بلدان اوروبية مختلفة، وحتى هزيمة النازية. فكراهية المحافظين للراديكالية، واشكال الاشتراكية كافة، اعمت بصيرة الكثيرين منهم عن الطبيعة السياسية لمن يعاشرونهم. فقد كانوا في حالات عديدة، مستعدين استعداداً حرفياً، للتحالف مع الشيطان، متناسين المثل القائل بان المرء يحتاج الى ملعقة طويلة لتناول العشاء معه.

ولقد اعتمد تأثير معاداة السامية، وتأثير تحالفها مع الاتجاه المحافظ، على بضعة عوامل:

العامل الاول، ان التقليد الاقدم للمعارضة الدينية المسيحية لليهود، والذي كان

موجوداً في بلدان اوروبية عديدة، (وان ليس في كلها بأي شكل من الاشكال)، كان يمكنه ان يرتبط بعجلة معاداة السامية لو كان مدعوماً، او على الاقل، لو لم يكن يواجه معارضة من رجال الدين. وكانت ردة فعل رجال الدين في كل بلد من البلدان تحددها، الى حد بعيد، ظروف اجتماعية وتاريخية محلية معينة. ففي الكنيسة الكاثوليكية كان الميل الى التحالف الانتهازي مع معاداة السامية قوياً في فرنسا، ولكنه لم يكن قوياً في ايطاليا؛ وكان قوياً في بولندا وسلوفاكيا، ولكنه لم يكن قوياً في بوهيميا. وكانت للكنيسة الارثوذكسية ميول معادية للسامية ذائعة الصيت في رومانيا، ولكنها اخذت الخط المعاكس في بلغاريا. اما في وسط الكنائس البروتستانتية فقد كانت الكنيسة الالمانية منقسمة على نفسها انقساماً عميقاً، حول هذا الموضوع، وكانت غيرها من الكنائس (مثل الكنيسة في لاتفيا واستونيا) تميل نحو معاداة السامية، ولكن كنائس عديدة اخرى (مثل الكنائس الهولندية والسويسرية والاسكندنافية) كانت من اوائل الكنائس التي دانت معاداة السامية.

والعامل الثاني، ان معاداة السامية كانت، والى حد كبير، تعبيراً عمومياً لكراهية الغرباء، ورغبة في مجتمع متجانس «صاف». ولكن اليهودي كان في بلدان اوروبية عديدة، في حوالى العام ١٩٠٠ (حتى مؤخراً، في الواقع)، «الغريب» الوحيد عملياً. وكان هذا صحيحاً في المانيا بصفة خاصة. فالعنصريون الالمان في اوائل القرن العشرين، كانوا مبدئياً، يكرهون السود ويحتقرونهم، بقدر ما كانوا يكرهون اليهود ويحتقرونهم؛ ولكن لم يكن هناك اناس سود في المانيا آنذاك. ومن الاسهل للكراهية بالطبع، ان تركّز على ما هو موجود وليس على ما هو غائب، خصوصاً في الاوضاع التي كانت سائدة في ذلك الوقت، وعندما لم يكن هناك سفريات وسياحة جماعية، وعندما كان معظم الاوروبيين لا يغادرون بلدانهم في زمن السلم.

اما العامل الثالث، فهو ان النجاحات التي حققها التحالف المبدئي، بين الاتجاه المحافظ ومعاداة السامية كانت تتناسب تناسباً عكسياً مع قوة معارضي هذا التحالف وقدراتهم. وكان المعارضون المنسجمون والفعالون لمعاداة السامية في اوروبا، القوى السياسية، الليبرالية والاشتراكية ـ وهم تاريخياً، القوى نفسها التي

تواصل بطرق مختلفة، التقليد الذي رمزت اليه حرب الاستقلال الهولندية (١٥٦٨ ـ ١٦٤٨)، والثورة الانكليزية والثورة الفرنسية العظيمة.

وكانت العلامة الفارقة الرئيسية، في القارة الاوروبية، الموقف من الثورة الفرنسية العظيمة ـ فقد كان المؤيديون لها، ضد معاداة السامية تقريباً؛ وكان الذين يقبلون بها، بأسف، يميلون على الاقل، الى التحالف مع المعادين للسامية، اما هؤلاء الذين كانوا يكرهون هذه الثورة، ويودون لو يستطيعون إلغاء ما احرزته، فكانوا يشكّلون المحيط الذي تنمو منه معاداة السامية.

وينبغي مع ذلك، التمييز تمييزاً واضح المعالم، بين المحافظين، وحتى الرجعيين، من جهة، وبين العنصريين والمعادين للسامية، من جهة اخرى. فعلى الرغم من ان العنصرية الحديثة (ومعاداة السامية جزء منها) تسببها اوضاع اجتماعية محددة، الا انها عندما تكتسب القوة، تصبح قوة لا يمكن، برأيي، الا ان نصفها كقوة شيطانية. فهي، على ما اعتقد، بعد توليها السلطة، وطوال فترة وجودها في السلطة، تستعصي على التحليل وفق اي نظرية اجتماعية مفهومة حالياً، او وفق اي مجموعة من مجرد ملاحظات اجتماعية ـ وخصوصاً وفق اي نظرية تتوسل المصالح، طبقية كانت او رسمية، خاصة بالدولة، او اي مصالح اخرى، غير «المصالح» النفسانية الصرفة، الخاصة بأي كيان، والتي يمكن تعريفها في الوضع الحالي للمعرفة البشرية. ولكنني لا اعني بذلك، بأن قوى كهذه لا يمكن معرفتها مبدئياً؛ بل على العكس من ذلك، على المرء ان يأمل بانها ستصبح قابلة للفهم مع نمو المعرفة الانسانية. ولكن هذه القوى غير مفهومة في الوقت الحاضر، ولا يمكن التكهن بها بطريقة عقلانية ـ وهذا ما ينطبق على العنصرية كلها وفي المجتمعات كافة[٢٥]. وفي الواقع، لم يحصل ان تنبأت اي شخصية سياسية، او اي مجموعة من اي لون سياسي كانت، وفي اي بلد كان، ولو تنبؤاً غامضاً، باهوال النازية، ولم يستطع الا بعض الفنانين والشعراء، من امثال هاين، ان يلمحوا بعض ما كان يخبئه المستقبل. ولا نعرف كيف استطاعوا ذلك؛ وخصوصاً ان الكثير من احاسيسهم الداخلية الاخرى لم تكن صائبة.

الحواشي

١ ـ انظر على سبيل المثال، يرمياهو، ٤٤، وخصوصاً الآيات ١٥ ـ ١٩. وانظر المعالجة المتازة لبعض نواحي هذا الموضوع في مؤلف Raphael Patati,"The Hebrew Goddess", Ktav, U S A,1967.

٢ ـ النبي عزرا، ٧: ٢٥ ـ ٢٦. يهتم الفصلان الاخيران من هذا الكتاب، اهتماماً رئيسياً بجهود عزرا لفصل اليهود «الاتقياء» (البذرة المقدسة) عن «شعب الارض» (الذين كانوا نفسهم، من اصل يهودي، جزئياً على الاقل) ولفسخ عقود الزواج المختلط.

٣ ـ W. F. Abright, "Recent Discoveries in Bible Lands", Funk and Wagnall, New York, 1955,p. 103.

٤ ـ هناك مغزى في حقيقة ان الكتب التاريخية كافة التي وضعها يهود بعد العام ٤٠٠ق.م. بالاضافة الى المجموعة الادبية، قد رُفضت ايضاً. ولقد كان اليهود حتى القرن التاسع عشر، يجهلون تماماً، قصة المسادا وشخصيات مثل يهوذا المكابي، التي يعتبرها العديد (وخصوصاً المسيحيون) شخصيات تنتمي الى «جوهر» اليهودية بالذات.

٥ ـ سفر الاعمال، ١٨: ١٥.

٦ ـ المصدر نفسه، ٢٥.

٧ ـ انظر الحاشية رقم ٦ في الفصل الثاني.

٨ ـ انظر بخصوص مصطلح «اليهودية الكلاسيكية»، الحاشية رقم ١٠ في الفصل الثاني، والحاشية رقم ١ في الفصل الثالث.

٩ ـ يشكل عجنون وباشيفس سينغر، الحائزان على جائزة نوبل، امثلة على ذلك، ولكن يمكن

اعطاء امثلة عديدة اخرى، خصوصاً مثال بياليك، الشاعر القومي العبري. فهو في قصيدته الشهيرة «والدي»، يصف أباه القديسي وهو يبيع الفودكا للسكارى من الفلاحين الذين يصورهم كحيوانات. وهذه القصيدة التي تحظى بشعبية كبيرة، والتي تُدرّس في المدارس الاسرائيلية، كافة، هي احدى الادوات التي يجري بواسطتها، خلق الموقف المعادي للفلاحين.

١٠ ـ بالنسبة الى السلطة المركزية للبطريركية اليهودية، انهى ثيودوسيوس الثاني الصفقة بسلسلة من القوانين، بلغت ذروتها في العام ٤٢٩م؛ ولكن ترتيبات محلية عديدة بقيت سارية المفعول.

١١ ـ ربما كان المثال المميّز الآخر الامبراطورية القوهستانية (حتى العام ٢٢٥م) ولكن لا يعرف عنها الكفاية. الا اننا نعرف بان انشاء الامبراطورية الساسانية القومية الايرانية، ادت الى انهيار فوري للمكانة اليهودية.

١٢ ـ الحظر يمتد ليشمل ايضاً الزواج من امرأة تحوّلت الى الديانة اليهودية، لان الهالاخاه تفترض بان النساء الاغيار كن مومسات.

١٣ ـ الزواج المحظور ليس باطلاً عادة، ويتطلب الطلاق. والطلاق هو شكلياً، عمل طوعي من جانب الزوج، ولكن في بعض الظروف، تستطيع محكمة حاخامية ان تجبره على «ارادة» الطلاق (تدفعه بالقوة حتى يقول «انني اريد»).

١٤ ـ على الرغم من ان الانجازات اليهودية خلال العصر الذهبي في اسبانيا المسلمة (١٠٠٢ ـ ١١٤٧) كانت باهرة اكثر، الا انها لم تدم. وعلى سبيل المثال، فان الشعر العبري الرائع في ذلك العصر شعر نسيه اليهود فيما بعد، ولم يستعيدوه الا في القرنين التاسع عشر والعشرين.

١٥ ـ استخدم هنري تراستمارا خلال تلك الحرب، الدعاية المناهضة لليهود على الرغم من ان والدته ليونوردي غوزمان، وهي سيدة نبيلة من مقام رفيع، من قشتالة، كانت جزئياً، من اصل يهودي. (فقط في اسبانيا كان النبلاء من مقام رفيع، يتزوجون من يهود). ومن بعد انتصاره استخدم هو ايضاً اليهود، في اعلى المناصب المالية.

١٦ ـ حتى القرن الثامن عشر كان يُفترض بان مكانة عبيد الارض في بولندا حتى اسوأ من مكانتهم في روسيا. وفي ذلك القرن تفاقمت بعض نواحي القنانة في روسيا، مثل المبيع العلني

لعبيد الارض، الى درجة اسوأ مما كانت عليه في بولندا، ولكن الحكومة القيصرية احتفظت دائماً ببعض السلطات على الفلاحين المستعبدين، مثل حق تجنيدهم في الجيش الروسي.

١٧ ـ خلال الفترة السابقة كان اضطهاد اليهود نادراً. وهذا صحيح بالنسبة الى ايام الامبراطورية الرومانية حتى من بعد ثورات يهودية جدية. وجيبون على حق في امتداحه ليبرالية انطونيوس بيوس (وماركوس اورليوس) تجاه اليهود، بعد وقت قصير جداً من نشوب ثورة باركوخفا الرئيسية، في العام ١٣٢ ـ ١٣٥م.

١٨ ـ معظم المؤرخين العامين في الازمنة الحديثة، اغفلوا التعليق على هذه الحقيقة التي يمكن التحقق من صحتها بفحص تفاصيل على عملية اضطهاد. والاستثناء الشريف هو حيو تريفور ـ روبر في "The Rise of Christian Europe", Thames and Hudson, London, 1965, pp. 173 - 174. وتريفور ـ روبر هو ايضاً احد المؤرخين العصريين القلائل جداً، الذين ذكروا الدور اليهودي المسيطر في تجارة العبيد بين اوروبا المسيحية (والوثنية) والعالم الاسلامي، في اوائل القرون الوسطى (المصدر نفسه، ص ـ ٩٢ ـ ٩٣). ومن اجل تشجيع هذا الرجس، الذي لا اجد متسعاً هنا لبحثه، سمح بن ميمون لليهود، باسم الديانة اليهودية، بخطف الاولاد الاغيار وزجّهم في العبودية؛ ولا شك أن رأيه كان معمولاً به، او انه عكس الممارسات المعاصرة.

١٩ ـ يمكن ان نجد الامثلة في اي كتاب تاريخ عن الحروب الصليبية. انظر بصفة خاصة، مؤلف S. Runciman, "A History of the crusades", vol. I, book 3, chap. 1 "The German crusade".

وقد بدت هزيمة هذا الجيش على ايدي الجيش المجري، «بدت لمعظم المسيحيين كعقاب عادل انزلته السماء بقتلة اليهود».

٢٠ ـ John Stoye, "Europe Unfolding 1648 - 88, Fontana, London, p. 46.

٢١ ـ هذه السمة الاخيرة ليست مذكورة بالطبع، في التأريخ اليهودي الذي وصلنا. ولقد كانت العقوبة المعهودة للفلاح الثائر او حتى الفلاح «الوقح»، الموت على الخازوق.

٢٢ ـ يمكن ملاحظة الشيء نفسه في مناطق مختلفة من بلد معين. ففي المانيا على سبيل المثال، كانت بافاريا الزراعية اكثر معاداة للسامية من المناطق الصناعية.

٢٣ ـ كان رفض الكنيسة الاعتراف بان اليهودي هو دائماً يهودي، سبباً آخر للالم، بالنسبة الى كاثوليكي متباه مثل درامونت. ولقد روى احد مساعديه الرئيسيين، جول غيران، عن الاشمئزاز الذي شعر به عندما جادله اليسوعي الشهير، الاب دولاك، معترضاً على تهجمه على بعض الذين تحولوا الى اليهودية.

D. W. Brogan, "The Development of Modern France, "vol. , Harper Torchbooks, New York, 1966,p. 227.

٢٤ ـ المصدر نفسه.

٢٥ ـ دعوني اشرح الصفة الشيطانية اللاعقلانية التي يمكن للعنصرية ان تكتسبها احياناً، بثلاثة امثلة اخترتها اختياراً عشوائياً. ان قسماً رئيسياً من عملية ابادة يهود اوروبا، نُفّذ في عام ١٩٤٢ وفي مطلع عام ١٩٤٣، خلال الهجوم النازي على روسيا، الذي انتهى بهزيمته في ستالينغراد. فخلال الاشهر الثمانية بين حزيران ١٩٤٢ وشباط ١٩٤٣، استخدم النازيون على الارجح، عدداً من عربات السكة الحديد لنقل اليهود الى غُرف الغاز، اكثر من عدد العربات التي استخدموها لنقل الامدادات الى الجيش الذي كان بحاجة ماسّة اليها. وقبل اخذهم الى حتفهم كان معظم هؤلاء اليهود، على الاقل في بولندا، مستخدمين استخداماً فاعلاً، في انتاج المعدات للجيش الالماني. اما المثال الثاني، الابعد كثيراً، فيأتي من وصف لصلوات المغرب الصقلية في العام ١٢٨٢: «لقد صرعوا كل فرنسي صادفوه. تدفقوا على الفنادق التي يتردد عليها الفرنسيون، وعلى البيوت التي يسكنونها، ولم يوفروا، لا رجلاً ولا امرأة ولا طفلاً... اقتحم المشاغبون الاديرة الدومينيكانية والفرنسيسكانية، وجرّوا الرهبان الاجانب كافة الى الخارج وطلبوا منهم ان يلفظوا كلمة سيسيري (ciciri)، التي لا يستطيع اللسان الفرنسي ابداً، لفظها بدقة. وقتلوا كل من فشل في الامتحان». (S. Runciman, "The Sicilian vespers", Cambridge University Press, 1958, p. 215).

والمثال الثالث مثال حديث العهد: في صيف ١٩٨٠ ـ بعد محاولة الاغتيال التي قام بها الارهابيون اليهود، والتي فقد فيها رئيس بلدية نابلس بسام الشكعة، رجليه الاثنتين، وفقد رئيس بلدية رام الله كريم خلف احدى قدميه ـ تجمعت كتلة من النازيين اليهود في حرم جامعة تل ـ ابيب، وقامت بشوي بعض القطط وقدمت لحمها للمارة على انها «شيش كباب من لحم ارجل رؤساء البلدية العرب». وكل من شاهد ذلك التهتك الذي تقشعر له الابدان ـ كما فعلت انا ـ عليه ان يعترف بان بعض الفظائع تستعصي على التفسير في حالة معرفتنا الحالية.

٢٦ ـ ان احدى المغالطات الاولى لجابوتينسكي (مؤسس الحزب الذي كان يقوده مناحم بيغن آنذاك) كان اقتراحه في نحو العام ١٩١٢، خلق دولتين يهوديتين اثنتين، الاولى في فلسطين والثانية في انغولا: ولان الاولى فقيرة في الموارد الطبيعية، فانها سوف تموّل بثروات الثانية.

٢٧ ـ ذهب هرتزل الى روسيا لمقابلة فون بليهفه في آب، ١٩٠٣، بعد اقل من اربعة اشهر من مذبحة كيشينيف المدبّرة الشنيعة التي كان معروفاً بان كيشينيف هو المسؤول عنها. وقد اقترح هرتزل تحالفاً يقوم على اساس رغبتهما المشتركة باخراج معظم اليهود من روسيا، وتحويل التأييد اليهودي عن الحركة الاشتراكية، على المدى القصير. ولقد بدأ الوزير القيصري المقابلة الاولى، (في ٨ آب)، بابداء الملاحظة بانه يعتبر نفسه «مؤيداً متقيّداً للصهيونية». وعندما مضى هرتزل يصف اهداف الصهيونية، قاطعه فون بليهفه قائلاً: «انك تبشّر لشخص متحوّل». عاموس ايلون، «هرتزل»، عام عوفيد، ١٩٧٦، ص. ٤١٥ ـ ٤١٩، بالعبرية.

٢٨ ـ Dr. Joachin Prinz, "Wir Juden" Berlin, 1943, pp. 150 - 151.

٢٩ ـ المصدر نفسه، ص. ١٥٥ ـ ١٥٤.

٣٠ ـ انظر على سبيل المثال، المصدر نفسه، ص ـ ١٣٦. وما هو حتى اسوأ من ذلك. ان حركة «ليحومي حيروت يسرائيل» المتطرفة (زمرة «شيترن») وبتاريخ يعود الى العام ١٩٤١، ادلت بتعابير متعاطفة مع النازية. وكان الدكتور برينز من «الحمائم» بالمصطلحات الصهيونية. حتى انه رعى في السبعينات، حركة «بريرا»اليهودية في الولايات المتحدة، حتى اقنعته غولدا مائير بالعدول عن ذلك.

الفصل الخامس

القوانين ضد غير ـ اليهود

ان الهالاخاه، وكما شرحنا في الفصل الثالث، هي النظام القانوني لليهودية الكلاسيكية ـ كما مارسها عملياً، اليهود كافة، من القرن التاسع وحتى نهاية القرن الثامن عشر، وكما جرت المحافظة عليها حتى يومنا هذا، بشكل اليهودية الارثوذوكسية ـ وهي تقوم بالدرجة الاولى، على التلمود البابلي. ولكن نظراً الى تعقيد المناظرات القانونية المسجلة في التلمود، والذي يجعل استخدامها صعباً، اصبح من الضروري تصنيف الشرائع التلمودية تصنيفاً طيعاً اكثر. وقد جرى بالفعل، جمع هذه الشرائع وتصنيفها على ايدي اجيال متعاقبة من الحاخامات العلماء. وقد اكتسب بعض هذه التصنيفات مرجعية مهمة، وأصبح شائع الاستخدام. ولهذه الاسباب سوف نرجع في الغالب، الى مثل هذه التصنيفات (والى اكثر التعليقات المشهود لها) عوضاً عن الرجوع الى التلمود مباشرة. ولكن يمكننا الافتراض بان التصنيفات المشار اليها تعكس بامانة، معنى النص التلمودي والاضافات التي زادها العلماء في وقت لاحق، على اساس هذا المعنى.

ان اقدم مجموعة لشرائع التلمود، التي ما زالت ذات اهمية رئيسية، هي الميشناه توراه (Mishneh Torah) التي كتبها موسى بن ميمون في اواخر القرن الثاني عشر. اما مجموعة الشرائع المعتمدة اكثر من غيرها، والمستخدمة استخداماً واسع النطاق، حتى يومنا هذا، كدليل مُرشد، فهي مجموعة شولحان عاروخ (Shulha Arukh) التي

ألّفها ر. يوسف كارو، في اواخر القرن السادس عشر، كموجز شعبي لعمله الاكثر ضخامة، كان بعنوان «بيت يوسف»، (Beyt Yosef)، والذي كان يقصد به العلماء المتقدمين في تخصّصهم. وشولحان عاروخ مؤلف حاز على تعليقات كثيرة: فهناك بالاضافة الى التعليقات الكلاسيكية، التي يعود تاريخها الى القرن السابع عشر، تعليق مهم وُضع في القرن العشرين، بعنوان الميشناه بارورواه. وهناك اخيراً، الموسوعة التلمودية - وهي جمع وتصنيف حديث، نُشر في اسرائيل منذ الخمسينات، وقد حرّره اعظم علماء البلاد من الحاخامات الارثوذوكس - وهو موجز معتمد جيّد للادب التلمودي بكامله.

القتل والابادة الجماعية

ان قتل اليهودي، بحسب الديانة اليهودية، جريمة عقوبتها الاعدام؛ وهي احدى افظع الخطايا الثلاث (والخطيئتان الاخريان هما عبادة الاوثان والزنى). وللمحاكم الدينية والسلطات العلمانية اليهودية، الاوامر التي تُلزمها بمعاقبة اي شخص مذنب بجرم قتل يهودي، وحتى بما يجاوز حدود اجراءات العدالة العادية.

اما اليهودي الذي يتسبب بصورة غير مباشرة، بقتل يهودي آخر، فهو مذنب فقط، بارتكاب ما تسميه شريعة التلمود، معصية ضد «شرائع السماء»، ويكون عقابه عند الله عوضاً عن البشر.

ولكن عندما تكون الضحية من الاغيار يختلف الوضع تماماً. فاليهودي الذي يقتل احد الاغيار يكون مذنباً فقط بارتكاب معصية ضد شرائع السماء، وهي معصية غير قابلة لعقوبة صادرة عن محكمة[1]. اما التسبب بصورة غير مباشرة، بمقتل احد الاغيار، فهذا ليس معصية على الاطلاق[2].

وعلى هذا النحو، يشرح احد اهم معلّقين اثنين على «شولحان عاروخ» بالقول بانه فيما يتعلق بالاغيار، «على المرء الا يرفع يده لايذائه، ولكنه يستطيع ان يؤذيه بطريقة غير مباشرة، كأن يزيل السُلم مثلاً، بعدما يكون الشخص المعين قد سقط في هوة... اذ لا يوجد حظر هنا، لأن الاذى لم يُرتكب بصورة مباشرة»[3].

ولكن المعلق يُشير من ناحية ثانية، الى الحظر المفروض على عمل يؤدي بصورة غير مباشرة، الى مقتل احد الاغيار، اذا كان يُمكن لهذا العمل ان يتسبب في انتشار العداء تجاه اليهود(٤).

اما القاتل من الاغيار الذي يُصادف وجوده تحت السلطة القضائية اليهودية ينبغي ان يُنفذ فيه حكم الاعدام سواء أكانت الضحية يهودية ام غير يهودية. اما اذا كانت الضحية من الاغيار وتحوّل القاتل عن ديانته واعتنق اليهودية، فانه لا يُعاقب(٥).

ولكل هذا صلة عملية ومباشرة بحقائق دولة اسرائيل. وعلى الرغم من ان القانون الجنائي في هذه الدولة لا يميز بين اليهود والاغيار، فان الحاخامات الارثوذوكس الذين يتبعون في ارشاد رعيتهم، يُجرون مثل هذا التمييز بالتأكيد. اما النصيحة التي يسدونها للجنود المتدينين، فهي نصيحة لها اهمية خاصة.

فلما كان حتى المنع المفروض على قتل احد الاغيار بدون تحفّظ، منعاً ينطبق في حدّه الادنى، فقط على «الاغيار الذين لسنا، (نحن اليهود)، في حالة حرب معهم»، فقد استنتج عدد من الحاخامات المعلّقين في الماضي، الاستنتاج المنطقي القائل بان جميع الاغيار، في زمن الحرب، الذين ينتمون الى السكان المعادين، اغيار يمكن قتلهم، او حتى اغيار ينبغي قتلهم(٦). ومنذ العام ١٩٧٣ وهذا المبدأ يُبث علناً، من اجل ارشاد الجنود المتدينين. وكان اول حض رسمي من هذا النوع، مُضمّناً في كتيب نشرته قيادة المنطقة الوسطى في الجيش الاسرائيلي، وهي المنطقة التي تشمل، الضفة الغربية. وقد كتب الكاهن الرئيسي لهذه القيادة في الكتيب يقول: «عندما تصادف قواتنا مدنيين خلال الحرب، او اثناء عملية مطاردة، او في غارة من الغارات، وما دام هناك عدم يقين حول ما اذا كان هؤلاء المدنيون غير قادرين على ايذاء قواتنا، فيمكن قتلهم بحسب الهالاخاه، لا بل ينبغي قتلهم... اذ ينبغي عدم الثقة بالعربي في اي ظرف من الظروف، حتى وإن اعطى انطباعاً بانه متمدن... ففي الحرب، يُسمح لقواتنا وهي تهاجم العدو، بل انها مأمورة بالهالاخاه، بقتل حتى المدنيين الطيبين، اي المدنيين الذين يبدون طيبّين في الظاهر»(٧) .

ونجد شرحاً لهذا المبدأ نفسه، في الرسائل التالية المتبادلة بين جندي اسرائيلي شاب وحاخامه، نُشرت في الكتاب السنوي الخاص باحدى الكليات الدينية المعتبرة اكثر من غيرها، وهي «مدراشيات نوعام»، التي تعلّم فيها العديد من قادة الحزب الديني القومي وغوش ايمونيم، والنشيطين فيهما(8).

رسالة من الجندي موشيه الى الحاخام شمعون وايزر:

«بعون الله، الى المحترم، حاخامي العزيز،

«اود اولاً، ان اسأل عن احوالك واحوال عائلتك. اتمنى ان يكون كل شيء على ما يرام. وانني على ما يرام، وشكراً لله. لم اكتب اليك منذ وقت طويل. ارجو ان تغفر لي ذلك. اتذكّر في بعض الاحيان، الآية القائلة «متى آتي وامثُل امام الله؟»(9) اتمنى، ومن دون ان اكون متيقناً من ذلك، ان آتي خلال اجازة من اجازاتي. يجب ان افعل ذلك.

«في احدى المناقشات التي جرت في مجموعتنا، دار نقاش حول «طهارة السلاح»، وبحثنا فيما اذا كان مسموحاً لنا بقتل رجال غير مسلحين - او نساء واطفال؟ او ربما اذا كان علينا، الانتقام من العرب؟ ثم اجاب كل واحد منا بحسب فهمه للامر. ولكنني لم استطع التوصل الى قرار واضح، وما اذا كان ينبغي ان يُعامل العرب مثل العماليق، اي انه مسموح للمرء بقتلهم [هكذا ورد] حتى تُمحى ذكراهم تحت السماوات(10)، او ربما كان على المرء، ان يفعل كما يحصل في الحرب العادلة التي يقتل المرء فيها الجنود فحسب؟

«اما مشكلتي الثانية فهي عما اذا كان مسموحاً لي بان اعرّض نفسي للخطر بالسماح لامراة ما بان تبقى على قيد الحياة؟ لانه حصلت حالات ألقت فيها النساء قنابل يدوية. او ما اذا كان مسموحاً لي بان اعطي جرعة ماء لعربي يرفع يده؟ لانه قد يكون هناك سبب يدعو الى التخوّف من انه قد يكون قاصداً خداعي، وسوف يقتلني، وقد حصلت اشياء كهذه.

«اختتم بسلام حار للحاخام وعائلته - موشيه».

جواب الحاخام شمعون وايزر على رسالة موشيه.

«بعون السماء، عزيزي موشيه، تحيات.

«ابدأ بهذه الرسالة هذا المساء على الرغم من معرفتي بانني لن استطيع اكمالها اليوم لانني مشغول، ولانني اود بان تكون الرسالة مطولة، تجيب عن اسئلتك اجابة وافية، سيكون علي من أجلها، ان انسخ بعض اقوال حكمائنا، مباركي الذكر، وافسّرها[11].

«ان للامم غير اليهودية تقليد من التقاليد، يجعل للحرب القوانين الخاصة بها، مثل قوانين لعبة من الالعاب، مثل قوانين لعبة كرة القدم او كرة السلّة. ولكن بحسب اقوال حكمائنا، مباركي الذكر، [...] فان الحرب بالنسبة الينا ليست لعبة، بل ضرورة حيوية، وعلينا بحسب هذا المعيار فقط، ان نقرر كيف نشن الحرب. فمن جهة[...] نبدو باننا نتعلم بان اليهودي اذا قتل احد الاغيار فانه يُعتبر قاتلاً، وبان خطورة عمله، باستثناء حقيقة ان اي محكمة لا تملك حق معاقبته، هي بمثل خطورة اي عملية قتل اخرى. ولكننا نجد في مكان آخر، في المراجع نفسها[...] بان الحاخام شمعون درج على القول: «افضل الاغيار ـ اقتله؛ افضل الافاعي ـ اسحق نخاعها».

«وقد يجادل امرؤ بالقول بان تعبير «اقتل» في قول الحاخام شمعون، تعبير مجازي فقط، ويجب الا يؤخذ بحرفيته، بل كما لو كان يعني «اضطهد» او اي موقف مماثل آخر، وبهذه الطريقة نتفادى ايضاً، التناقض مع المراجع التي استشهدنا بها آنفاً. او قد يجادل احدهم بالقول بان هذا التعبير وان كان قائله يعنيه بحرفيته، إلا أنه [مجرد] رأيه الشخصي، ويعارضه فيه حكماء آخرون [استشهدنا بهم آنفاً]. ولكننا نجد الشرح الحقيقي في الملحق، (التوسافوت)[12]، ففيه [...] نطّلع على التعليق التالي على الحكم الذي يصدره التلمود، والقاضي بالابتعاد عن الاغيار الذين يسقطون في بئر، والامتناع عن مساعدتهم على الخروج منه، ولكن القاضي ايضاً، بالامتناع عن دفعهم الى البئر حتى يُقتلوا، والذي يعني ضرورة الامتناع عن انقاذهم من الموت، والامتناع عن قتلهم مباشرة. ويكتب «التوسافوت» ما يلي: «فاذا طُرح السؤال [لانه] قيل في مكان آخر «افضل الاغيار ـ اقتله»، فان الجواب عندئذ،

هو ان هذا القول المقصود به زمن الحرب»[...] «وبحسب معلقي «التوسانوت»، علينا ان نميّز بين زمن الحرب وزمن السلم، بحيث يتحول منع قتل الاغيار في زمن السلم، الى الزام، الى واجب ديني، [متسفاه]، يقضي بقتلهم في حالة تحصل في زمن الحرب [...].

«وهذا هو الفارق بين اليهود والاغيار: فعلى الرغم من ان القاعدة القائلة «ومن يأتي لقتلك اقتله اولاً» تنطبق على اليهودي، كما جاء في مقالة السنهدرين [في التلمود]، في الصفحة ٧٢أ، الا ان هذه القاعدة مع ذلك، تنطبق عليه فقط اذا كان هناك سبب [فعلي] للتخوف من كونه آتياً لقتلك. ولكن ينبغي الافتراض عادة، في زمن الحرب، بان الاغيار آتون لقتلك، الا عندما يكون واضحاً تماماً بانهم لا يضمرون نية شريرة. هذه هي قاعدة «طهارة السلاح» بحسب الهالاخاه - وليس المفهوم الغريب المقبول به الآن، في الجيش الاسرائيلي، والذي كان سبباً في الخسائر الفادحة في الارواح [اليهودية]. وانني أرفق هنا، قصاصة من صحيفة للخطاب الذي القاه في الكنيست في الاسبوع الماضي، الحاخام كالمان كهانا، والذي يبيّن بطريقة شبه حيّة للغاية - ومؤلمة ايضاً - كيف تسببت «طهارة السلاح» هذه، بسقوط القتلى.

«وانني اختتم هنا، آملاً بالا تجد هذه الرسالة المطولة، رسالة مملة. فقد كان هذا الموضوع يُناقش حتى من دون رسالتك، ولكن رسالتك هي التي جعلتني اكتب عن هذا الامر بكامله. كن بسلام، انت واليهود كافة، [وآمل] بان اراك في اسرع وقت، كما قلت، المخلص لك

شمعون»

جواب موشيه للحاخام شمعون وايزر.

الى المحترم، حاخامي العزيز،

«آمل اولاً، بان تكون وعائلتك بصحة، وجميعكم بخير.

«لقد تلقيت رسالتك المطولة وانا ممتن لرعايتك الشخصية لي، لانني افترض

بانك تكتب للكثيرين، وانك منشغل، في معظم وقتك، في دراساتك في برنامجك الخاص. ولذلك فان شكري العميق لك شكر مضاعف.

«اما بالنسبة الى الرسالة فقد فهمتها كما يلي:

«في زمن الحرب ليس مسموحاً لي فحسب، ولكنني مأمور بان اقتل كل عربي اصادفه، رجلاً كان ام امرأة، اذا كان هناك سبب للخوف من كونهم يساعدون في الحرب ضدنا، ان بطريقة مباشرة ام غير مباشرة. وفيما يتعلق بي، عليّ ان اقتلهم حتى اذا كان ذلك قد يؤدي الى تورطي مع القانون العسكري. واعتقد بانه ينبغي تحويل مسألة طهارة السلاح الى المعاهد التعليمية، على الاقل الدينية منها، حتى يكون لديهم موقف حول هذا الموضوع، وحتى لا يتوهون في حقول «المنطق» الواسعة، خصوصاً في هذا الموضوع؛ وينبغي شرح هذه القاعدة كما يجب ان تُتّبع بالممارسة. لانني، وآسف ان اقول، شاهدت انواعاً مختلفة من المنطق هنا، حتى في وسط الرفاق المتدينين. وآمل بالفعل، بان تنشط في هذا المجال، حتى يعرف اولادنا خط اجدادهم معرفة واضحة لا لبس فيها.

«واختتم هنا، آملاً بان اتمكن، عند انتهاء الدورة [التدريبية] في غضون الشهر تقريباً، من المجيء الى اليشيفا [الكلية التلمودية]. تحياتي - موشيه».

ان هذا المبدأ من مبادئ الهالاخاه، بشأن القتل، يتضارب مبدئياً، بالطبع، ليس فقط مع قانون اسرائيل الجنائي، ولكن ايضاً - وكما الحت الرسالة التي استشهدنا بها لتونا - مع الانظمة العسكرية الرسمية السارية المفعول.

ولكن لا مجال للشك بان لهذا المبدأ، على صعيد الممارسة، تأثيره على اصدار الاحكام العدلية، خصوصاً من قبل السلطات العسكرية. فالواقع هو انه في كل الحالات التي اقدم فيها يهود على قتل عرب غير محاربين، في سياق عسكري او شبه عسكري - بما فيها حالات القتل الجماعي، كما في حالة كفر قاسم عام ١٩٥٦ - فان القتلة، ان لم يكن قد اطلق سراحهم جميعاً، تلقوا احكاماً خفيفة الى اقصى الحدود، او نالوا اعفاءات خففت عقوباتهم الى حد باتت معه في حكم اللاشيء[١٢].

انقاذ الحياة

ان الموضوع - موضوع القيمة الاسمى للحياة الانسانية وواجب كل انسان بذل اقصى ما يستطيعه لانقاذ رفيقه الانسان - فهو، بالطبع، موضوع مهم بحد ذاته كما انه موضوع يحظى باهتمام خاص في السياق اليهودي، في ضوء حقيقة ان الرأي العام اليهودي منذ الحرب العالمية الثانية، اقدم - عن حق في بعض الحالات، وبدون حق في غيرها - على ادانة «العالم كله»، او اوروبا كلها، على الاقل، لوقوفها متفرجة عندما كان اليهود يُذبحون.

ولذلك، دعونا نفحص ما تقوله الهالاخاه في هذا الموضوع.

فبحسب الهالاخاه، فان واجب انقاذ حياة قرين يهودي واجب لا يعلو عليه واجب آخر[١٤]. فهو يتقدم على جميع الواجبات والتحريمات الدينية الاخرى، باستثناء تحريم أشنع المعاصي الثلاث فحسب، اي الزنى (بما فيه الزنى بين الاقارب) والقتل وعبادة الاوثان.

اما بالنسبة الى الاغيار، فان المبدأ الاساسي التلمودي يقول بوجوب الامتناع عن انقاذ حياتهم، وعلى الرغم من ان قتلهم هكذا وبدون تحفظ، ممنوع ايضاً. ويعبّر التلمود نفسه[١٥] عن ذلك، في الحكمة القائلة بوجوب «الا يُرفع الاغيار [من البئر] والا يُدفعون [اليه]». ويشرح بن ميمون[١٦] ذلك بقوله:

«اما بالنسبة الى الاغيار الذين لسنا في حالة حرب معهم... فينبغي الا نتسبب في موتهم، ولكن انقاذهم ممنوع اذا كانوا على وشك الموت. فاذا شوهد احدهم، على سبيل المثال، يسقط في البحر، ينبغي الامتناع عن انقاذه لانه مكتوب: « وانت لن تقف ضد دماء قرينك»[١٧] ولكن [الاغيار] ليسوا اقرانك». وينبغي للطبيب اليهودي خصوصاً، الايُعالج مريضاً من الاغيار. وبن ميمون - وهو نفسه، طبيب لامع - واضح تماماً حول هذه النقطة؛ فهو يكرر في فقرة اخرى،[١٨] الفارق بين «قرينك» وبين الاغيار، ليستنتج قائلاً: «وعليك ان تتعلم من ذلك، بانه ممنوع ابراء احد الاغيار حتى لقاء اجر...».

الا ان رفض اليهودي ـ وخصوصاً الطبيب اليهودي ـ انقاذ حياة احد الاغيار، قد يثير، اذا شاع الرفض، عداء الاغيار من ذوي النفوذ، مما يعرّض اليهود للخطر. وعندما يكون هنالك خطر من هذا النوع، فان واجب تفاديه يحل محل الخطر المفروض على مساعدة الاغيار. وهكذا، يتابع بن ميمون فيقول: «... ولكنك اذا كنت تخشاه او تخشى عداوته، فاعمل على اشفائه لقاء أجر، وان كان ممنوعاً عليك فعل ذلك من دون اجر». وفي الواقع، كان بن ميمون نفسه، طبيب صلاح الدين الخاص. ولكن اصراره على طلب اجره ليس مطلقاً ـ ويفترض ان اصراره كان من اجل التأكيد بان عمله ليس عملاً من اعمال الخير الانسانية، بل واجب لا يمكن تفاديه، لانه في فقرة اخرى، يسمح بمعالجة احد الاغيار الذي يُخشى من عداوته، «وحتى مجاناً اذا كان ذلك امراً لا يمكن تفاديه».

ان المبدأ برمته ـ مبدأ حظر انقاذ حياة الاغيار او اشفائهم، وتعليق هذا الحظر في الحالات التي يكون فيها تخوّف من العداء ـ يتكرر (حرفياً، في الواقع) لدى مراجع رئيسية اخرى، بما فيها «اربعاه توريم» الذي وضع في القرن الرابع عشر، ومؤلف كارو «بيت يوسف»، و«شولحان عاروخ»[١٩]. ويضيف «بيت يوسف» الى هذا المبدأ مقتبساً عن بن ميمون، قوله: «ومن المسموح تجربة عقار من العقاقير على الكافر اذا كان ذلك يفي بغرض ما». وهذا ما يكرره ايضاً، الحاخام الشهير موسى ايسرلس.

وتُجمع مراجع الهالاخاه على ان مصطلح «الاغيار» في المبدأ اعلاه، يشير الى غير اليهود كافة.

والصوت المعارض الوحيد هو صوت الحاخام موسى ريفكس، مؤلف تعليق ثانوي على «شولحان عاروخ»، الذي كتب يقول:[٢٠].

«قال حكماؤنا ذلك فقط بشأن الكفرة الذين كانوا في ايامهم، يعبدون الاوثان، ولم يؤمنوا بالخروج اليهودي من مصر، او بخلق الكون من العدم. ولكن الاغيار الذين نُفينا الى ظلّهم [الواقي]، نحن شعب اسرائيل، والذين تشتتنا فيما بينهم، يؤمنون بخلق الكون من العدم، وبالخروج بمبادئ عديدة من مبادئ ديانتنا، وهم

يصلّون لخالق السماوات والارض... ولا يقتصر الامر على عدم وجود حظر على مساعدتهم، بل اننا ملزمون بالصلاة من اجل سلامتهم.

وهذه الفقرة التي تعود الى النصف الثاني من القرن السابع عشر، هي اقتباس مفضّل لدى العلماء المدافعين عن العقيدة الدينية[٢١]. ولكن هذه الفقرة في الواقع، لا تبلغ تقريباً، المبلغ الذي يتظاهر المدافعون عن العقيدة، بانها تبلغه، لانها تدعو الى ازالة الحظر عن انقاذ حياة الاغيار عوضاً عن جعل هذا الانقاذ الزامياً، كما هو الحال مع اليهودي. وحتى هذا التسامح يمتد فقط ليشمل المسيحيين والمسلمين ولكن ليس اكثرية الجنس البشري. وما يظهره هذا التسامح بالاحرى، هو انه كان هناك سبيل كان يمكن فيه لهذا المبدأ القاسي في الهالاخاه ان يصبح متحرراً تدريجياً. ولكن في الحقيقة، فإن اكثرية المراجع الهالاخية قد رفضت فيما بعد، تسامح ريفكس رفضاً كلياً، عوضاً عن توسيعه ليشمل الجماعات البشرية الاخرى.

انتهاك حرمة السبت لانقاذ الحياة

ان انتهاك حرمة ايام السبت ـ اي القيام بعمل يفترض ان يكون محظوراً اداؤه يوم السبت ـ يصبح واجباً عندما تتطلب ذلك الحاجة لانقاذ حياة يهودي.

ولا يثير التلمود مشكلة انقاذ حياة الاغيار ايام السبت، كمسألة رئيسية، بما انها ممنوعة في اي حال، حتى خلال ايام الاسبوع؛ الا ان المسألة تدخل كعامل تعقيد في حالتين.

في الحالة الاولى، هناك مشكلة عندما تكون مجموعة من الناس في حالة خطر، ويكون هناك احتمال (ولكن غير مؤكد)، بوجود يهودي واحد على الاقل، في هذه المجموعة؛ فهل ينبغي انتهاك حرمة السبت لانقاذها؟ هناك بحث مطولّ لحالات من هذا النوع. و«شولحان عاروخ»[٢٢] يقرر هذه الامور باتباع المراجع الاقدم، بما فيها بن ميمون والتلمود نفسه، وذلك على اساس وزن الاحتمالات. لنفترض على سبيل المثال، ان تسعة من الاغيار ويهودياً واحداً يعيشون في المبنى نفسه، وفي احد ايام السبت ينهار هذا المبنى في وقت يكون فيه احد هؤلاء العشرة غائباً ـ ولا يُعرف من

منهم ـ ولكن التسعة الآخرين عالقون تحت الانقاض. هل ينبغي رفع الانقاض، وبالتالي انتهاك حرمة السبت، وقد لا يكون اليهودي مطموراً تحته (فقد يكون هو الغائب الذي افلت)؟ يقول «شولحان عاروخ» بانه يتوجب رفع الانقاض لان الاحتمال بان يكون اليهودي تحت هذه الانقاض، احتمال كبير (بنسبة تسعة الى واحد). ولكن اذا افترضنا بان تسعة من سكان المبنى كانوا غائبين، وواحداً فقط عالق تحت الأنقاض ـ ولا يُعرف من منهم ـ لا يعود هناك واجب عندئذ، برفعها، على افتراض ان الاحتمالات هذه المرة احتمالات بعيدة (بنسبة تسعة الى واحد) ضد ان يكون اليهودي هو الشخص العالق تحت الانقاض. وعلى نحو مماثل: «اذا شوهد مركب يحمل بعض اليهود، معرض للخطر في عرض البحر، فان انتهاك حرمة السبت واجب مفروض على الجميع، من اجل انقاذه».

الا ان عكيفا ايغر العظيم (الذي توفي عام ١٨٣٧)، يعلق على ذلك بقوله بان الامر ينطبق فقط «عندما يكون معروفاً بوجود يهود على متنه. ولكن.... اذا كان لا يُعرف اي شيء عن هوية ركاب هذا المركب، ينبغي عدم انتهاك حرمة [السبت] لان على المرء ان يتصرّف على اساس [وزن الترجيحات، كما ان] اكثرية الناس في العالم هم من الاغيار[٢٣]. وهكذا، وبما ان هناك احتمالات مضادة لوجود اي راكب من اليهود على متنه، فينبغي ترك المركب يغرق.

وفي الحالة الثانية، فان النص الذي يقول بامكانية انقاذ احد الاغيار او الاعتناء به، من اجل تفادي خطر العداء، نصّ يُلجم ايام السبت. فاليهودي الذي يُستدعى لمساعدة احد الاغيار في يوم من ايام الاسبوع، قد يضطر الى الانصياع لان اعترافه بانه من غير المسموح له مبدئياً، انقاذ حياة غير يهودي، سوف يكون كمثل من يستجلب العداء. ولكن اليهودي يستطيع في ايام السبت استخدام التزامه بحرمة السبت كعذر معقول في ظاهره. والحالة التي يُحتذى بها، والتي تبحث بحثاً مطولاً في التلمود[٢٤]، هي حالة القابلة القانونية اليهودية، التي تُدعى الى مساعدة امرأة من الاغيار في حالة الطَلْق. فالحصيلة هي ان القابلة القانونية يُسمح لها بالمساعدة في احد ايام الاسبوع «خوفاً من العداء»، ولكن عليها الا تُساعد في يوم السبت لانها

تستطيع ان تعتذر بالقول: «لا يجوز لنا ان ننتهك حرمة السبت الا لامثالنا الذين يلتزمون حرمة السبت، ولكن لا يجوز لنا انتهاكه لأجلكم انتم، الناس الذين لا يلتزمون حرمة السبت». هل هذا التفسير تفسير حقيقي ام مجرد عذر؟ يعتقد بن ميمون، وبكل وضوح، بانه مجرد عُذر يمكن استخدامه حتى وان كانت المهمة التي استُدعيت القابلة القانونية لادائها لاتنطوي على انتهاك لحرمة السبت. ويفترض ان العذر سيفعل فعله على نحو مُرضٍ ايضاً، حتى في هذه الحالة، لان الاغيار على العموم، يجهلون ما هي بالضبط، انواع العمل التي يحظر على اليهود اداؤها ايام السبت. وهو في اي حال، يقضي بما يلي: «ينبغي الامتناع عن مساعدة امرأة من الاغيار في حالة الولادة ايام السبت، حتى لقاء اجر؛ كما ينبغي عدم الخوف من العداء، حتى عندما [لا ينطوي هذا النوع من المساعدة] على انتهاك لحرمة السبت». ويقضي «شولحان عاروخ» بالمثل(٢٥).

ومع ذلك، لا يمكن الاعتماد دائماً على هذا النوع من الاعذار لتأمين النتيجة المطلوبة، وتفادي عداء الاغيار. ولهذا السبب كان على بعض المراجع الحاخامية المهمة ان تخفف من صرامة القواعد الى حد ما، فسمحت للاطباء اليهود بمعالجة الاغيار ايام السبت حتى ولو اشتمل ذلك القيام بانواع معينة من الاعمال المحظورة عادة، في مثل هذا اليوم. وقد انطبق هذا التخفيف الجزئي على المرضى من الاغيار الاثرياء واصحاب النفوذ بصفة خاصة، الذين لم يكن ممكناً التدليس عليهم بهذه السهولة، والذين يمكن لعدائهم ان يكون عداء خطراً.

وهكذا، قرر الحاخام يوئيل سيركيس، مؤلف «بيت حداش»، وأحد اعظم حاخاميي زمانه (في بولندا، في القرن السابع عشر)، قرر وجوب معالجة «العُمد وصغار النبلاء والارستقراطيين» في ايام السبت، بسبب الخوف من عدائهم الذي ينطوي على «شيء من الخطر». ولكن في الحالات الاخرى، خصوصاً عندما يكون ممكناً التدليس على الاغيار بعذر مراوغ، فان الطبيب اليهودي سوف يرتكب «معصية لا تُحتمل» اذا عالج احد الاغيار يوم السبت. وفي وقت لاحق من القرن نفسه، صدر حكم مماثل في مدينة ميتز الفرنسية، التي كان يصل بين جزئيها جسر

عائم قائم على القوارب؛ فقد كان من غير الجائز لليهود عادة، عبور مثل هذا الجسر ايام السبت، ولكن حاخام ميتز قرر بان الطبيب اليهودي يستطيع مع ذلك، ان يعبره ايام السبت «إذا استُدعي للذهاب الى الحاكم العظيم»: إذ لمّا كان معروفاً بان الطبيب يعبر الجسر من اجل مرضاه من اليهود، فان رفضه ان يفعل ذلك من أجل الحاكم قد يثير عداءه. وخلال حكم لويس الرابع عشر الاستبدادي، كان من المهم بالطبع، نيل رضا حاكمه الخاص؛ ولكن مشاعر الاغيار الادنى مكانة فلم يكن لها اهمية تُذكر[٢٦].

ويذكر «حوكمات شلومر»، وهو تعليق على «شولحان عاروخ» وُضع في القرن التاسع عشر، تفسيراً صارماً مماثلاً لمفهوم «العداء»، فيما يتصل بالقرائين، وهم طائفة يهودية صغيرة مهرطقة. فحياتهم، بحسب وجهة النظر هذه، يجب الا تُنقذ اذا كان في انقاذها انتهاك حرمة السبت، «لان «العداء» ينطبق فقط على الكفرة، وهم كُثر ضدنا، ونحن مُسلّمون اليهم... ولكن القرائين قلّة، ونحن لسنا مسلمين اليهم، [ولذلك] فان الخوف من العداء لا ينطبق عليهم على الاطلاق»[٢٧]. وفي الواقع، لا يزال الحظر المطلق على انتهاك حرمة السبت من اجل انقاذ حياة القرائين، حظراً ساري المفعول حتى يومنا هذا، كما سنرى فيما بعد.

والموضوع بكامله يُبحث بحثاً مستفيضاً في "responsa" للحاخام موشيه سوفير ـ والذي يُعرف معرفة افضل باسم «حاتام سوفير». واستنتاجات سوفير، وهو حاخام بريسبورغ (براتيسلافا) الشهير، الذي توفي عام ١٨٣٢، استنتاجات كانت اهميتها تفوق الاهمية التاريخية، بما ان حاخام اسرائيل قد اقدم في العام ١٩٦٦، على تأييد احد الاجوبة في "responsa" علناً، واقرارها كـ «نظام اساسي من انظمة الهالاخاه»[٢٨]. وقد كان السؤال المحدد الذي طرح على حاتام سوفير، يتعلق بوضوح في تركيا، حيث صدر خلال احدى الحروب، حكم يقضي بان تكون في كل قرية او بلدة قابلات قانونيات متأهبات للاستعانة بهنّ لمساعدة اي امرأة في مخاض الولادة لقاء اجر. وبما ان بعض القابلات القانونيات كنّ يهوديات؛ فهل ينبغي لهن تأجير عملهنّ لمساعدة امرأة من الاغيار خلال ايام الاسبوع، وفي ايام السبت؟

يستنتج حوتام سوفير في اجابته[٢٩] اولاً، ومن بعد تحقيق دقيق، بان الاغيار

المعنيين بالسؤال ـ اي المسيحيين والمسلمين العثمانيين ـ ليسوا فقط عُبّاد اوثان «يعبدون آلهة اخرى بالتأكيد، وينبغي بالتالي، «الامتناع عن اخراجهم [من البئر] او القائهم فيه»، بل يشبّههم بالعماليق ايضاً، بحيث ينطبق عليهم حكم التلمود القائل «من المحظور اكثار بذرة العماليق». وبالتالي، ينبغي، مبدئياً، الامتناع عن مساعدتهم حتى خلال ايام الاسبوع. ولكن في الممارسة، من «المسموح» ابراء الاغيار ومساعدتهم اثناء مخاض الولادة، اذا كان لديهم اطباء وقابلات قانونيات خاصون بهم، يمكن استدعاؤهم عوضاً عن استدعاء الاطباء والقابلات القانونيات اليهود. لان الاطباء والقابلات اليهود اذا رفضوا الاعتناء بالاغيار فان النتيجة الوحيدة لرفضهم سوف تكون خسارتهم المدخول ـ وهو امر غير مرغوب فيه بالطبع. وهذا ينطبق على حد سواء، على ايام الاسبوع وايام السبت، شرط الا يشتمل الامر على انتهاك لحرمة السبت. ولكن يمكن في حالة القابلة القانونية ان تخدم حرمة السبت كعذر من اجل «تضليل المرأة الكافرة والقول بان مساعدتها من شأنها ان تنطوي على انتهاك حرمة السبت».

اما فيما يتعلق بالحالات التي تشتمل بالفعل، على انتهاك ليوم السبت، فان حاتام سوفير، مثله مثل المراجع الاخرى، يميّز بين فئتين من العمل الممنوع يوم السبت. اولاً، هناك العمل الذي تمنعه التوراة، النصّ التوراتي (كما يفسره التلمود)؛ فمثل هذا العمل يمكن تأديته فقط في حالات استثنائية اذا كان الامتناع عن فعله يتسبب بخطر عداء شديد تجاه اليهود. ثم ان هناك انواعاً من العمل يحظرها فقط الحكماء الذين وسعوا نطاق شرائع التوراة الاصلية؛ اما الموقف من انتهاك محظورات من هذا النوع، فهو، عادة، موقف اكثر تساهلاً.

وهناك جواب آخر لحاتام سوفير(٣٠) يتناول السؤال عما اذا كان مسموحاً لطبيب يهودي بان يسافر بعربة ايام السبت، من اجل ابراء احد الاغيار. فهو يشير في البدء، الى ان السفر يوم السبت بواسطة عربة يجرها الخيل ينتهك في بعض الحالات، فقط الحظر الذي يفرضه الحكماء، عوضاً عن التوراة، ثم يتابع ليستذكر حُكم بن ميمون بوجوب الامتناع عن مساعدة امرأة من الاغيار في مخاض الولادة

ايام السبت حتى اذا لم يشتمل ذلك على انتهاك لحرمة السبت، ليعلن من ثم، بان المبدأ نفسه ينطبق على ممارسة مهنة الطب ككل، وليس فقط مهنة القابلة القانونية. ولكنه لا يلبث ان يعبر عن خوفه من ان وضع هذا المبدأ موضع التطبيق «من شأنه ان يثير عداء غير مرغوب فيه» لان «الاغيار لن يقبلوا بعذر التزام حرمة السبت»، و«سوف يقولون بان دماء عبّاد الاصنام لا قيمة لها في نظرنا». وربما كان ايضاً، ما هو اكثر اهمية، ان الاطباء الاغيار قد ينتقمون من مرضاهم اليهود. ولذا ينبغي ايجاد اعذار افضل. وهو ينصح الطبيب اليهودي الذي يُستدعى لمعالجة مريض من الاغيار في خارج المدينة، يوم السبت، بالاعتذار بالقول بان عليه البقاء في المدينة من اجل الاعتناء بمرضاه الآخرين «لانه يستطيع ان يستخدم ذلك من أجل ان يقول «لا استطيع ان اتحرك بسبب الحظر الذي يسببه ذلك على هذا المريض او ذاك، الذي يحتاج الى طبيب قبل غيره، ولا يمكنني ان اتخلى عن مريض في عهدتي» فبعذر كهذا، لا يوجد خوف من خطر، لانها حجة معقولة يعطيها عادة الاطباء الذين يتأخرون في الوصول لان مريضاً آخر احتاجهم اولاً». ويُسمح للطبيب بالسفر بواسطة عربة يوم السبت، لمعالجة احد الاغيار، فقط «اذا كان من المستحيل على الطبيب ان يعطي اي عذر».

ان المسألة الرئيسية في هذا البحث برمته، هي الاعذار التي يتوجب تقديمها، وليس الابراء الفعلي او خير المريض. وهناك تسليم في كل هذا البحث، بان خداع الاغيار عوضاً عن معالجتهم، امر لا بأس به ما دام بالامكان تفادي «العداء»[٣١].

بالطبع، ان معظم الاطباء اليهود في الازمنة الحديثة، غير متدينين، بل لا يعرفون بهذه الانظمة. وعلاوة على ذلك، يبدو ان حتى الكثيرين من الاطباء المتدينين يفضلون ـ وهذا يسجل في صالحهم ـ التقيّد بقسم ابقراط على التقيد بوصايا حاخاماتهم المتعصبين[٣٢]. الا ان ارشادات الحاخامات لا يمكن الا ان يكون لها بعض التأثير في بعض الاطباء؛ ولا شك ان هناك الكثيرين الذين يختارون الامتناع عن الاحتجاج علناً، ضد هذه الارشادات، في الوقت الذي لا يتقيدون بها في الواقع.

وكل هذا بعيد كل البعد عن ان يكون مسألة زائلة. والموقف الهالاخي الاحدث من

هذه الامور يتضمنه كتاب مُعتمد ومُختصر، نُشر بالانكليزية، بعنوان «القانون الطبي اليهودي»(٣٣)، (Jewish Medical Law). وهذا الكتاب الذي يحمل ختم المؤسسة الاسرائيلية المهيبة «موساد هاراف كوك»، يستند الى كتاب "responsa" للحاخام اليعيزر يهودا ولدنبرغ، القاضي الرئيسي لمحكمة مقاطعة القدس؛ وتستحق بعض فقرات هذا العمل ذكراً خاصاً.

اولاً، «يحظر انتهاك حرمة السبت... من اجل احد القرائين»(٣٤). وهذا الحظر معلن بشكل فظ، وبصورة مطلقة، ومن دون اي تحفظ اضافي. فعداء هذه الطائفة الصغيرة، على ما يُفترض، عداء لا يقدم ولا يؤخر، ولذلك ينبغي تركهم يموتون على ان يعالجوا في ايام السبت.

اما بالنسبة الى الاغيار، فاننا نقرأ التالي: «يُمنع، بموجب الحكم الوارد في التلمود، ومجموعة الشرائع اليهودية، انتهاك حرمة السبت ـ ان بخرق شرعة التوراة او القوانين الحاخامية ـ من اجل انقاذ حياة مريض من الاغيار، في حالة الخطر. ويُمنع ايضاً توليد امراة من الاغيار في يوم من ايام السبت»(٣٥).

ولكن هذا المنع مقيّد بفتوى تقول: «الا انه مسموح اليوم، انتهاك حرمة السبت من اجل احد الاغيار، باداء اعمال يحظرها القانون الحاخامي، لان المرء بفعله ذلك، يمنع اثارة الضغائن بين اليهود والاغيار»(٣٦).

لكن هذه الفتوى لا تذهب بعيداً، لان المعالجة الطبية غالباً ما تشمل اعمالاً تحظرها التوراة نفسها، ايام السبت، ولا تغطيها هذه الفتوى. وبحسب ما يُقال لنا، يوجد «بعض» المراجع الهالاخية التي توسّع هذه الفتوى لتشمل هذا النوع من الاعمال ايضاً ـ ولكنها مجرد طريقة اخرى للقول بان معظم المراجع الهالاخية، والمراجع التي يُعتد بها حقيقة، تحمل وجهة النظر النقيضة. ولكن ما زال هناك بعض الامل. فلكتاب القانون الطبي اليهودي حل باهر فعلاً، لهذه الصعوبة.

وهذا الحل يتعلق بنقطة جميلة لشرائع التلمود. فالحظر الذي تفرضه التوراة على اداء عمل معيّن ايام السبت، يُفترض بانه ينطبق فقط عندما يكون القصد

الرئيسي من ادائه، هو النتيجة الفعلية للعمل. (وعلى سبيل المثال، يُفترض ان طحن القمح تحظره التوراة فقط اذا كان الغرض منه هو الحصول على الطحين فعلاً). ولكن من جهة اخرى، اذا كان اداء هذا العمل قد جاء عرضاً ونتيجة تحقيق غرض آخر، فان مكانة هذا العمل تتغير - فهو ما زال عملاً محظوراً بالتأكيد، ولكنه محظور من الحكماء فقط، وليس من التوراة نفسها. وبالتالي:

«من اجل تفادي اي انتهاك للشريعة، هناك طريقة مقبولة شرعاً، لمنح المعالجة لصالح مريض من الاغيار حتى عندما يتعلق الامر بانتهاك الشريعة التوراتية. اذ يُقترح بان نوايا الطبيب، في الوقت الذي يقدم فيه العناية الضرورية، يجب الا تكون بالدرجة الاولى، ابراء المريض، بل حماية نفسه والشعب اليهودي، من اتهامات بالتمييز الديني، ومن رد انتقامي يمكن ان يعرضه للخطر بصفة خاصة، ويعرض الشعب اليهودي للخطر بصفة عامة. وبهذه النية، يصبح اي عمل يقوم به الطبيب، «عملاً نتيجته الفعلية ليست غايته الرئيسية»... الممنوع اداؤها ايام السبت فقط في القانون الحاخامي»[٣٧].

وهذا البديل المرائي لقسم ابقراط، بديل اقترحه ايضاً، كتاب عبري معتمد حديث[٣٨].

وعلى الرغم من ان الوقائع ذُكرت مرتين على الاقل، في الصحافة الاسرائيلية[٣٩]، فقد التزمت الجمعية الطبية الاسرائيلية الصمت تجاهها.

اما وقد عالجنا بشيء من التفصيل، الموضوع الفائق الاهمية المتعلق بموقف الهالاخاه من حياة الاغيار بالذات، فلسوف نتناول بايجاز اكثر، احكاماً اخرى للهالاخاه تميّز ضد الاغيار. وبما ان عدد الاحكام من هذا النوع كبير جداً، فسنكتفي بذكر الاهم منها.

الجرائم الجنسية

يُعتبر الاتصال الجنسي بين الامرأة اليهودية المتزوجة وبين اي رجل آخر غير

زوجها، جريمة عقوبتها الاعدام لكلا الفريقين، وواحدة من افظع الخطايا الثلاث. ولكن مكانة المرأة من الاغيار مختلفة تماماً. فالهالاخاه تفترض بان الاغيار كافة اباحيون تماماً، وتنطبق عليهم الآية القائلة بان «لحمهم هو كمثل لحم الحمير، وبان قذفهم [للمن] كقذف الخيل»[٤٠]. ولا فرق بين ان تكون المرأة متزوجة او غير متزوجة، بما ان مفهوم الزواج بحد ذاته، وبقدر ما يتعلق الامر باليهود، مفهوم لا ينطبق على الاغيار [لانه «لا يوجد زواج للكفرة»]. ولذلك، لا ينطبق مفهوم الزنى ايضاً، على الاتصال الجنسي بين رجل يهودي وامرأة من الاغيار؛ بل يساوي التلمود[٤١] مثل هذا الاتصال الجنسي بخطيئة الوصال مع الحيوانات. (ولهذا السبب نفسه، يُفترض عموماً، بان الاغيار يفتقرون الى الابوة المؤكدة).

وبموجب الموسوعة التلمودية[٤٢]: ان من يملك معرفة جنسية بزوجة احد الاغيار لا يتعرض لعقوبة الاعدام، لانه كُتب: «زوجة قرينك»[٤٣] ولم يُكتب زوجة الغريب؛ حتى ان القاعدة السلوكية القائلة بان الرجل «سوف يلتصق بزوجته»[٤٤]، والموجهة الى الاغيار، لا تنطبق على اليهودي، لانه لا وجود لزواج الكفرة؛ وعلى الرغم من ان الامرأة المتزوجة من الاغيار محرّمة على الاغيار، فان اليهودي مُعفى في اي حال.

وهذا لا يعني ضمناً بان الاتصال الجنسي بين رجل يهودي وامرأة من الاغيار امر مسموح به - بل على العكس تماماً. ولكن العقوبة الرئيسية تُنزل بالمرأة من الاغيار؛ اذ يتوجب اعدامها حتى وان كانت قد اغتُصبت من يهودي: «فاذا مارس يهودي الجنس مع امرأة من الاغيار، ولو كانت طفلة في الثالثة من عمرها، او بالغة، ولو كانت متزوجة او غير متزوجة، ولو كان اليهودي قاصراً، في التاسعة من عمره بالاضافة الى يوم واحد - ينبغي قتل المرأة، لانه تعمّد الاتصال بها جنسياً، كما هو الحال مع الحيوان، ويكون اليهودي قد اوقع نفسه في مشكلة[٤٥]، عن طريقها. اما اليهودي فينبغي ان يُجلد، واذا كان من «الكوهين» (اي عضو في قبيلة الكهنة) فينبغي ان يتلقى ضعف عدد الجلدات لانه ارتكب جريمة مزدوجة: فعلى «الكوهين» الا يُجامع عاهرة، و النساء الاغيار كافة يُعتبرن بغايا[٤٦].

وعلى اليهود، بحسب الهالاخاه، الا يسمحوا (اذا كان بمقدورهم)، بتعيين احد الاغيار في اي مركز ينطوي على سلطة على اليهود، ومهما كانت هذه السلطة صغيرة. (والمثالان الاثنان المبتذلان هما «القائد المسؤول عن عشرة جنود في الجيش اليهودي»، و«المشرف على قناة للريّ»). وما له دلالة هنا، ان هذه القاعدة تنطبق ايضاً، على الذين تحولوا عن دينهم واعتنقوا الديانة اليهودية، وعلى نسلهم (عبر الخط الانثوي)، ولعشرة اجيال، او «طالما ظل هذا التحدّر معروفاً».

ويُعتبر الاغيار كَذَبَة بالفطرة، وغير مؤهلين للادلاء بشهادات في المحكمة الحاخامية. ومكانتهم من هذه الناحية، هي نفسها، نظرياً، مكانة النسوة اليهوديات، والعبيد والقُصّر، ولكنها في الواقع، اسوأ على صعيد الممارسة. فالمرأة اليهودية باتت اليوم، مقبولة كشاهدة على بعض الامور المتعلقة بالوقائع، عندما «تصدقها» المحكمة الحاخامية؛ اما الاغيار فغير مقبولين ـ ابداً.

ولذلك، تنشأ مشكلة عندما تحتاج المحكمة الحاخامية الى اثبات واقعة من الوقائع ولا يوجد شهود عليها الا شهود من الاغيار. اما المثل المهم على ذلك فيتعلق بالقضايا ذات الصلة بالارامل. فبحسب الشرع الديني اليهودي، لا يمكن اعلان امرأة ارملة ـ وبالتالي، حرة للزواج ثانية ـ الا اذا ثُبتت يقيناً، وفاة زوجها بواسطة شاهد شهد على وفاته، او تعرّف على جثته. الا ان المحكمة الحاخامية سوف تقبل الشهادة بالاستناد الى الاقاويل، التي يدلي بها يهودي يشهد بانه سمع عن الواقعة، موضوع البحث، من شاهد عيان من الاغيار، شرط ان تكون المحكمة مقتنعة بان هذا الشاهد من الاغيار كان يتكلم من دون تكلف، وليس رداً على سؤال مباشر وُجّه اليه؛ لان اجابة احد الاغيار المباشرة، عن سؤال يهودي مباشر، تُعتبر اجابة كاذبة(٤٧).

واذا دعت الضرورة، فان اليهودي (ومن المفضل ان يكون حاخاماً) سوف يتولى بالفعل، التحادث مع شاهد العيان من الاغيار، من دون ان يطرح سؤالاً مباشراً، وينتزع منه افادة عرضية عن الواقعة، موضوع البحث.

المال والاملاك:

١ ـ الهدايا: يمنع التلمود بصورة فظّة، تقديم هدية لغير اليهودي. الا ان السلطات الحاخامية الكلاسيكية لوت هذه القاعدة لان العادة في وسط رجال الاعمال، تقضي بتقديم الهدايا للاشخاص الذين تربطهم بهم صلات تجارية. ولذلك تقرر بان اليهودي يمكنه ان يقدم هدية لاحد معارفه من الاغيار، بما ان هذا الامر لا يُعتبر كهدية حقيقية بل كنوع من الاستثمار الذي يُتوقع منه مردود ما. اما تقديم الهدايا الى «اغيار من غير المقرّبين»، فما زال ممنوعاً. وينطبق حكم مماثل عموماً، على تقديم الصدقات. فاعطاء صدقة لمتسوّل يهودي واجب ديني مهم. ولكن اعطاء الصدقات لمتسوّلين من الاغيار امر مسموح به لمجرد المحافظة على السلام. الا ان هناك تحذيرات حاخامية عديدة ضد جعل الفقراء من الاغيار «يعتادون» على تلقي الصدقات من اليهود، بحيث يكون من الممكن حجب مثل هذه الصدقات عنهم من دون اثارة عداء لا لزوم له.

٢ ـ تقاضي الفائدة: ان التمييز المناهض للأغيار في هذه المسألة، اصبح تمييزاً نظرياً الى حد كبير، في ضوء الفتوى (التي شُرحت في الفصل الثالث)، والتي تسمح في الواقع، بتقاضي الفائدة حتى من مدين يهودي. ولكن ما زال الامر على حاله بالنسبة الى التوصية بمنح يهودي قرضاً من دون فائدة كعمل احسان، ولكن تقاضي الفائدة من مدين من الاغيار امر مُلزم . وفي الواقع، تعتبر مراجع حاخامية عديدة ـ وان ليس جميعها ـ ومن بينهم بن ميمون، ان فرض اقصى ما يمكن من الربا، على قرض يُعطى لاحد الاغيار، هو واجب مُلزم.

٣ ـ الاملاك المفقودة:

اذا عثر يهودي على متاع يُرجّح بان مالكه يهودي، فهو ملزم الزاماً صارماً، ببذل جهد ايجابي لاعادة ما عثر عليه بالابلاغ عنه علناً. وعلى العكس من ذلك، فان التلمود والمراجع الحاخامية القديمة كافة، لا تسمح لليهودي الذي يعثر على غرض مفقود من احد الاغيار، بالاستيلاء على هذا الغرض فحسب، بل تمنعه، او تمنعها، في الواقع، من اعادته[٤٨]. ولكن في الازمنة الاحدث، عندما شُرّعت في معظم

البلدان، القوانين التي تُلزم باعادة الاغراض المفقودة، اصدرت المراجع الحاخامية تعليمات لليهود بفعل ما تقضي به هذه القوانين، كعمل ينطوي على طاعة مدنية للدولة ـ ولكن ليس كواجب ديني، اي من دون بذل جهد ايجابي من اجل اكتشاف المالك اذا كان من غير المرجّح بانه يهودي.

٤ ـ الخداع في العمل التجاري:

تُعتبر ممارسة الخداع من اي نوع كان، على اليهودي معصية خطيرة.

وتُمنع ايضاً، ممارسة الخداع المباشر، ضد الاغيار فحسب، ولكن يُسمح بممارسة الخداع غير المباشر ضدهم، الا اذا كان من المحتمل ان يسبب ذلك اثارة العداء نحو اليهود او اهانة الديانة اليهودية. والمثل النموذجي على ذلك، هو اجراء الحساب الخاطئ للسعر خلال عملية الشراء. فاذا ارتكب اليهودي خطأ في غير صالحه فالواجب الديني يفرض على المرء ان يصححه. اما اذا لوحظ احد الاغيار يرتكب مثل هذا الخطأ، فلا حاجة للمرء ان يجعله يعرف ذلك، بل عليه ان يكتفي بالقول «انني اعتمد على حساباتك»، وذلك تحسباً لاثارة عدائه في حال اكتشافه لخطأه فيما بعد.

٥ ـ الاحتيال:

تُحظّر ممارسة الغش على يهودي ببيعه، او بالشراء منه، بسعر غير معقول؛ الا ان «الغشّ لا ينطبق على الاغيار، لانه كُتب: «لا يغش احدنا أخاه» [٤٩]، ولكن اذا اقدم احد الاغيار على غش يهودي، ينبغي اجباره على دفع ثمن احتياله، ولكن ينبغي الا يُعاقب بقسوة اشد من عقوبة اليهودي [في حالة مماثلة] [٥٠]».

٦ ـ السرقة والسلب:

ان السرقة (من دون عنف)، ممنوعة منعاً باتاً ـ «حتى [السرقة] من احد الاغيار»، كما يقولها بشكل لطيف جداً، «شولحان عاروخ». اما السلب (مع استخدام العنف) فممنوع منعاً باتاً، اذا كان الضحية يهودياً.

ولكن اقدام يهودي على سلب احد الاغيار ليس ممنوعاً منعاً باتاً، بل فقط في ظروف معينة كمثل «الا يكون الاغيار تحت حكمنا؛ ولكنه مسموح «عندما يكونون تحت حكمنا». وتختلف المراجع الحاخامية فيما بينها، حول التفاصيل الدقيقة للظروف التي يجوز فيها لليهودي سلب احد الاغيار، ولكن الجدال بكامله، معني فقط بالقوة النسبية لليهود والاغيار، اكثر مما هو معني بالاعتبارات الجامعة لقيم العدالة والانسانية. وقد يُفسر سبب احتجاج هذا العدد القليل جداً من الحاخامات على سلب الممتلكات الفلسطينية في اسرائيل: فقد ساندته قوة يهودية ساحقة.

الاغيار في ارض اسرائيل

يوجد في الهالاخاه، بالاضافة الى القوانين العامة المعادية للاغيار، قوانين خاصة ضد الاغيار الذين يعيشون على ارض اسرائيل، او الذين يمرون عبرها، في بعض الحالات فحسب. وهذه القوانين مكرسة لتعزيز التفوق اليهودي في هذه البلاد.

والتعريف الجغرافي الدقيق لمصطلح «ارض اسرائيل»، هو موضوع جدال شديد في التلمود وفي الادب التلمودي، وقد استمر هذا الجدل في الازمنة الحديثة بين مختلف اتجاهات الرأي الصهيونية. فبالنسبة الى وجهة نظر الحد الاقصى، تشمل ارض اسرائيل (بالاضافة الى فلسطين نفسها)، ليس فقط كامل سيناء والاردن وسوريا ولبنان، ولكن اجزاء كبيرة ايضاً من تركيا[٥١]. ولكن تفسير «الحد الادنى» الاكثر شيوعاً، يضع الحدود الشمالية «فقط» عند منتصف الطريق عبر سوريا ولبنان، عند خط العرض لمدينة حمص. وكان بن ـ غوريون يؤيد وجهة النظر هذه. الا ان حتى هؤلاء الذين يستثنون، على هذا النحو، اجزاء من سوريا ـ لبنان، يتفقون في الرأي بان بعض القوانين التمييزية الخاصة (ولو انها قوانين اقل قمعية من تلك المعمول بها في ارض اسرائيل بالذات)، هي قوانين تنطبق على الاغيار في تلك الانحاء، لان تلك الاراضي كانت ضمن نطاق مملكة داود. كما ان جزيرة قبرص، في التفسيرات التلمودية كافة، تدخل ضمن نطاق ارض اسرائيل.

وسوف اسجل الآن، قائمة ببعض القوانين الخاصة المتعلقة بالاغيار في ارض اسرائيل. وسوف تكون صلتها بالممارسة الصهيونية الفعلية ظاهرة تماماً.

تمنع الهالاخاه اليهود من بيع الممتلكات غير المنقولة ـ كالحقول والبيوت ـ في ارض اسرائيل، الى الاغيار. اما في سوريا، فيسمح ببيع البيوت (ولكن ليس الحقول).

ويُسمح بتأجير منزل في ارض اسرائيل لاحد الاغيار، بشرطين اثنين. الشرط الاول، الا يُستخدم هذا المنزل للسكن بل لاغراض اخرى، مثل التخزين. والشرط الثاني، الا تؤجر للاغيار، ثلاثة منازل مجاورة او اكثر، ايجاراً من هذا النوع.

وتُفسّر هذه الاحكام وغيرها، كالتالي: «حتى لا تسمح لهم بالتخييم على الارض، لانهم عندما لا يملكون الارض، فان مكوثهم هناك سوف يكون مؤقتاً»(٥٢). ويجوز التسامح حتى تجاه الوجود المؤقت للاغيار ولكن فقط «عندما يكون اليهود في المنفى، او عندما يكون الاغيار اقوى من اليهود»، ولكن يُحظر علينا، عندما يكون اليهود اقوى من الاغيار، القبول بعابد الاوثان في وسطنا؛ ولن يُسمح حتى للمقيم المؤقت او التاجر المتجول، بالمرور عبر ارضنا، ما لم يقبل بتعاليم نوح السبعة،(٥٣) لانه كُتب: «ولن يقيموا في ارضك»،(٥٤) اي ولا حتى بصفة مؤقتة. فاذا قبل بتعاليم نوح السبعة، يصبح غريباً مقيماً، ويحظر منحه مكانة الغريب المقيم الا في الاوقات التي يُقام فيها مهرجان الفرح [اي عندما يقوم الهيكل وتُقدّم القرابين]. اما خلال الازمنة التي لا تقام فيها مهرجانات الفرح، فيُحظر القبول باي شخص لم يتحوّل تحولاً كاملاً الى اعتناق اليهودية(٥٥).

ويتّضح بالتالي ـ وتماماً كما يقول قادة حركة غوش ايمونيم والمتعاطفون معها ـ بان السؤال برمته، حول الكيفية التي ينبغي ان يُعامل بها الفلسطينيون، هو بحسب الهالاخاه، مجرد مسألة القوة اليهودية: فاذا كان لليهود القوة الكافية، فان واجبهم الديني يقتضي منهم عندئذ، طرد الفلسطينيين.

وغالباً ما يستشهد الحاخامات الاسرائيليون واتباعهم المحمّسون، بهذه

القوانين. وعلى سبيل المثال، فقد استشهد المؤتمر الحاخامي الذي انعقد عام ١٩٧٩، لمناقشة اتفاقات كامب ديفيد، استشهاداً وقوراً، بالقانون الذي يمنع تأجير الاغيار ثلاثة منازل متجاورة. واعلن هذا المؤتمر ايضاً، بان حتى «الحكم الذاتي» الذي كان بيغن مستعداً لتقديمه الى الفلسطينيين، هو بحسب الهالاخاه، حكم ذاتي ليبرالي اكثر من اللزوم. ونادراً ما يطعن «اليسار» الصهيوني بتصريحات من هذا النوع - وهي تصريحات تحدد في الواقع، موقف الهالاخاه تحديداً صحيحاً.

وبالاضافة الى مثل هذه القوانين التي ذُكرت حتى الآن، والموجهة ضد الاغيار كافة في ارض اسرائيل، ينشأ تأثير يفوقها شرّاً، من القوانين الخاصة ضد الكنعانيين القدامى، وغيرهم من الشعوب التي عاشت في فلسطين قبل ان يفتحها يوشع، وضد العماليق ايضاً. فكل هذه الشعوب يجب ان تُباد ابادة كاملة، ويكرر التلمود والادب التلمودي هذا الحضّ التوراتي على الابادة الجماعية بحماسة حتى اشد من حماسة التوراة. ويُماثل الحاخامات النافذون الذين لهم اتباع كُثر في وسط ضباط الجيش الاسرائيلي، يماثلون الفلسطينيين، (او حتى العرب جميعاً)، بتلك الشعوب القديمة، بحيث تكتسب وصايا من نوع وصية «ولن تُبقي حياً اي شيء يتنفس»[٥٦]، معنى له صلة بالوضع الحاضر. ومن المألوف في الواقع، ان تُلقى في جنود الاحتياط الذين يجري استدعاؤهم لدورة خدمة في قطاع غزة، «محاضرات تثقيفية» يُقال لهم فيها بان فلسطينيي غزة «يشبهون العماليق». ولقد استشهد، احد الحاخامات الاسرائيليين المهمين، استشهاداً وقوراً، بآيات توراتية تحضّ على الابادة الجماعية للميديين[٥٧]، من اجل ان يبرر مجزرة قبية[٥٨]، وقد احرزت هذه الفتوى تداولاً واسع النطاق في وسط الجيش الاسرائيلي. وهناك امثلة مشابهة كثيرة، على التصريحات الحاخامية المتعطشة للدماء، المناهضة للفلسطينيين والتي تستند الى هذه القوانين.

المعاملة السيئة

اود تحت هذا العنوان، ان ابحث في امثلة على القوانين الهالاخية لا يكمن اثرها الابلغ اهمية في كونها توصي بممارسات تمييز محددة، معادية للاغيار، بقدر ما

يكمن في غرس موقف ينم عن الازدراء والكراهية تجاه الاغيار. ولذلك، فانني لن احصر نفسي في هذا الجزء، بالاقتباس من المصادر الهالاخية المعتمدة اكثر من غيرها (كما فعلت حتى الآن)، بل سأضمنه ايضاً، اعمالاً ليست اساسية بالقدر نفسه، الا انها تُستخدم استخداماً واسعاً في التعليم الديني.

دعونا نبدأ اذن، بنصٍ لبعض الصلوات الشائعة. ففي احد الاجزاء الاولى لصلاة الصباح اليومية، يوجه كل يهودي تقي الحمد لله لانه لم يجعله واحداً من الاغيار.(٥٩) اما الجزء الختامي للصلاة اليومية،(الذي يُستخدم ايضاً، في القسم الاكثر جلالة، في قداس رأس السنة ويوم الغفران)، فيبدأ بالقول: «وعلينا ان نحمد اله الجميع... لانه لم يجعلنا مثل شعوب الارض [كافة]... لانها تنحني امام الخيلاء والعدم وتُصلي لاله لا يُعين»(٦٠). ولقد جرى حذف العبارة الاخيرة من كتب الصلاة، ولكنها كانت تُتلى شفهياً، في اوروبا الشرقية. وقد أُعيدت الآن، هذه العبارة، الى العديد من كتب الصلاة المطبوعة في اسرائيل. علاوة على ذلك، يوجد في اهم جزء من صلاة ايام الاسبوع - المباركات الثماني عشرة - لعنة خاصة موجهة بالاصل، ضد المسيحيين، وضد اليهود الذين تحولوا الى اعتناق المسيحية، وغيرهم من اليهود المارقين عن الدين: «وليفقد المرتدّون(٦١) كل امل، وليهلك جميع المسيحيين على الفور». وتعود هذه الصيغة الى نهاية القرن الاول عندما كانت المسيحية ما تزال طائفة صغيرة مضطهدة. ولقد جرى تلطيفها في وقت من الاوقات، سابق للقرن الرابع عشر، لتصبح :«وليفقد المرتدّون كل امل، وليهلك جميع المارقين عن الدين(٦٢) على الفور»؛ ومن بعد ممارسة ضغوط اضافية، اصبحت الصيغة: «وليفقد المخبرون كل امل، وليهلك جميع المارقين عن الدين، فوراً». ومن بعد انشاء اسرائيل، انعكست العملية، وعادت كتب صلاة كثيرة، طُبعت حديثاً، الى الصيغة الثانية التي اوصى بها ايضاً، العديد من المعلمين في المعاهد الدينية الاسرائيلية. وبعد العام ١٩٦٧، اعادت عدة تجمعات للمصلين، القريبة من حركة غوش ايمونيم، الصيغة الاولى (شفهياً حتى الآن وليس طباعة)، وهي تصلي اليوم «لاجل الهلاك الفوري» للمسحيين. ولقد جرت هذه العودة الى الحالة السابقة، في الفترة التي حذفت فيها الكنيسة الكاثوليكية

(في عهد البابا يوحنا الثالث والعشرين)، من قداس الجمعة الحزينة، الصلاة التي تطلب فيها من الرب، رحمة اليهود والمارقين عن الدين، الخ. فقد كانت هذه الصلاة، صلاة يعتبرها معظم القادة اليهود منفّرة وحتى معادية للسامية.

وينبغي لليهودي التقي، وبمعزل عن الصلوات اليومية الثابتة، ان يتلو دعوات مختصرة خاصة في مناسبات مختلفة، الحسنة منها والسيئة، (اثناء ارتدائه لباساً جديداً، مثلاً، او اثناء تناوله ثمرة موسمية للمرة الاولى في السنة، او عندما يشاهد برقاً شديداً، او يسمع نبأ شيء، الخ). وتعمل بعض هذه الصلوات العرضية على غرس مشاعر الكراهية والازدراء تجاه الاغيار كافة. وقد سبق ان ذكرنا في الفصل الثاني القاعدة التي توجب على اليهودي التقي اطلاق اللعنة عندما يمر بالقرب من مقبرة للاغيار، ولكنها توجيه على حمد الله عندما يمر بالقرب من مقبرة يهودية. وهناك قاعدة مماثلة تنطبق على الاحياء؛ وهكذا، عندما يشاهد يهودي تقي حشداً من السكان اليهود عليه ان يحمد الله، ولكنه عندما يشاهد حشداً من السكان الاغيار عليه ان يطلق لعنة. وحتى المباني ليست معفاة: فالتلمود يقضي[٦٣] على اليهودي الذي يمر بالقرب من مسكن يقطنه غير يهود، بان يطلب الى الله تدميره، اما اذا كان المبنى مدمّراً فعليه ان يشكر اله الانتقام. (والقواعد بالطبع معكوسة بالنسبة الى مساكن اليهود). ولقد كان التقيّد بهذه القواعد سهلاً، إنْ على الفلاحين اليهود الذين كانوا يعيشون في القرى الخاصة بهم، ام على الجاليات المدينية الصغيرة التي تعيش في بلدات او احياء جميع سكانها من اليهود. ولكن التقيّد بهذه القاعدة اصبح متعذراً في ظروف اليهودية الكلاسيكية، ولذلك حُصرت القاعدة بالكنائس واماكن العبادة الخاصة بالديانات الاخرى (باستثناء الاسلامية منها)[٦٤]. وعلى هذا الصعيد، ادت العادات الى المغالاة بالتقيد بهذه القاعدة: فقد اصبح مألوفاً ان يبصق اليهودي (ثلاث مرات عادة) لدى مشاهدته لكنيسة او صليب؛ كتنميق للصيغة الالزامية للاسف[٦٥]. وكانت تُضاف احياناً، آيات توراتية مهينة ايضاً[٦٦].

وتوجد ايضاً سلسلة من القواعد التي تمنع اي عبارة من عبارات المديح للاغيار ولاعمالهم الا حيثما كان مثل هذا المديح ينطوي على مديح اكبر منه لليهود والاشياء

اليهودية. وما زال اليهود الارثوذوكس يتقيدون بهذه القاعدة. فعندما اجرت الاذاعة الاسرائيلية، على سبيل المثال، مقابلة مع الكاتب عجنون لدى عودته من ستوكهولم، حيث تسلّم جائزة نوبل للآداب، امتدح عجنون الاكاديمية السويدية ولكنه سارع ليضيف قائلاً: «لا يغرب عن بالي بان مدح الاغيار محظور، ولكن يوجد سبب خاص هنا لمدحي لهم» - اي ان الاكاديمية منحت الجائزة ليهودي.

وعلى نحو مماثل، يحظر على اليهود المشاركة في اي مظهر من مظاهر الابتهاج العام للاغيار الا حينما يكون في الامتناع عن المشاركة، احتمال بالتسبب في «عداء» تجاه اليهود، فيجوز في هذه الحال، اظهار درجة من الابتهاج «في حدها الادنى».

وبالاضافة الى القواعد التي ذكرناها حتى الآن، توجد قواعد كثيرة اخرى، يعمل تأثيرها على كبح قيام علاقة صداقة انسانية بين اليهود والاغيار. وسوف اذكر مثالين اثنين على ذلك: الاول، قاعدة سكب نبيذ القربان؛ والثاني، اعداد الطعام للاغيار في الايام المقدسة اليهودية.

فمن جهة، يتوجب على اليهودي الامتناع عن شرب نبيذ شارك احد الاغيار في اعداده، بأي شكل من الاشكال. ويصبح النبيذ في زجاجة مفتوحة محرّماً، حتى ولو كان قد اعده يهود فقط، في حال اقدم احد الاغيار على لمس الزجاجة، او مرّر يده من فوقها. اما السبب الذي يعطيه الحاخامات لذلك، فهو ان الاغيار كافة ليسوا عُبّاد اصنام فحسب، بل ينبغي، بالاضافة الى ذلك، ان نفترضهم خبثاء، بحيث انهم قد يُقدمون (بهمسة او باشارة، او فكرة) على تكريس اي نبيذ على وشك ان يحتسيه يهودي، نبيذاً «يُسكب كقربان للصنم الذي يعبدون» وتنطبق هذه الشرعة بتشدد كامل، على المسيحيين جميعاً، وعلى المسلمين ايضاً، ولكن بشكل مُخفف قليلاً. (وينبغي ان يُراق محتوى الزجاجة التي لمسها المسيحي، ولكن يمكن بيعها او اهداؤها لأي كان، اذا لمسها مسلم، الا انه لا يجوز ان يحتسي اليهودي نبيذها). وتنطبق هذه الشرعة على حد سواء، على الملحدين من الاغيار (لان المرء لا يملك التأكد من انهم لا يتظاهرون مجرد تظاهر بالالحاد)، ولكنها لا تنطبق على الملحد من اليهود.

وتنطبق الشرائع ضد العمل ايام السبت، على الايام المقدسة الاخرى، ولكن بدرجة اقل. ويجوز بصفة خاصة، في يوم من الايام المقدسة التي لا تصادف في يوم سبت، القيام بأي عمل يتطلبه اعداد الطعام ليؤكل اثناء الايام المقدسة او العادية. ويعرّف الشرع هذا العمل كاعداد لـ «طعام النفس»؛ ولكن «النفس» تُفسّر على انها تعني «اليهودي»، ويُستثنى «الاغيار» و«الكلاب» استثناء صريحاً(٦٧). ولكن هناك فتوى لصالح الاغيار النافذين الذين يمكن لـ«عدائهم» ان يكون خطيراً: يجوز اعداد الطعام في يوم من الايام المقدسة، لزائر ينتمي الى هذه الفئة من الناس، شرط الا يُشجّع تشجيعاً فعلياً، على القدوم لتناول الطعام.

ولكل هذه الشرائع ـ عدا عن تطبيقها بالممارسة ـ تأثير مهم يكمن في الموقف الناجم عن دراستها، التي تعتبرها اليهودية الكلاسيكية، كجزء من دراسة الهالاخاه، واجباً دينياً سامياً. وهكذا، يتعلم اليهودي الارثوذوكسي من مطلع شبابه، وكجزء من دراساته المقدسة، بان الاغيار يضاهون الكلاب، وبان مدحهم معصية من المعاصي، وهلمجرا. وفي الواقع، فان للكتب التعليمية للمبتدئين على هذا الصعيد، تأثيراً اسوأ من تأثير التلمود ومجموعة الشرائع التلمودية العظيمة. واحد اسباب ذلك ان مثل هذه الكتب التعليمية الابتدائية تعطي تفسيرات مفصّلة اكثر، وقد صيغت بصورة تتوخى التأثير في اذهان صغار السن وغير المتعلمين. ولقد اخترت من بين عدد كبير من الكتب من هذا النوع، الكتاب الاكثر شعبية في اسرائيل، في الوقت الحاضر، والذي اعيدت طباعته في طبعات رخيصة عديدة، بدعم مالي كبير من الحكومة الاسرائيلية. انه «كتاب التربية» الذي كتبه حاخام مجهول الهوية، في اسبانيا، في اوائل القرن الرابع عشر. فهو يشرح ٦١٣ واجباً من الواجبات الدينية الملزمة، في اليهودية، وبالترتيب الذي يفترض ان ترد فيه في الاسفار الخمسة بالتوراة، بحسب التفسير التلمودي (الذي بُحث في الفصل الثالث). ويدين هذا الكتاب بتأثيره وشعبيته الدائمين ، الى الاسلوب العبري الواضح والسهل الذي كُتب به.

ان هدفاً تعليمياً مركزياً من اهداف هذا الكتاب هو التشديد على المعنى «الصحيح» للتوراة، بالنسبة الى مصطلحات مثل «قرين» و«صديق» و«رجل» (والتي

اشرنا اليها في الفصل الثالث). وهكذا، فان الفقرة رقم ٢١٩، المكرّسة للواجبات الدينية الملزمة، الناشئة عن الآية القائلة «احب قرينك كما تحب نفسك»، وردت بعنوان: «الواجب الديني الذي يُلزم بمحبة اليهود»، ونفسرها كما يلي:

«ان نحب كل يهودي محبة شديدة، يعني بان علينا ان نعتني باليهودي وماله تماماً كما يعتني المرء بنفسه وماله، لانه كُتب:«احب قرينك كنفسك»، ولان حكماءنا الطيبي الذكر، قالوا: «لا تفعل لصديقك ما هو كريه لك» ويتأتى عن ذلك العديد من الواجبات الدينية الملزمة الاخرى، لان من يحب صديقه كما يحب نفسه، لن يسرق ماله او يزني مع زوجته، او يحرمه من ماله، او يخدعه بالكلام، او يسرق ارضه، او يؤذيه بأي شكل من الاشكال. كما ان العديد من الواجبات الدينية الملزمة الاخرى، تعتمد على ذلك، كما يعرف اي رجل عاقل».

وفي الفقرة ٣٢٢ التي تتناول واجب الابقاء على العبيد من الاغيار مستعبدين الى الابد (فيما ينبغي تحرير العبد اليهودي بعد سبع سنوات)، يُعطى التفسير التالي:

«تكمن في اساس هذا الواجب الديني الملزم [حقيقة ان] الشعب اليهودي هو افضل الاجناس البشرية، وقد خُلق ليعرف خالقه ويعبده، وهو يستحق امتلاك العبيد لخدمته. فاذا لم يكن لديهم عبيد من شعوب اخرى سيكون عليهم استعباد اشقائهم الذين لن يعودوا قادرين بالتالي، على خدمة الرب، المبارك هو. ولذلك نحن مأمورون بامتلاك هؤلاء لخدمتنا، بعد ان يجري اعدادهم لذلك، وبعد ازالة روح عبادة الشخص من كلامهم حتى لا يكون هناك خطر في بيوتنا[٦٨]. وهذا هو القصد من الآية القائلة «ولكنكم على اشقائكم، ابناء اسرائيل، لن تحكّموا الواحد على الآخر بقسوة[٦٩]»، حتى لا يكون عليكم استعباد اشقائكم، المستعدين جميعاً لعبادة الله».

وفي الفقرة ٥٤٥، التي تتناول الواجب الديني المُلزم بتقاضي الفائدة على مال أقرض للاغيار، يرد القانون كالتالي: «باننا مأمورون بالمطالبة بالفائدة من الاغيار عندما نقرضهم المال، وعلينا الا نقرضهم بدون فائدة». اما التفسير فهو التالي:

«يكمن في اساس هذا الواجب الديني المُلزم وجوب عدم قيامنا بأي عمل ينطوي

على الرحمة الا للشعب الذي يعرف الله ويعبده؛ وعندما نمتنع عن القيام بعمل ينطوي على الرحمة لسائر البشرية، ونفعل ذلك فقط للشعب الذي يعرف الله ويعبده، فان هذا امتحان لنا، لادراكنا بان الجزء الرئيسي لفعل محبتنا لهم ورحمتنا بهم يعود لكونهم يتبعون ديانة الله، مبارك هو. واشهدوا، ان جزاءنا [من الله] على قصدنا هذا، عندما نحجب الرحمة عن الآخرين، يساوي جزاءنا على قيامنا [باعمال رحيمة] لافراد شعبنا».

ونجد تمييزات مشابهة في فقرات اخرى عديدة. ففي تفسيره للحظر ضد التأخر في دفع اجر العامل (في الفقرة ٢٣٨) يحرص المؤلف على الاشارة الى ان المعصية هي خطورة اذا كان العامل من الاغيار. اما الحظر ضد السباب (في الفقرة ٢٣٩) فهو يرد بعنوان «الامتناع عن لعن اي يهودي، رجلاًكان ام امرأة». وعلى نحو مماثل، فان التحريمات ضد اسداء النصح المضلل، وكراهية الآخرين، وخزيهم او الانتقام منهم (في الفقرات ٢٤٠و ٢٤٥ و٢٤٦و ٢٤٧) تنطبق فقط على الاقران اليهود ويعني الحظر المفروض على اتباع عادات الاغيار (الفقرة ٢٦٢)، ان اليهود لا يتوجب عليهم «الابتعاد» عن الاغيار فحسب، ولكن يتوجب عليهم ايضاً، «الطعن بتصرفاتهم كافة، وحتى لباسهم».

وينبغي ان نشدد على ان التفسيرات المقتبسة اعلاه، لا تمثل تعاليم الهالاخاه تمثيلاً صحيحاً. وهذا ما يعرفه جيداً الحاخامات، بل ما هو اسوأ من ذلك، يعرفه جيداً «علماء اليهودية» المدافعون عن العقيدة الدينية، ولهذا السبب لا يحاولون المجادلة ضد وجهات النظر هذه، داخل المجتمع اليهودي؛ وهم بالطبع، لا يأتون على ذكرها ابداً، خارج هذا المجتمع. وعوضاً عن ذلك، فهم يذمّون اي يهودي يثير هذه الامور على مسمع من الاغيار، ويصدرون نفياً مضللاً يبلغ فيه فنّ الالتباس ذروته. انهم يعلنون على سبيل المثال، مستخدمين مصطلحات عامة، الاهمية التي تعلقها اليهودية على الرحمة؛ ولكن ما ينسون الاشارة اليه، هو ان «الرحمة» بحسب الهالاخاه، تعني الرحمة تجاه اليهود.

ويعرف اي شخص يعيش في اسرائيل كم هي عميقة مواقف الكراهية

والوحشية هذه، تجاه الاغيار كافة، وكم هي منتشرة في وسط اكثرية اليهود الاسرائيليين. وهذه المواقف محجوبة عادة، عن العالم الخارجي، ولكننا نجد ان اقلية مهمة من اليهود في اسرائيل وخارجها، اصبحت تدريجاً، ومنذ انشاء دولة اسرائيل، وحرب ١٩٦٧، وصعود مناحم بيغن الى السلطة، اكثر صراحة حول مثل هذه الامور. وباتت التعاليم اللاانسانية، التي تُعتبر العبودية بموجبها، القسمة والنصيب «الطبيعي» للاغيار، تُقتبس علناً في اسرائيل، في السنوات الاخيرة، حتى على شاشة التلفزيون، من قبل المزارعين اليهود الذين يستغلون العمال العرب، وخصوصاً عمل الاولاد. ولقد استشهد زعماء غوش ايمونيم بالتعاليم الدينية التي تفرض على اليهود اضطهاد الاغيار، كتبرير لمحاولة اغتيال رؤساء البلديات الفلسطينيين، وكتفويض إلهي لخطتهم الخاصة بطرد العرب كافة من فلسطين.

وفيما يرفض العديد من الصهيونيين هذه المواقف سياسياً، فان حججهم المضادة القياسية تقوم على اساس اعتبارات مساعفة للمصلحة الخاصة وللمصلحة الذاتية اليهودية، اكثر منها على اساس المبادئ السليمة الجامعة للانسانية والاخلاق. فهم، على سبيل المثال، يجادلون بالقول بان استغلال الاسرائيليين للفلسطينيين واضطهادهم، من شأنه ان يفسد المجتمع الاسرائيلي، او ان طرد الفلسطينيين امر متعذر في ظل الظروف السياسية الحاضرة، او ان اعمال الارهاب الاسرائيلية ضد الفلسطينيين، من شأنها ان تعزل اسرائيل على الصعيد الدولي. ولكن الصهيونيين كافة عملياً - وخصوصاً «اليسار» الصهيوني - يتشاركون مبدئياً، في المواقف المعادية عداء عميقاً للاغيار، التي تشجعها اليهودية الارثوذكسية بقوة.

المواقف تجاه المسيحية والاسلام

لقد اوردنا فيما سبق ، عدداً من الامثلة على المواقف الحاخامية تجاه هاتين الديانتين، بصورة عابرة. ولكنه سيكون مفيداً إذا أوجزنا هذه المواقف هنا.

ان اليهودية مُشبعة بكراهية عميقة جداً تجاه المسيحية، مقترنة بجهل لها. ومن الواضح بان الاضطهادات المسيحية لليهود فاقمت حدّة هذا الموقف، ولكنه موقف

مستقل عنها الى حد بعيد؛ فهو يعود في الواقع، الى الزمن الذي كانت فيه المسيحية ما تزال ضعيفة ومضطهدة (ولا سيّما من قبل اليهود). وقد شارك في هذا الموقف اليهود الذين لم يتعرضوا لاضطهاد المسيحيين في يوم من الايام، او حتى من اليهود الذين ساعدهم المسيحيون. وهكذا، كان بن ميمون خاضعاً لاضطهاد المسلمين في نظام الموحدين، فهرب منهم الى مملكة القدس الصليبية اولاً، ولكن هذا لم يغير وجهات نظره قط. وهذا الموقف السلبي العميق يقوم على عنصرين رئيسيين اثنين.

العنصر الاول، كراهية السيد المسيح والافتراءات الخبيثة ضده. وينبغي بالطبع ان نميّز تمييزاً واضحاً، بين النظرة التقليدية لليهودية الى السيد المسيح، وبين الخلاف السخيف بين المعادين للسامية والمدافعين اليهود، حول «المسؤولية» عن اعدامه. ويعترف معظم العلماء المحدثين لتلك الفترة، بعدم توفر معرفة تاريخية دقيقة للظروف المحيطة باعدام السيد المسيح، بسبب النقص في الروايات الاصلية والمعاصرة، والتأليف المتأخر للاناجيل، والتناقضات فيما بينها. وفي اي حال، فان فكرة الذنب الجماعي والموروث، فكرة خبيثة لا يقبلها العقل. الا ان الموضوع هنا، ليس الحقائق الفعلية عن السيد المسيح، بل التقارير غير الدقيقة وحتى المفترية، في التلمود وفي الادب التلمودي من بعده ـ والتي اعتقد بها اليهود حتى القرن التاسع عشر، وما زال الكثيرون منهم، خصوصاً في اسرائيل، يعتقدون بها. لان هذه التقارير، لعبت بالتأكيد، دوراً مهماً في بلورة الموقف اليهودي من المسيحية.

فبحسب التلمود، اعدم السيد المسيح بحكم من محكمة حاخامية بتهمة عبادته للاصنام وتحريض اليهود الآخرين على عبادة الاصنام، واحتقاره السلطة الحاخامية. والمصادر اليهودية الكلاسيكية كافة التي تذكر اعدامه، سعيدة تماماً بتحمل مسؤولية ذلك؛ حتى ان الرواية التلمودية لم تأت على ذكر الرومان.

اما الروايات الاكثر شعبية ـ والتي تؤخذ مع ذلك على محمل الجد التام ـ مثل «قصة يسوع» (تولدوت يشو)، الشهيرة، فهي حتى اسوأ من سابقاتها، اذ انها، بالاضافة الى الجرائم المذكورة اعلاه، تتهمه بممارسة السحر. ولقد كان اسم «يسوع» بحد ذاته، بالنسبة الى اليهود، رمزاً لكل ما هو بغيض، وما زال هذا التقليد

الشعبي مستمراً[٧٠]. كما ان الاناجيل ممقوتة على حد سواء، ولا يُسمح بالاقتباس منها (ناهيك عن تعليمها) حتى في المدارس اليهودية الاسرائيلية العصرية.

والعنصر الثاني هو ان التعليم الحاخامي، ولاسباب لاهوتية يكمن معظمها في الجهل، يصنف الديانة المسيحية كديانة عبادة الاصنام. وهذا الامر يستند الى التفسير الفظّ للمعتقدات المسيحية حول الثالوث الاقدس والتجسّد.

وتُعتبر الرموز والتمثيلات المصوّرة المسيحية كافة «اوثاناً» حتى من قبل هؤلاء اليهود الذين يعبدون لفائف المخطوطات القديمة والحجارة او المتاع الشخصي لـ«الرجال المقدسين».

اما موقف اليهودية من الاسلام فهو على عكس ذلك، موقف معتدل نسبياً. وعلى الرغم من ان الصفة المبتذلة التي تصف بها النبي محمد، هي صفة «الرجل المجنون» (ميشوغا) الا انها لم تكن صفة سيئة تقريباً بالحد الذي تبدو فيه اليوم، ولكنها تهون في اي حال، امام المصطلحات البذيئة التي تُطلق على السيد المسيح. وعلى نحو مماثل، فان القرآن ـ وعلى عكس العهد الجديد ـ ليس محكوماً عليه بالحرق. وهو ليس مكرّماً مثل تكريم الشريعة الاسلامية للمخطوطات اليهودية المقدسة، ولكنه يعامل معاملة الكتاب العادي. وتتفق معظم المراجع الحاخامية في الرأي، على ان الاسلام ليس عبادة اوثان (على الرغم من ان بعض قادة غوش ايمونيم اليوم، يختارون تجاهل ذلك). ولذلك، تحكم الهالاخاه بضرورة ألا يلجأ اليهود الى معاملة المسلمين معاملة اسوأ من معاملتهم للاغيار «العاديين». ولكن ألا يعاملونهم معاملة افضل ايضاً. ويمكننا مرة اخرى، ان نستخدم بن ميمون كنموذج توضيحي. فهو يقول صراحة، بان الاسلام ليس عبادة اصنام، وهو يستشهد في اعماله الفلسفية، وباحترام كبير، بالعديد من المراجع الفلسفية الاسلامية. ولقد كان بن ميمون، كما كنت قد ذكرت سابقاً، الطبيب الخاص لصلاح الدين وعائلته، وقد عُيّن، بامر من صلاح الدين، زعيماً ليهود مصر كافة. ومع ذلك، فان القواعد التي يضعها ضد انقاذ حياة الاغيار (الا لتفادي الخطر على اليهود) تنطبق على المسلمين، على حد سواء.

الحواشي

١ ـ بن ميمون، «ميشناه توراة»، «قوانين بشأن القتلة»، ٢، ١١؛ الموسوعة التلمودية، «الاغيار».

٢ ـ يوئيل سيركيس، «بيت حداش»، تعليق على «بيت يوسف»، «يوريه ديعا» ١٥٨. تنطبق القاعدتان المذكورتان حتى اذا كانت الضحية غير اليهودية «غير توشاف»، اي «مقيمة غريبة» اخذت على عاتقها امام ثلاثة شهود من اليهود، المحافظة على «وصايا نوح السبع» (وهي سبعة قوانين توراتية يعتبرها التلمود موجهة الى الاغيار).

٣ ـ الحاخام دافيد هاليفي (بولندا، القرن السابع عشر)، «ثوري زاهاف» حول «شولحان عاروخ، «يوريه ديعا» ١٥٨.

٥ ـ الموسوعة التلمودية، «غير» (تساوي: المتحول الى اليهودية).

٦ ـ انظر على سبيل المثال، الحاخام شبطاي كوهين (اواسط القرن السابع عشر)، «شيفتي كوهين» حول «شولحان عاروخ»، «يوريه ديعا» ١٥٨: «ولكن كانت العادة في زمن الحرب ان يقتلهم المرء بيديه هو، لانه قيل: «افضل الاغيار ـ اقتله!»«وشيفتي كوهين» و«توري زاهاف» (انظر الحاشية رقم ٣). وهذان المرجعان هما التعليقان الكلاسيكيان الرئيسيان على «شولحان عاروخ».

٧ ـ الكولونيل الحاخام أ. افيدان (زيميل)، «طهارة السلاح في ضوء الهالاخاه»، في «اعقاب حرب يوم الغفران ـ فصول التأمل والهالاخاه والابحاث»، قيادة المنطقة الوسطى، ١٩٧٣: كما هي مقتبسة في مجلة «هعولام هازيه»، ٥ كانون الثاني، ١٩٧٤؛ وقد اقتبسها ايضاً دافيد شاحام في «فصل التأمل»، في الملحق «حوتام»، ٢٨ آذار، ١٩٧٤؛ وافنون روبنشتاين، «من يزوّر الهالاخاه؟» في صحيفة «معاريف»، ١٣ تشرين الاول، ١٩٧٥. ويذكر روبنشتاين بان الكتيّب سُحب من التداول في وقت لاحق، بامر من رئيس الاركان، على افتراض بانه يشجع الجنود على عصيان

اوامره؛ ولكن روبنشتاين يشكو من عدم اخضاع الحاخام افيدان لمحاكمة عسكرية، كما ان اي حاخام ـ عسكري كان ام مدني ـ لم يعترض على ما كتبه افيدان.

٨ ـ الحاخام شمعون وايزر، «طهارة السلاح ـ رسائل متبادلة»، في «نيف هامدراشياه»، الكتاب السنوي لمدرسة نوعام، ١٩٧٤، ص. ٢٩ ـ ٣١. والكتاب السنوي مكتوب بالعبرية والانكليزية والفرنسية، ولكن المادة المقتبسة هنا مطبوعة بالعبرية فحسب.

٩ ـ المزامير، ٤١ : ٢.

١٠ ـ «امحوا ذكرى العماليق من تحت السماء»، سفر التثنية، ٢٥ : ١٩. ايضاً I صموئيل، ١٥: ٣ : «والآن، اذهبوا وابطشوا بالعماليق ودمروا تدميراً كلياً، كل ما يملكونه، ولا تُبقوا عليهم احياء؛ بل اذبحوا كلا من الرجل والامراة والطفل والرضيع والثور والكبش والجمل والحمار».

١١ ـ اننا نُريح القارئ من معظم هذه الاشارات والاقتباسات المعقدة جداً، من المصادر التلمودية والحاخامية. وقد وضعنا مكان كل ما هو محذوف هذه العلامة: [...]. ونشرنا الاستنتاجات الخاصة بالحاخام كاملة.

١٢ ـ ان «التوسافوت»، (ويعني حرفياً، الملاحق)، هو عبارة عن مجموعة من شروحات التلمود التي يعود تاريخها إلى فترة ما بين القرن الحادي عشر والقرن الثالث عشر.

١٣ ـ ان الاشخاص المذنبين بجرائم من هذا النوع يُسمح لهم بالارتقاء حتى الى مناصب عامة رفيعة. ومثالاً على ذلك، حالة شموئيل لاهيس الذي كان مسؤولاً عن مذبحة قُتل فيها بين ٥٠ و٧٥ فلاحاً عربياً، سُجنوا في مسجد بعدما غزا الجيش الاسرائيلي قريتهم خلال حرب ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩. فمن بعد احالته على محاكمة شكلية، مُنح لاهيس عفواً كاملاً بفضل شفاعة بن ـ غوريون. ومضى هذا الرجل في سبيله ليصبح محامياً محترماً، وفي اواخر السبعينات عُين مديراً عاماً للوكالة اليهودية (التي هي في الواقع، الهيئة التنفيذية للحركة الصهيونية). وفي اوائل العام ١٩٧٨، نوقشت في الصحافة الاسرائيلية، وعلى نطاق واسع، الحقائق المتعلقة بماضيه، ولكن لم يُقدم اي حاخام او عالم حاخامي، على التشكيك، لا في العفو ولا في اهليته لمنصبه الجديد. ولم يجر ابطال تعيينه.

١٤ ـ «شولحان عاروخ»، «حوشن مشبات» ٤٢٦.

١٥ ـ دراسة «عافودا زاراه»، ص ـ ٢٦ب.

١٦ ـ بن ميمون، مصدر مذكور سابقاً، «القتلة» ٤ : ١١.

١٧ ـ ليفيتيكوس، ١٩ : ١٦. حول جعل «قرينك»، انظر الحاشية ١٤ للفصل الثالث.

١٨ ـ بن ميمون، مصدر مذكور سابقاً، «عبادة الاصنام» ١٠، ١ ـ ٢.

١٩ ـ في كلا الحالتين في قسم «يوريه ديعاه» ١٥٨. ويكرر «شولحان عاروخ» العقيدة نفسها في «حوشن مشبات» ٤٢٥.

٢٠ ـ موشيه ريفيكس، «بيتر هاغولاه» حول «شولحان عاروخ»، «حوشن مشبات» ٤٢٥.

٢١ ـ وهكذا يقتبس البروفسور يعقوب كاتس، في كتابه العبري «بين اليهود والاغيار»، وفي ترجمته الانكليزية، بنصها الاكثر تبريرية، وبعنوان «الحصرية والتسامح»، يقتبس فقط هذه الفقرة اقتباساً طبق الاصل، ليتوصل الى الاستنتاج المذهل القائل «بضرورة الا يكون هناك تمييز بين اليهودي والمسيحي فيما يتعلق بانقاذ الحياة». وهو لا يستشهد باي من الآراء المعتمدة التي ذكرتها اعلاه، او في الجزء التالي.

٢٢ ـ بن ميمون، مصدر مذكور سابقاً، «يوم السبت» ٢، ٢٠ ـ ٢١؛ «شولحان عاروخ»، «اوراح حاييم» ٣٢٩.

٢٣ ـ الحاخام عكيفا ايغر، تعليق على «شولحان عاروخ»، المصدر نفسه. وهو يضيف ايضاً، بانه اذا وُجد طفل في مدينة معظم قاطنيها من الاغيار، فيجب استشارة حاخام حول مسألة ما اذا كان ينبغي انقاذ الطفل ام لا.

٢٤ ـ دراسة «عافودا زاراة»، ص ـ ٢٦.

٢٥ ـ بن ميمون، مصدر مذكور سابقاً، «يوم السبت» ٢، ١٢؛ «شولحان عاروخ»، «أوراح حاييم» ٣٣٠، والذي ترد في نصّه كلمة «عابد الاوثان» وليس كلمة «الاغيار»؛ ولكن بعض المعلقين، كما في «ثوري زاهاف»، يشددون على ان هذه القاعدة تنطبق «حتى على الاسماعيليين»، اي على المسلمين «الذين ليسوا عبدة اوثان». والمسيحيون غير مذكورين صراحة في هذا الصدد، ولكن الحكم يجب بالضرورة، ان ينطبق عليهم بما انه يُنظر الى المسلمين ـ كما سنرى ادناه ـ نظرة

ايجابية اكثر مما يُنظر الى المسيحية. انظر ايضاً مؤلَف "responsa" لحاتام سوفير، المُستشهد به ادناه.

٢٦ ـ يذكر هذين المثالين من بولندا وفرنسا، الحاخام ي. ز. كهانا (الذي اصبح فيما بعد استاذ التلمود في جامعة بار ـ ايلان الدينية، في اسرائيل)، وذلك في «الطب في الادب الهالاخي ما بعد التلمود»، «سيناي»، المجلد ٢٧، ١٩٥٠، ص ـ ٢٢١. وهو يذكر ايضاً، الحالة التالية من ايطاليا القرن التاسع عشر: حتى العام ١٨٤٨، كان قانون خاص في الدول البابوية يحظر على الاطباء اليهود معالجة الاغيار.

ولقد الغت الجمهورية الرومانية التي انشئت في العام ١٨٤٨، هذا القانون مع القوانين الاخرى كافة التي تميز ضد اليهود. ولكن الحملة العسكرية التي جردها الرئيس الفرنسي لويس نابليون (الامبراطور نابليون الثالث فيما بعد)، في العام ١٨٤٩، هزمت هذه الجمهورية واعادت الى السلطة، البابا بيوس التاسع، الذي احيا هذه القوانين المناهضة لليهود. اما قادة الحامية الفرنسية، الذين اثارت اشمئزازهم هذه الرجعية المتطرفة، فقد تجاهلوا القانون البابوي وتعاقدوا مع بعض الاطباء اليهود لمعالجة جنودهم.

ولقد حدث ان سئل حاخام روما الرئيسي، موشيه حزان، الذي كان طبيباً بدوره، سئل عما اذا كان احد تلامذته، وهو ايضاً طبيب، يستطيع تولي وظيفة في مستشفى عسكري فرنسي على الرغم من مجازفة الاضطرار الى انتهاك حرمة السبت. وكان رد الحاخام بان عليه ان يرفض اذا كانت شروط الوظيفة تذكر صراحة العمل يوم السبت؛ ولكن اذا كانت الشروط لا تذكر ذلك فانه يستطيع تولي الوظيفة ويستخدم «الحذاقة العظيمة لليهود الذين يتقون الله». فهو يستطيع، على سبيل المثال، ان يكرر يوم السبت وصفة الدواء المعطاة يوم الجمعة بمجرد ان يقول للصيدلي ذلك. ويُذكر مقال الحاخام كهانا الصريح جداً، والذي يتضمن العديد من الامثلة الاخرى، في جدول اسماء المراجع لكتاب وضعه حاخام بريطانيا الرئيسي عمانوئيل جاكوبيتس، بعنوان Jewish Medical Ethics, Bloch, New York, 1962.

ولكن شيئاً لا يُقال عن هذه المسألة في الكتاب نفسه.

٢٧ ـ «حوكمات شلومو» عن «شولحان عاروخ»، «اوراح حاييم» ٣٣٠، ٢.

٢٨ ـ الحاخام اونترمان، هآرتس، ٤ نيسان، ١٩٦٦. وكان تحفظه الوحيد ـ بعد تعرضه

لضغط مستمر ـ هو ان رفض تقديم المساعدة الطبية للاغيار في ايامنا، يمكنه التسبب بدرجة من العداء قد تعرّض حياة يهود للخطر.

٢٩ ـ حاتام سوفير، «ريسبونسا» على «شولحان عاروخ»، «يوريه ديعاه» ١٣١.

٣٠ ـ مصدر مذكور سابقاً، حول «شولخان عاروخ»، حوشن مشبات» ١٩٤.

٣١ ـ الحاخام ب. نوبيلوفيتس في (مجلة حزب مزراحي في بريطانيا)،The Jewish, 8 June, 1996.

٣٢ ـ الحاخام يسرائيل مئير كاغان ـ المعروف بصورة افضل باسم حافيتس حاييم ـ يشكو في كتابه «ميشناه بارورا»، الذي كتبه في بولندا عام ١٩٠٧، قائلاً: «وانتم تعرفون بان معظم الاطباء، حتى اكثرهم تديناً، لا يعيرون هذا القانون اي اهتمام؛ فهم يعملون ايام السبت ويسافرون بالفعل، مسافة بضعة فراسخ، لمعالجة عابد الاصنام، ويسحنون الدواء بايديهم. ولا يوجد تخويل لهم بفعل ذلك. لانه على الرغم من اننا قد نجد بان انتهاك المحرمات التي فرضها الحكماء، مسموح، بسبب الخوف من العداء ـ فان حتى هذا الامر غير واضح. ومع ذلك، لا بد، في المحرمات التي تفرضها التوراة بالذات، ان يكون ذلك ممنوعاً على اي يهودي بالتأكيد، اما هؤلاء الذين يخرقون هذا المنع، فانهم ينتهكون حرمة السبت انتهاكاً تاماً، وليرحمهم الله على انتهاكهم حرمة المقدسات». (تعليق على «شولحان عاروخ»، «أوراح حاييم» ٣٣٠). ويُعتبر الكاتب عموماً، اعظم مرجع حاخامي في زمانه.

٣٣ ـ "Avraham Steinberg MD(ed), " Jewish Medical Law، جُمع وأعّد من «تيتز اليعيزر» (responsa للحاخام اليعيزر يهودا والدنبرغ)، ترجمة الطبيب دافيد ب. سيمونس، الصادرة عن Gefen and Mossad Harav Kook, Jerusalem and California, 1980.

٣٤ ـ مصدر مذكور سابقاً، ص ـ ٣٩.

٣٥ ـ المصدر نفسه، ص ـ ٤١.

٣٦ ـ المصدر نفسه، ص ـ ٤١. ان عبارة «بين اليهود والاغيار» هي تعبير ملطف. والفتوى مكرّسة لمنع عداء الاغيار تجاه اليهود، وليس العكس.

٣٧ ـ المصدر نفسه، ص. ٤١ ـ ٤٢؛ التشديد لي انا.

٣٨ ـ مؤسسة الدكتور فولك شليسينغر للابحاث الهالاخية الطبية في مستشفى شعاري تسيدك، «سيفر اسيا» (كتاب الطبيب)، روبن ماس، القدس، ١٩٧٩.

٣٩ ـ ذكرتها انا في مجلة «هعولام هازيه»، ٣٠ ايار، ١٩٧٩، وذكرتها عضو الكنيست شولاميت الوني، في صحيفة «هارتس»، ١٧ حزيران، ١٩٨٠.

٤٠ ـ سفر النبي حزقيال، ٢٣ : ٢٠.

٤١ ـ دراسة «بيراخوت»، ص ـ ١٧٨آ.

٤٢ ـ الموسوعة التلمودية، «ايشت ايش» (المرأة المتزوجة).

٤٣ ـ سفر «الخروج»، ٢٠ : ١٧.

٤٤ ـ سفر «التكوين» ٢ : ٢٤.

٤٥ ـ بن ميمون، مصدر مذكور سابقاً، «محرمات الاتصال الجنسي» ١٢، ١٠؛ الموسوعة التلمودية.

٤٦ ـ بن ميمون، مصدر مذكور سابقاً، المصدر نفسه، ١٢، ١ ـ ٣. تُعتبر كل امرأة من الاغيار N. Sh. G. Z - وهذه الاحرف الاولى للكلمات العبرية «ندّه» و«شيفاه» و«غوياه» و«زوناه» (غير نقية من الحيض وعبدة ومن الاغيار وموسس). ولكنها بتحولها واعتناقها اليهودية لا تعود غير نقية من الحيض وعبدة ومن الاغيار، ولكنها تظل تُعتبر «زوناه» (مومساً) طوال حياتها، لمجرد انها وُلدت من أم من الاغيار. وهناك تصنيف خاص للمرأة التي لم تحبل بها امها في حالة قداسة ولكنها وُلدت في حالة قداسة، اي انها وُلدت من أم تحولت الى اليهودية وهي حبلى بها. ويُصرّ الحاخامات، للتأكد تماماً بعدم حصول اي خلط في الامر، على ضرورة ان يمتنع الزوجان، اللذان تحولا معاً، واعتنقا اليهودية، عن ممارسة العلاقات الزوجية مدة ثلاثة اشهر.

٤٧ ـ وكما هو عهدنا بهذه القوانين، فانها تستثني في هذا التعميم، الاغيار الذين يتولون مناصب قانونية تتعلق بالمبادلات المالية: كتّاب العدل وجباة الضرائب ووكلاء الاراضي، وامثالهم. ولكن ليس هناك استثناء مماثل بالنسبة الى الاغيار المتواضعين العاديين، حتى وان كانوا ودودين تجاه اليهود.

٤٨ ـ بعض الحاخامات الاوائل (القرن الاول ق. م)، وصفوا هذا القانون بالقانون «البربري»

واقدموا بالفعل، على اعادة الممتلكات المفقودة العائدة للاغيار. ولكن القانون بقي ساري المفعول مع ذلك.

٤٩ ـ ليفيتيكوس، ٢٥: ١٤. هذه ترجمة حرفية للعبارة؛ وتترجمها صيغة الملك جيمس كالتالي: «لا تضطهدوا بعضكم بعضاً». وكلمة «تضطهدوا» غير دقيقة، ولكن «بعضكم بعضاً» هي ترجمة صحيحة للمصطلح اللغوي التوراتي «كل رجل شقيقه». وكما اشرنا في الفصل الثالث، فان الهالاخاه تفسر كل هذه المصطلحات باعتبارها تشير حصراً، الى القرين اليهودي.

٥٠ ـ «شولحان عاروخ»، «حوشن مشبات» ٢٢٧.

٥١ ـ يدعو الى وجهة النظر هذه هـ. بار ـ دروما، «وزيه غفول هآرتس» (وهذه هي حدود الارض)، القدس، ١٩٥٨. اصبح الجيش الاسرائيلي في السنوات الاخيرة، يستخدم هذا الكتاب كثيراً، في تعليم ضباطه.

٥٢ ـ بن ميمون، مصدر مذكور سابقاً، «عبادة الاصنام» ١٠، ٣ ـ ٤.

٥٣ ـ انظر الحاشية رقم ٢.

٥٤ ـ سفر الخروج، ٢٣ ـ ٣٣.

٥٥ ـ بن ميمون، مصدر مذكور سابقاً، «عبادة الاصنام» ١٠، ٦.

٥٦ ـ سفر التثنية، ٢٠: ١٦. انظر ايضاً الآيات المقتبسة في الحاشية رقم ١٠.

٥٧ ـ سفر الاعداد، ٣١: ١٣ ـ ٢٠؛ لاحظ خصوصاً، الآية رقم ١٧: «ولذلك اقتل الآن، كل ذكر من بين الصغار، وأقتل كل امرأة عرفت رجلاً وضاجعته».

٥٨ ـ الحاخام شاوول يسرائيلي، «تكريت قبية ليؤر ههالاخاه» (حادثة قبية في ضوء الهالاخاه)، في «هاتوراب وهامدينا»، المجلد الخامس، ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤.

٥٩ ـ يلي ذلك صلاة تبرّك «لانك لم تجعل مني عبداً». وبعد ذلك، يجب على الذَّكر ان يضيف صلاة تبرّك «لانك لم تجعل مني امرأة»، وعلى المرأة ان تضيف صلاة تبرّك «لجعلي كما يروق له».

٦٠ ـ سادت في اوروبا الشرقية وحتى الازمنة الحديثة، عادة جامعة بين اليهود، تقضي بان يبصقوا على الارض عند هذه النقطة، كتعبير عن الازدراء.

٦١ ـ الكلمة العبرية هي «ميشوماديم»، وهي تشير بالاستخدام الحاخامي، الى اليهود الذين اصبحوا من «عبدة الاصنام»، اي اما وثنيين او مسيحيين، ولكن ليس الى اليهود الذين تحولوا الى الاسلام.

٦٢ ـ الكلمة العبرية هي «مينيم»، ومعناها الدقيق «الذين لا يؤمنون بوحدانية الله».

٦٣ ـ دراسة «مبيراخوت»، ص ـ ٥٨ ب.

٦٤ ـ بحسب العديد من المراجع الحاخامية، ما زالت القاعدة تنطبق انطباقاً كاملاً في ارض اسرائيل.

٦٥ ـ اثارت هذه العادة حوادث عديدة في تاريخ اليهود الاوروبيين. وإحدى اشهر هذه الحوادث التي ما زالت نتائجها مرئية اليوم، وقعت في براغ، في القرن الرابع عشر. اقدم الملك شارل الرابع، ملك بوهيميا، (الذي كان ايضاً، امبراطوراً رومانياً مقدساً) على نصب صليب فخم في وسط جسر حجري كان قد بناه، وما زال قائماً حتى يومنا هذا. وقد ابلغ اليه بان من عادة يهود براغ ان يبصقوا كلما مروا بهذا الصليب. ولانه كان مشهوراً كحامٍ لليهود، فانه لم يأمر باضطهادهم، بل اكتفى بان حكم على الطائفة اليهودية بدفع كلفة نقش الكلمة العبرية «ادوناي» (الرب)، على هذا الصليب، باحرف من ذهب. وهذه الكلمة هي واحدة من اسماء الله السبعة الاقدس، ولا يُسمح بالقيام بأي عمل ينطوي على عدم الاحترام امامها. فتوقف البصق. ولكن الحوادث الاخرى المتصلة بهذه العادة نفسها لم تكن مضحكة مثلها اطلاقاً.

٦٦ ـ الآيات الشائع استخدامها اكثر من غيرها، لهذا الغرض، تتضمن كلمات مستقاة من الجذر العبري «شاكتس»، وتعني «أبغض، أحتقر»، كما في سفر التثنية، ٧: ٢٦: «احتقرها كلياً، وأمقتها كلياً؛ لانها شيء ملعون».

ويبدو ان اصول مصطلح «شاكيتس» المهين، الذي يُستخدم للاشارة الى الاغيار كافة (الفصل الثاني)، تعود الى هذه العادة.

٦٧ ـ التلمود، دراسة «بيتزاه»، ص ـ ٢١ أ، ب؛ «ميشناه بارورا» حول «شولحان عاروخ»، «أوراح حاييم» ٥١٢. وهناك تعليق آخر (ما غن ابراهام) يستثني القرائين ايضاً.

٦٨ ـ بحسب الهالاخاه، ينبغي على اي عبد من الاغيار يشتريه اليهودي، ان يتحوّل الى اليهودية، ولكنه لا يصبح يهودياً صحيحاً نتيجة ذلك.

٦٩ـ ليفيتيكوس، ٢٥: ٤٦.

٧٠ ـ ان الشكل العبري لاسم يسوع ـ يشو ـ فُسّر على ان احرفه تمثل الاحرف الاولى من كلمات اللعنة القائلة «وليُمحى اسمه وتُمحى ذكراه»، والتي تُستخدم كشكل متطرف من اشكال الشتيمة. وفي الواقع، فان اليهود الارثوذوكس المعادين للصهيونية (مثل ناطوري كارتا)، يشيرون الى هرتزل في بعض الاحيان، كـ «هرتزل يشو»، ولقد وجدت في كتابات صهيونية دينية، تعابير مثل «ناصر يسوع»، ووجدت منذ عهد قريب اكثر، تعبير «عرفات يسوع».

الفصل السادس

النتائج السياسية

ان المواقف المستمرة لليهودية الكلاسيكية تجاه الاغيار، تؤثر تأثيراً شديداً على اتباعها، اليهود الارثوذوكس، هؤلاء الصهيونيين الذين يمكننا اعتبارهم استمراراً لها. وهذه المواقف تؤثر ايضاً، من خلال الصهيونيين، على سياسات دولة اسرائيل. وكانت اسرائيل، منذ العام ١٩٦٧، كلما اصبحت اكثر «يهودية»، كلما تأثرت سياساتها بالاعتبارات الايديولوجية اليهودية اكثر من تأثرها بالمصالح الامبريالية المبلورة بدون انفعالات. وهذا التأثير الايديولوجي لا يدركه عادة، الخبراء الاجانب، الذين يميلون الى تجاهل تأثير الديانة اليهودية على سياسات اسرائيل، او التقليل من اهميته. وهذا ما يفسر لماذا كانت معظم تكهناتهم تكهنات غير صحيحة.

وفي الواقع، فان الاسباب الدينية، التي غالباً ما تكون اسباباً تافهة، هي التي تخلق الازمات الحكومية الاسرائيلية، اكثر من اي سبب آخر. والحيّز الذي تخصصه الصحافة العبرية لبحث الخلافات التي تنشب دائماً، بين الجماعات الدينية المختلفة، او بين العلمانيين والمتدينين، اكبر من الحيّز الذي تخصصه لأي موضوع آخر، الا في ازمنة الحرب او التوترات المتعلقة بالقضايا الامنية. وفي وقت كتابة هذا الكتاب، اي في آب/اغسطس، ١٩٩٣، كانت بعض المواضيع التي تستحوذ على الاهتمام الاكبر لقراء الصحف العبرية، هي: هل يُدفن الجنود الذين يُقتلون اثناء الخدمة، في مناطق منفصلة ضمن المدافن العسكرية الاسرائيلية اذا كانوا ابناء امهات غير يهوديات؟

وهل يُسمح لجمعيات دفن الموتى الدينية اليهودية، التي تحتكر دفن الموتى اليهود كافة باستثناء افراد المستوطنات، بمواصلة عادتها بختان جثث اليهود غير المختونين قبل دفنها (ومن دون طلب اذن من العائلة)؟ وهل سيبيح القانون، استيراد اللحوم غير المذبوحة على الطريقة اليهودية، والمحظورة بصورة غير رسمية منذ انشاء الدولة ام سيمنعه؟ وهناك عدد اكبر من هذا النوع من المسائل، التي تستحوذ على اهتمام عامة اليهود الاسرائيليين اكثر بكثير من موضوع المفاوضات مع الفلسطينيين وسوريا، على سبيل المثال.

وكانت محاوَلات بعض السياسيين الاسرائيليين لتجاهل عوامل «الايديولوجية اليهودية» لصالح مصالح امبريالية صرفة، قد ادت الى عواقب وخيمة. ففي اوائل العام ١٩٧٤، كانت لاسرائيل بعد هزيمتها الجزئية في حرب يوم الغفران، مصلحة حيوية في وقف النفوذ المتجدد لمنظمة التحرير الفلسطينية، التي لم تكن قد حازت بعد، على اعتراف الدول العربية بها على أنها الممثل الشرعي الوحيد للفلسطينيين. وقد بلورت الحكومة الاسرائيلية خطة لدعم النفوذ الاردني في الضفة الغربية، الذي كان نفوذاً كبيراً، في ذلك الوقت. وقد طالب الملك حسين بمقابل منظور عندما طُلب منه تأييد الخطة. فجرى الاتفاق على ان يقيم كبير مؤيديه في الضفة الغربية، الشيخ الجعبري من مدينة الخليل، الذي كان يحكم القسم الجنوبي من الضفة الغربية بقبضة حديدية وبموافقة وزير الدفاع آنذاك، موشيه دايان، ان يقيم حفلة لوجهاء المنطقة في باحة مسكنه الفخم في الخليل. وكان للحفلة التي تُقام تكريماً لعيد ميلاد الملك، ان تتميّز بعرض علني للاعلام الاردنية، وتكون بداية لحملة موالية للاردن. ولكن المستوطنين المتدينين في مستوطنة «كريات اربع» في الجوار، الذين كانوا مجرد حفنة من الاشخاص في ذلك الوقت، سمعوا بالخطة وهددوا رئيسة الحكومة آنذاك، غولدا مئير، ووزيرها دايان، بالقيام باحتجاجات قوية، لان رفع علم «دولة غير يهودية» ضمن ارض اسرائيل، يناقض كما قالوا، المبادئ المقدسة التي تقول بان هذه الارض «تعود» لليهود فحسب. وبما أن هذا المبدأ، مبدأ مقبول من الصهيونيين كافة، فقد كان على الحكومة ان ترضخ لمطالبهم وتأمر الشيخ الجعبري بالامتناع

عن عرض اي اعلام اردنية. وعليه، فقد عمد الجعبري الذي شعر بمذلة عميقة، الى الغاء الحفلة، وصوّت الملك حسين في مؤتمر الجامعة العربية في فاس، الذي عُقد بعد هذه الحادثة بوقت قصير، لصالح منظمة التحرير الفلسطينية واعترف بها على أنها الممثل الوحيد للفلسطينيين.

وبالنسبة الى معظم العامة من اليهود الاسرائيليين، فان المحادثات الجارية حول «الحكم الذاتي»، متأثرة بدورها، بمثل هذه الاعتبارات الايديولوجية اليهودية، اكثر من تأثرها بأي اعتبارات اخرى.

والاستنتاج الذي يُستخلص من هذه النظرة في السياسات الاسرائيلية، المدعوم بتحليل لليهودية الكلاسيكية، يجب ان يكون التالي: ان تحليلات صناعة السياسة الاسرائيلية، التي لا تشدد على اهمية طابعها الفريد كـ «دولة يهودية» يجب ان تكون تحليلات خاطئة. والمقارنة السهلة لاسرائيل بحالات اخرى من حالات الامبريالية الغربية، او بدول استيطانية اخرى، هي بصفة خاصة، مقارنة غير صحيحة. ففي ظل النظام القائم على الفصل العنصري، كانت ارض جنوب افريقيا مقسمة رسمياً الى قسمين، ٨٧ بالمائة منها «تعود» للبيض، و١٣ بالمائة منها قيل، رسمياً، بانها «تعود» للسود. بالاضافة الى ذلك، أنشئت، رسمياً، دول ذات سيادة، ما يُسمى البانتوستان، تتجسد فيها كل رموز هذه السيادة.

ولكن «الايديولوجية اليهودية» تطالب بعدم جواز الاعتراف بأي جزء من ارض اسرائيل، كجزء «يعود» لغير اليهود، وبعدم جواز السماح الرسمي بعرض اي علامة من علامات السيادة، مثل رفع الاعلام الاردنية. ومبدأ استرداد الارض يطالب مثالياً، بأن تصبح كل الارض، وليس مجرد ٨٧ بالمائة منها، مثلاً، ارضاً «مستردة» في ميعادها، اي ان تصبح مملوكة من اليهود. وتحظّر «الايديولوجية اليهودية» ذلك المبدأ الملائم جداً، مبدأ الامبريالية، الذي كان قد عرفه الرومان، واتبعته من بعدهم، العديد من الامبراطوريات العلمانية، والذي صاغه اللورد كرومر افضل صياغة، بقوله: «اننا لا نحكم مصر، اننا نحكم حكام مصر». فالايديولوجية اليهودية تمنع اعترافاً من هذا القبيل؛ وهي تمنع ايضاً، اتخاذ موقف ينمّ في ظاهره، عن الاحترام

تجاه اي «حكام غير يهود» ضمن ارض اسرائيل. و لايمكن لاسرائيل ان تستخدم ضمن المنطقة التي تعتبر جزءاً من ارض اسرائيل، نظام العملاء برمته، من ملوك وسلاطين ومهراجات وزعماء، او نظام الديكتاتوريين التابعين، في الازمنة الاحدث، وهو النظام الملائم جداً في حالات اخرى، للسيطرة السياسية الامبريالية. وبالتالي، فان المخاوف، التي يعبّر عنها الفلسطينيون عادة، من ان يُعرض عليهم انشاء «بانتوستان»، مخاوف لا اساس موجباً لها على الاطلاق. ولا يمكننا ان نتصوّر تراجعاً اسرائيلياً الا إذا فقدت أرواح اسرائيلية كثيرة في الحرب، كما حصل في عام ١٩٧٣، وفي عواقب الحرب في لبنان، في فترة ١٩٨٣ ـ ١٩٨٥، بما ان هذا التراجع يُمكن ان يُبرّر بالمبدأ القائل بان قدسية الحياة اليهودية اهم من الاعتبارات الاخرى. ولكن الامر الذي لا يمكنه ان يحصل، هو ان تهب اسرائيل، ما دامت باقية دولة يهودية، سيادة مزيفة ولكنها مع ذلك، حقيقية رمزياً، او حتى حكماً ذاتياً حقيقياً، لغير اليهود، ضمن ارض اسرائيل، ولاسباب سياسية صرفة. فاسرائيل مثلها مثل بعض البلدان الاخرى، دولة حصرية تقتصر على جماعة دون اخرى، ولكن الحصرية الاسرائيلية ميزة خاصة باسرائيل بالذات، دون غيرها.

، ويمكننا ان نقدّر بان «الايديولوجية اليهودية»، بالاضافة الى تأثيرها على السياسات الاسرائيلية، تؤثر ايضاً، على قسم مهم من يهود الشتات، وقد يكون على اكثريتهم. ولما كان وضع الايديولوجية اليهودية موضع التنفيذ الفعلي يعتمد على اسرائيل قوية، فان هذا بدوره، يعتمد الى حد بعيد، على الدعم الذي يقدمه يهود الشتات لاسرائيل، وخصوصاً يهود الولايات المتحدة الاميركية، وصورة يهود الشتات ومواقفهم من غير اليهود، تختلف تماماً عن مواقف اليهودية الكلاسيكية كما وصفناها اعلاه. ويظهر هذا الاختلاف اكثر ما يظهر، في البلدان الناطقة بالانكليزية، حيث تحصل بانتظام، افدح التحريفات لليهودية. والوضع على اسوأ ما يكون في الولايات المتحدة وكندا، الدولتين اللتين تفوق قوة تأييدهما للسياسات الاسرائيلية، بما فيها السياسات التي تتناقض تناقضاً صارخاً مع الحقوق الانسانية، قوة اي تأييد آخر لها.

ولا يمكننا، عندما ندرس دعم الولايات المتحدة لاسرائيل بالتفاصيل الملموسة وليس بالمطلق، ان نفسر هذا الدعم تفسيراً وافياً، فقط على انه نتيجة المصالح الامبريالية الاميركية. اذ ينبغي ان يُؤخذ في الحسبان النفوذ القوي الذي تمارسه الطائفة اليهودية المنظمة في الولايات المتحدة، دعماً للسياسات الاسرائيلية كافة، من اجل تفسير سياسات الادارات الاميركية في الشرق الاوسط. وهذه الظاهرة ملحوظة اكثر في حالة كندا التي لا يمكن ان تُعتبر مصالحها الشرق اوسطية على قدر مماثل من الاهمية، ولكن تفانيها المخلص لاسرائيل يفوق حتى تفاني الولايات المتحدة لها. والمنظمات اليهودية في كلا البلدين (وايضاً في فرنسا وبريطانيا ودول عديدة اخرى)، بالولاء نفسه الذي منحته الاحزاب الشيوعية للاتحاد السوفييتي لوقت طويل. كما ان العديد من اليهود الذين يبدون نشيطين في الدفاع عن الحقوق الانسانية، والذين يتبنّون وجهات نظر منشقة بخصوص مسائل اخرى، يُظهرون في القضايا التي تمسّ اسرائيل، درجة لافتة من الاستبداد ونجدهم في طليعة المدافعين عن سياسات اسرائيل كافة. ومن المعروف جيداً في اسرائيل بان الشوفينية والتعصّب الذي يُظهره يهود الشتات المنظمين في تأييدهم لاسرائيل، اكبر بكثير من الشوفينية التي يظهرها اليهودي الاسرائيلي العادي (خصوصاً منذ العام ١٩٦٧). وهذا التعصّب ملحوظ بصفة خاصة في كندا والولايات المتحدة، ولكنني سوف اركز على الولايات المتحدة بسبب اهميتها الاكبر بما لا يُقاس. ولكن تجدر الاشارة الى اننا نجد ايضاً، يهوداً لا تختلف آراؤهم في السياسات الاسرائيلية عن آراء باقي المجتمع (مع الاعتبار الذي تستحقه عوامل الجغرافيا والدخل والمكانة الاجتماعية، والى ما هنالك من عوامل اخرى).

لماذا يُبدي بعض اليهود الاميركيين شوفينية، تكون متطرفة في بعض الاحيان ولا يبديها غيرهم؟ علينا ان نبدأ بلحظ الاهمية الاجتماعية، وبالتالي الاهمية السياسية، للمنظمات اليهودية ذات الطبيعة الحصرية: انها لا تقبل مبدئياً، باعضاء من غير اليهود. (وهذه الحصرية تتناقض تناقضاً مضحكاً مع بحثها الدؤوب لاكتشاف اكثر النوادي المغمورة التي ترفض قبول عضوية يهودي من أجل ان تدينها). و هؤلاء الذين يمكننا ان نسميهم «يهوداً منظمين»، والذين يمضون معظم

اوقاتهم خارج دوام العمل، برفقة يهود آخرين، يمكننا ان نعتبرهم من انصار الحصرية اليهودية والمحافظة على مواقف اليهودية الكلاسيكية تجاه الاغيار. ولكنهم لا يستطيعون في ظل الظروف الحاضرة، التعبير علناً عن هذه المواقف تجاه الاغيار في الولايات المتحدة، الذين يشكلون ما يزيد على ٩٧ بالمائة من عدد السكان. ولكنهم يعوّضون عن ذلك بالتعبير عن مواقفهم الحقيقية في دعمهم لـ «الدولة اليهودية» والمعاملة التي تعامل بها الاغيار في الشرق الاوسط.

والا، كيف لنا، خلاف ذلك، ان نفسر هذا الحماس الذي ابداه كل هذا العدد من الحاخامات الاميركيين دعماً لمارتن لوثر كينغ، مثلاً، مقارنة بامتناعهم عن تأييد حقوق الفلسطينيين، حتى حقوقهم الانسانية الفردية؟ كيف لنا، خلاف ذلك، ان نفسر التناقض الصارخ بين مواقف اليهودية الكلاسيكية نحو الاغيار، التي تتضمن القاعدة القائلة بوجوب عدم انقاذ حياتهم الا من اجل المصلحة اليهودية، وبين تأييد الحاخامات الاميركيين واليهود المنظمين لحقوق السود؟ فمارتن لوثر كينغ وغالبية السود الاميركيين، ليسوا يهوداً، مع كل ذلك. وحتى اذا اعتبرنا بان اليهود المحافظين والارثوذوكس فحسب، الذين يشكلون مجتمعين، اكثرية اليهود المنظمين، هم الذين يحملون مثل هذه الآراء في الاغيار، الا ان القسم الآخر من اليهود الاميركيين المنظمين، الاصلاحيين، لم يعارضهم قط، بل، في رأيي، يظهر متأثراً جداً بهم.

ان تفسير هذا التناقض الظاهري امر سهل في الواقع. اذ يجب ان نتذكر بان اليهودية، خصوصاً في شكلها الكلاسيكي، استبدادية، في طبيعتها؛ وان سلوك مؤيدي الايديولوجيات الاستبدادية الاخرى في ازمنتنا لم يكن مختلفاً عن سلوك اليهود الاميركيين المنظمين. فستالين ومؤيدوه لم يكلّوا من ادانة التمييز ضد السود الاميركيين والجنوب افريقيين، خصوصاً في خضم اسوأ الجرائم التي كانت تُرتكب داخل الاتحاد السوفييتي. ونظام الفصل والتمييز العنصري في جنوب افريقيا لم يتوقف عن شجبه لانتهاكات حقوق الانسان التي كانت ترتكبها الانظمة الشيوعية او الانظمة الافريقية الاخرى، كما لم يتوقف عن شجبها مؤيدوه في البلدان الاخرى.

ويمكن اعطاء امثلة مشابهة عديدة. ولذلك، فان تأييد المرء للديمقراطية او

لحقوق الانسان، هو تأييد لا معنى له، او حتى انه تأييد مؤذ ومضلل عندما لا يبدأ بانتقاد الذات، وبتأييد حقوق الانسان عندما تنتهكها الجماعة نفسها التي ينتمي اليها هذا المرء. وان اي تأييد لحقوق الانسان عموماً، يصدر عن يهودي، ولا يشمل تأييد حقوق الاغيار الذين تنتهك «الدولة اليهودية» حقوقهم، هو تأييد مضلل مثل ضلال التأييد الستاليني لحقوق الانسان. وان الحماسة الظاهرية التي ابداها الحاخامات الاميركيون، او التي ابدتها المنظمات اليهودية، في الولايات المتحدة، خلال الخمسينات والستينات، تأييداً للسود في الجنوب، لم يكن حافزها الا اعتبارات المصلحة الشخصية اليهودية، تماماً مثلما كان التأييد الشيوعي لهؤلاء السود انفسهم.

في كلا الحالتين كانت محاولة لاستقطاب طائفة السود سياسياً، وفي الحالة اليهودية، كانت محاولة لاستقطاب تأييدهم الغافل لسياسات اسرائيل في الشرق الاوسط.

لذلك، فان الامتحان الحقيقي الذي يواجه اليهود الاسرائيليين ويهود الشتات هو امتحان نقدهم الذاتي الذي ينبغي ان يشمل نقد الماضي اليهودي. والجزء الاهم لهذا النقد يجب ان يكون مواجهة الموقف اليهودي من غير اليهود، مواجهة مفصّلة وصادقة. وهذا ما يطلبه اليهود وعن حق، من هؤلاء: ان يواجهوا ماضيهم هم، ليصبحوا بالتالي، مدركين للتمييز والاضطهادات التي ارتُكبت بحق اليهود. ففي السنوات الاربعين الاخيرة جاوز الى حدٍ كبير عدد الاغيار الذين قُتلوا على يد اليهود، عدد اليهود الذين قُتلوا على يد غير اليهود. كما ان مدى الاضطهادات والتمييز ضد الاغيار، التي ارتكبتها «الدولة اليهودية»، بتأييد يهود الشتات المنظمين، يجاوز تجاوزاً كبيراً مدى المعاناة التي سببتها لليهود الانظمة المعادية لهم. وعلى الرغم من ان النضال ضد معاداة السامية (اشكال العنصرية الاخرى كافة) ينبغي الا يتوقف ابداً، فان النضال ضد الشوفينية والحصرية اليهودية، الذي يجب ان يشمل نقداً لليهودية الكلاسيكية، هو نضال يساويه في الاهمية، او يفوقه اهمية.

الفهرس

إسرائيل شاحاك، أستاذ في الكيمياء العضوية (سابقاً). علماني وتقدمي، من النشيطين في مجال الدفاع عن حقوق الإنسان، في إسرائيل والمناطق العربية المحتلة. باحث في التاريخ اليهودي والديانة اليهودية. يُصدر منذ سنوات طويلة نشرة *Israel and Palestine*، تُعنى بالنزاع العربي الإسرائيلي. مؤيد للقضية الفلسطينية ولعلمنة المجتمع الإسرائيلي. يرى في الإحتلال الإسرائيلي تعبيراً عن الامبريالية الاسرائيلية، ويعتبر سياسات اسرائيل استبدادية وعنصرية (كان من الاسرائيليين القلائل جداً، الذين كتبوا عن مجزرة دير ياسين).

يحلل شاحاك، كتاب اليهود الذي يحوي تشريعاتهم في الدين والدنيا (التلمود)، وتأثير التعاليم والتقاليد اليهودية على دولة اسرائيل، التي يريد اليمين الاسرائيلي برأيه، تحويلها إلى دولة دينية لليهود حصراً. وهو يقدّم نقداً ممتعاً للنزعة الاستبدادية في الديانة اليهودية، ويبين كيف تحاول هذه الديانة عقلنة ما هو غير عقلاني، ويظهر التناقضات في النصوص الدينية.

ويعرض شاحاك للقوانين التلمودية التي تحكم العلاقات بين اليهود والاغيار، والتي لا يمكن أن نفهم الصهيونية والسياسة الإسرائيلية وتأييد يهود الشتات لاسرائيل، من دون أن نأخذ بعين الاعتبار التأثير العميق لهذه القوانين التي تبلور نظرة خاصة إلى العالم.

ويقدّم شاحاك تعريفاً للدولة اليهودية ولايديولوجية «الأرض المستردة». ويبين كيف يكون التوسع الاسرائيلي بحوافزه الايديولوجية اليهودية، اكبر من خطر السياسات القائمة على اعتبارات استراتيجية خالصة.

ويخصص شاحاك حيزاً لمسائل مثيرة للإهتمام، مثل مصطلح «اليهودي» الذي يكشف ازدواجيته، واللاسامية الحديثة والرد الصهيوني عليها، ليتناول من ثم موضوع التلمود والاغيار، والنصوص المعادية لهم فيه. وهو يعرض أخيراً، للأرثوذكسية اليهودية وحقيقة الايمان بالاله الواحد، ليتناول القوانين التلمودية ضد الاغيار. ويخصص الفصل الأخير لاستعراض التبعات السياسية لمواقف الارثوذكسية اليهودية من الاغيار.

